أعلام الهداية

الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه‌السلام

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم‌السلام

قم المقدسة

اسم الكتاب: أعلام الهداية(ج1) الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه‌السلام.

المؤلف: لجنة التأليف.

الموضوع: كلام وتاريخ.

الناشر: مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم‌السلام.

الطبعة الأولى: 1422 هـ ق.

الطبعة الثانية: 1425 هـ ق.

الطبعة الثالثة: 1427 هـ ق.

المطبعة: ليلى.

الكمية: 5000.

isbn: 964- 5688-18-3

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم‌السلام

www.ahl-ul-bayt-org

أهل البيت في القرآن الكريم

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)

الأحزاب: 33 / 33

أهل البيت في السنة النبويّة

(إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبد)

(الصحاح والمسانيد)

المقدمة

الحمد لله الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى، ثم الصلاة والسلام على من اختارهم هداةً لعباده، لا سيَّما خاتم الأنبياء وسيّد الرسل والأصفياء أبو القاسم المصطفى محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وعلى آله الميامين النجباء.

لقد خلق الله الإنسان وزوّده بعنصري العقل والإرادة، فبالعقل يبصر ويكتشف الحقّ ويميّزه عن الباطل، وبالإرادة يختار ما يراه صالحاً له ومحقّقاً لأغراضه وأهدافه.

وقد جعل الله العقل المميِّز حجةً له على خلقه، وأعانه بما أفاض على العقول من معين هدايته ; فإنّه هو الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، وأرشده إلى طريق كماله اللائق به، وعرّفه الغاية التي خلقه من أجلها، وجاء به إلى هذه الحياة الدنيا من أجل تحقيقها.

وأوضح القرآن الحكيم بنصوصه الصريحة معالم الهداية الربّانية وآفاقها ومستلزماتها وطرقها، كما بيّن لنا عللها وأسبابها من جهة، وأسفر عن ثمارها ونتائجها من جهة أخرى.

قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَی) (الأنعام (6:(71)

(وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (البقرة (2): 213(.

(وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) (الأحزاب (33): 4(.

(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (آل عمران (3): 101(.

(قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إلى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) (يونس (10(: 35 (

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إلى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (سبأ (34): 6(.

(ومن أضلّ ممن اتّبع هواه بغير هدىً من الله) (القصص ( 28 :(50)

فالله تعالى هو مصدر الهداية. وهدايته هي الهداية الحقيقية، وهو الذي يأخذ بيد الإنسان إلى الصراط المستقيم وإلى الحقّ القويم.

وهذه الحقائق يؤيدها العلم ويدركها العلماء ويخضعون لها بملء وجودهم.

ولقد أودع الله في فطرة الإنسان النزوع إلى الكمال والجمال ثمّ مَنّ عليه بإرشاده إلى الكمال اللائق به، وأسبغ عليه نعمة التعرّف على طريق الكمال، ومن هنا قال تعالى: (وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ ليعبدونِ) (الذاريات (51): 56). وحيث لا تتحقّق العبادة الحقيقية من دون المعرفة، كانت المعرفة والعبادة طريقاً منحصراً وهدفاً وغايةً موصلةً إلى قمّة الكمال.

وبعد أن زوّد الله الإنسان بطاقتي الغضب والشهوة ليحقّق له وقود الحركة نحو الكمال; لم يؤمَن عليه من سيطرة الغضب والشهوة; والهوى الناشئ منهما، والملازم لهما فمن هنا احتاج الإنسان ـ بالإضافة إلى عقله وسائر أدوات المعرفة ـ إلى ما يضمن له سلامة البصيرة والرؤية; كي تتمّ عليه الحجّة، وتكمل نعمة الهداية، وتتوفّر لديه كلّ الأسباب التي تجعله يختار طريق الخير والسعادة، أو طريق الشرّ والشقاء بملء إرادته.

ومن هنا اقتضت سُنّة الهداية الربّانية أن يُسند عقل الإنسان عن طريق الوحي الإلهي، ومن خلال الهداة الذين اختارهم الله لتولِّي مسؤولية هداية العباد وذلك عن طريق توفير تفاصيل المعرفة وإعطاء الإرشادات اللازمة لكلّ مرافق الحياة.

وقد حمل الأنبياء وأوصياؤهم مشعل الهداية الربّانية منذ فجر التاريخ وعلى مدى العصور والقرون، ولم يترك الله عباده مهملين دون حجة هادية وعلم مرشد ونور مُضيء، كما أفصحت نصوص الوحي ـ مؤيّدةً لدلائل العقل ـ بأنّ الأرض لا تخلو من حجة لله على خلقه، لئلاّ يكون للناس على الله حجّة، فالحجّة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق، ولو لم يبق في الأرض إلاّ اثنان لكان أحدهما الحجّة، وصرّح القرآن ـ بشكل لا يقبل الريب ـ قائلاً: (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) )الرعد (13): 7(.

ويتولّى أنبياء الله ورسله وأوصياؤهم الهداة المهديّون مهمّة الهداية بجميع مراتبها، والتي تتلخّص في:

1 ـ تلقِّي الوحي بشكل كامل واستيعاب الرسالة الإلهية بصورة دقيقة. وهذه المرحلة تتطلّب الاستعداد التام لتلقّي الرسالة، ومن هنا يكون الاصطفاء الإلهي لرسله شأناً من شؤونه، كما أفصح بذلك الذكر الحكيم قائلاً: (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) ) الأنعام (6(: 124) و(اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ) ) آل عمران (3): 179(.

2 ـ إبلاغ الرسالة الإلهية إلى البشرية ولمن أرسلوا إليه، ويتوقّف الإبلاغ على الكفاءة التامّة التي تتمثّل في (الاستيعاب والإحاطة اللازمة) بتفاصيل الرسالة وأهدافها ومتطلّباتها، و (العصمة) عن الخطأ والانحراف معاً، قال تعالى: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) (البقرة (2): 213(.

3 ـ تكوين اُمة مؤمنة بالرسالة الإلهية، وإعدادها لدعم القيادة الهادية من أجل تحقيق أهدافها وتطبيق قوانينها في الحياة، وقد صرّحت آيات الذكر الحكيم بهذه المهمّة مستخدمةً عنواني التزكية والتعليم، قال تعالى: (يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) (الجمعة(62(: 2) والتزكية هي التربية باتجاه الكمال اللائق بالإنسان. وتتطلّب التربية القدوة الصالحة التي تتمتّع بكلّ عناصر الكمال، كما قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) (الأحزاب(33(: 21).

4 ـ صيانة الرسالة من الزيغ والتحريف والضياع في الفترة المقرّرة لها، وهذه المهمة أيضاً تتطلّب الكفاءة العلمية والنفسية، والتي تسمّى بالعصمة.

5 ـ العمل لتحقيق أهداف الرسالة المعنوية وتثبيت القيم الأخلاقية في نفوس الأفراد وأركان المجتمعات البشرية وذلك بتنفيذ الأطروحة الربّانية، وتطبيق قوانين الدين الحنيف على المجتمع البشري من خلال تأسيس كيان سياسيٍّ يتولّى إدارة شؤون الأمة على أساس الرسالة الربّانية للبشرية، ويتطلّب التنفيذ قيادةً حكيمةً، وشجاعةً فائقةً، وثباتاً كبيراً، ومعرفةً تامةً بالنفوس وبطبقات المجتمع والتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية وقوانين الإدارة والتربية وسنن الحياة، ونلخّصها في الكفاءة العلمية لإدارة دولة عالمية دينية، هذا فضلاً عن العصمة التي تعبّر عن الكفاءة النفسية التي تصون القيادة الدينية من كلّ سلوك منحرف أو عمل خاطئ بإمكانه أن يؤثّر تأثيراً سلبيّاً على مسيرة القيادة وانقياد الأمة لها بحيث يتنافى مع أهداف الرسالة وأغراضها.

وقد سلك الأنبياء السابقون وأوصياؤهم المصطفون طريق الهداية الدامي، واقتحموا سبيل التربية الشاقّ، وتحمّلوا في سبيل أداء المهامّ الرسالية كلّ صعب، وقدّموا في سبيل تحقيق أهداف الرسالات الإلهية كلّ ما يمكن أن يقدّمه الإنسان المتفاني في مبدئه وعقيدته، ولم يتراجعوا لحظة، ولم يتلكّأوا طرفة عين.

وقد توّج الله جهودهم وجهادهم المستمرّ على مدى العصور برسالة خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وحمّله الأمانة الكبرى ومسؤولية الهداية بجميع مراتبها، طالباً منه تحقيق أهدافها. وقد خطا الرسول الأعظم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في هذا الطريق الوعر خطوات مدهشة، وحقّق في أقصر فترة زمنية أكبر نتاج ممكن في حساب الدعوات التغييرية والرسالات الثورية، وكانت حصيلة جهاده وكدحه ليل نهار خلال عقدين من الزمن ما يلي:

1 ـ تقديم رسالة كاملة للبشرية تحتوي على عناصر الديمومة والبقاء.

2 ـ تزويدها بعناصر تصونها من الزيغ والانحراف.

3 ـ تكوين اُمة مسلمة تؤمن بالإسلام مبدأً، وبالرسول قائداً، وبالشريعة قانوناً للحياة.

4 ـ تأسيس دولة إسلامية وكيان سياسيٍّ يحمل لواء الإسلام ويطبّق شريعة السماء.

5 ـ تقديم الوجه المشرق للقيادة الربّانية الحكيمة المتمثّلة في قيادته صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم

ولتحقيق أهداف الرسالة بشكل كامل كان من الضروري:

أ ـ أن تستمرّ القيادة الكفوءة في تطبيق الرسالة وصيانتها من أيدي العابثين الذين يتربّصون بها الدوائر.

ب ـ أن تستمرّ عملية التربية الصحيحة باستمرار الأجيال; على يد مربٍّ كفوء علمياً ونفسياً حيث يكون قدوة حسنة في الخلق والسلوك كالرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، يستوعب الرسالة ويجسّدها في كل حركاته وسكناته.

ومن هنا كان التخطيط الإلهيّ يحتّم على الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إعداد الصفوة من أهل بيته، والتصريح بأسمائهم وأدوارهم; لتسلّم مقاليد الحركة النبويّة العظيمة والهداية الربّانية الخالدة بأمر من الله سبحانه وصيانة للرسالة الإلهية التي كتب الله لها الخلود من تحريف الجاهلين وكيد الخائنين، وتربية للأجيال على قيم ومفاهيم الشريعة المباركة التي تولّوا تبيين معالمها وكشف أسرارها وذخائرها على مرّ العصور، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وتجلّى هذا التخطيط الربّاني في ما نصّ عليه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بقوله: (إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض).

وكان أئمة أهل البيت صلوات الله عليهم خير من عرّفهم النبي الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بأمر من الله تعالى لقيادة الأمة من بعده.

إنّ سيرة الأئمّة الاثني عشر من أهل البيت عليهم‌السلام تمثّل المسيرة الواقعية للإسلام بعد عصر الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، ودراسة حياتهم بشكل مستوعب تكشف لنا عن صورة مستوعبة لحركة الإسلام الأصيل الذي أخذ يشقّ طريقه إلى أعماق الأمة بعد أن أخذت طاقتها الحرارية تتضاءل بعد وفاة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، فأخذ الأئمة المعصومون عليهم‌السلام يعملون على توعية الأمة وتحريك طاقتها باتجاه إيجاد وتصعيد الوعي الرساليِّ للشريعة ولحركة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وثورته المباركة، غير خارجين عن مسار السنن الكونية التي تتحكّم في سلوك القيادة والأمة جمعاء.

وتبلورت حياة الأئمّة الراشدين في استمرارهم على نهج الرسول العظيم وانفتاح الأمة عليهم والتفاعل معهم كأعلام للهداية ومصابيح لإنارة الدرب للسالكين المؤمنين بقيادتهم، فكانوا هم الأدلاّء على الله وعلى مرضاته، والمستقرّين في أمر الله، والتامّين في محبّته، والذائبين في الشوق إليه، والسابقين إلى تسلّق قمم الكمال الإنسانيّ المنشود.

وقد حفلت حياتهم بأنواع الجهاد والصبر على طاعة الله وتحمّل جفاء أهل الجفاء حتّى ضربوا أعلى أمثلة الصمود لتنفيذ أحكام الله تعالى، ثم اختاروا الشهادة مع العزّ على الحياة مع الذلّ، حتى فازوا بلقاء الله سبحانه بعد كفاح عظيم وجهاد كبير.

ولا يستطيع المؤرّخون والكتّاب أن يلمّوا بجميع زوايا حياتهم العطرة ويدّعوا دراستها بشكل كامل، ومن هنا فإنّ محاولتنا هذه إنّما هي إعطاء قبسات من حياتهم، ولقطات من سيرتهم وسلوكهم ومواقفهم التي دوّنها المؤرّخون واستطعنا اكتشافها من خلال مصادر الدراسة والتحقيق، عسى الله أن ينفع بها إنّه وليّ التوفيق.

إنّ دراستنا لحركة أهل البيت عليهم‌السلام الرسالية تبدأ برسول الإسلام وخاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وتنتهي بخاتم الأوصياء، محمد بن الحسن العسكري المهدي المنتظر عجّل الله تعالى فرجه وأنار الأرض بعدله.

ويختصّ هذا الكتاب بدراسة حياة الإمام علي بن أبي طالب عليه‌السلام ، أول أئمة أهل البيت عليهم‌السلام بعد رسول الله ، وهو المعصوم الثاني من أعلام الهداية والذي جسد الإسلام في كل مجالات حياته الشريفة فكان نبراساً ومتراساً ومثلاً أعلى للبشرية بعد رسول الله محمد بن عبد الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم.

ولا بدَّ لنا من تقديم الشكر إلى كل الإخوة الأعزّاء الذين بذلوا جهداً وافراً وشاركوا في إنجاز هذا المشروع المبارك وإخراجه إلى عالم النور، لا سيَّما أعضاء لجنة التأليف بإشراف سماحة السيد منذر الحكيم (حفظه الله تعالى).

ولا يسعنا إلاّ أن نبتهل إلى الله تعالى بالدعاء والشكر لتوفيقه على إنجاز هذه الموسوعة المباركة فإنه حسبنا ونعم النصير.

للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم‌السلام

قم المقدسة

الباب الأول: فيه فصول:

الفصل الأول: الإمام علي عليه‌السلام في سطور.

الفصل الثاني: انطباعات عن شخصية الإمام عليه‌السلام.

الفصل الثالث: مظاهر من شخصية الإمام عليه‌السلام.

الفصل الأوّل: الإمام المرتضى عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام في سطور

\* ـ هو أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين وأوّل خلفاء الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم المهديّين ـ بأمر من الله ونصّ من رسوله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ـ وقد صرّح القرآن بعصمته وتطهيره من كلّ رجس، وباهل به وبزوجته وولديه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم نصارى نجران، واعتبره من القربى الذين وجبت مودّتهم مصرّحاً غير مرّة بأنّها عِدل الكتاب المجيد الموجبين للمتمسّك بهما النجاة وللمتخلّف عنهما الردى .

\* ـ نشأ الإمام في حجر رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم منذ نعومة أظفاره، وتغذّى من معين هديه، فكان المتعلّم الوفيّ والأخ الزكيّ، وأوّل من آمن وصلّى وأصدق من تفانى في سبيل ربّه وضحّى في سبيل إنجاح رسالته في أحرج لحظات صراعها مع الجاهلية العاتية في كلّ صورها في العهدين المكّي والمدني وفي حياة الرسول وبعد رحيله ذائباً في مبدئه ورسالته وجميع قيمه مجسّداً للحقّ بكلّ شُعَبِه من دون أن يتخطّاها قيد أنملة أو ينحرف عنها قيد شعرة .

\* ـ لقد وصفه ضرار بن ضمرة الكناني لمعاوية بن أبي سفيان حتى أبكاه وأبكى القوم وجعله يترحّم عليه، بقوله : (كان والله بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان غزير العبرة طويل الفكرة، يقلّب كفّه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما جشب. وكان فينا كأحدنا، يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، ويأتينا إذا دعوناه، وينبّئنا إذا

استنبأناه. ونحن والله مع تقريبه إيّانا وقربه منّا لا نكاد نكلّمه هيبةً له، فإن ابتسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظّم أهل الدين ويقرّب المساكين، لا يطمع القويّ في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله(1).

\* ـ لقد آزر الإمام عليه‌السلام رسول الله منذ بداية الدعوة، وجاهد معه جهاداً لا مثيل له في تأريخ الدعوة المباركة حتى تفرّى الليل عن صُبحه وأسفر الحقّ عن محضه ونطق زعيم الدين وخرست شقاشق الشياطين بعد أن مُني بذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب(2).

\* ـ وبعد أن خطا الرسول الأعظم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لتغيير المجتمع الجاهلي خطواته المدهشة في تلك الفترة القصيرة كان الطريق أمام الإسلام لبلوغ أهدافه الكبرى شاقاً وطويلاً يتطلّب التخطيط الكامل والقيادة الواعية التي لا تقلّ عن شخصية الرسول القائد إيماناً وكمالاً وإخلاصاً ودرايةً وحنكةً، وكان من الطبيعي للرسالة الخاتمة أن تخطّط لمستقبل هذه الدعوة التي تعتبر عصارة دعوات الأنبياء جميعاً ووريثة جهودهم وجهادهم المتواصل عبر التأريخ.. وهكذا كان إذ اختار النبيّ الخاتم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بأمر من الله سبحانه شخصاً رشّحه عمق وجوده في كيان الدعوة حتى تفانى في أهدافها وخلص من جميع شوائب الجاهلية ورواسبها وتحلّى بأعلى درجات الكفاءة وعياً وإيماناً وإخلاصاً وتضحيةً في سبيل الله.

لقد كان عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام هو ذلك البديل الذي أعدّه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إعداداً رسالياً خاصّاً ليحمّله المرجعية الفكرية والسياسية من بعده ، كي يواصل عملية التغيير الطويلة الرائدة بمساندة القاعدة الواعية التي أعدّها الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم له من المهاجرين والأنصار.

\* ـ ولكنّ الجاهلية المتجذّرة في أعماق ذلك المجتمع ما كانت لتندحر في بدر وحُنين وخلال عقد واحد من الصراع والكفاح، وكان من الطبيعي أن تظهر من جديد متستِّرة بشعار إسلامي كي تستطيع أن تظهر على المسرح الاجتماعي من جديد ولو بعد عقود من الزمن، وكان من الطبيعي أيضاً أن تتسلّل إلى المواقع القيادية بشكل مباشر أو غير مباشر.. ومن هنا كانت الردّة إلى المفاهيم والعادات الجاهلية ـ من خلال الالتفاف على القيادة الشرعية للمجتمع الإسلامي الفتي الذي كانت تحدق به الأخطار من كلّ جانب، ولم تكتمل قواعده وعياً ونضجاً ـ أمراً محتملاً بل متوقّعاً لكلّ قياديّ يمتلك أدنى وعي سياسيّ واجتماعيّ، فكيف برسول الله وخاتم أنبيائه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ؟

ــــــــــــ

(1) الاستيعاب (المطبوع بهامش الإصابة) : 3/44، ط دار إحياء التراث العربي بيروت.

(2) من خطبة الزهراء عليها‌السلام المعروفة أَمام أبي بكر وعمر وسائر المهاجرين والأنصار بُعَيد رحيل الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وغصبهم للخلافة .

\* ـ وإذا كانت الرسالة الإسلامية تهدف إلى تغيير الواقع الاجتماعي الجاهلي، فلابدّ أن تلاحظ هذا الواقع بكل ملابساته ورسوباته، وتخطّط للتغيير الشامل على المدى القريب والبعيد معاً... وهكذا كان، فقد رسمت الرسالة الخط الطبيعي الذي يفرضه المنطق التشريعي للمسيرة الإسلامية الرائدة، حيث تجلّى ذلك في إرجاع الأُمّة فكرياً وسياسياً إلى الأئمّة المعصومين من كلّ رجس جاهلي، بعد أن نصب النبيّ عليّاً في غدير خم أميراً للمؤمنين، وأحكم له الأمر بأخذ البيعة له من عامّة المسلمين .

\* ـ لقد اصطدم التخطيط الرائد بواقع كان متوقّعاً للنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وبتيّار جارف يعود إلى نقصان الوعي عند الأمة التي تشكّل القاعدة الأمينة لحماية القيادة الرشيدة، بحيث لم يكن يدرك عامّة المسلمين بعمق أنّ الجاهلية تتآمر وراء الستار عليهم وعلى الثورة الإسلامية الفتيّة، وأنّ القضية ليست قضية تغيير شخص القائد بقائد آخر، وإنّما القضية قضية تغيير خط الإسلام المحمدي الثوري بخط جاهلي متستّر بالإسلام .

\* ـ وهكذا أجهضت السقيفةُ التخطيطَ الرائدَ للنبيّ القائد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حينما وجدت أنّ الساحة قد خلت منه، وتحقّقت نبوءة القرآن العظيم حين قال: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) (1) ؟!! .

لقد كان النبيّ جعل عليّاً أميناً على رسالته وأمته ودولته، وكلّفه بحفظ الرسالة والشريعة كما كلّفه بتربية الأمة الفتيّة وصيانة الدولة التي لم تترسخ جذورها بعد.

وحاول الإمام عليّ عليه‌السلام إرجاع الأمور إلى مجاريها بإدانة السقيفة ونتائجها وبالامتناع من البيعة والتصدّي للمؤامرة ، ولكن دون جدوى، بل كان الأمر قد دار بين انهيار الدولة سياسياً ودولياً وبين حفظها مع تصدّي غير الأكفّاء للقيادة.

\* ـ لقد وقف الإمام عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام موقفاً مبدئياً سجّله له التأريخ حيث قال : (فأمسكت يديّ حيث رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله; أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنّما هي متاع أيّام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب أو كما يتقشّع السحاب)(2).

\* ـ وتلخّصت مواقف هذا الإمام العظيم خلال خمسة وعشرين عاماً من

ــــــــــــ

(1) آل عمران (3) : 144.

(2) بحار الأنوار: 33/596 و 597 باب الفتن الحادثة بمصر ط وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي سنة1368 هـ . ش.

المحنة وهو يلعق الصبر الأمرّ من العلقم ـ على حدّ تعبيره عليه‌السلام ـ في الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية وعدم تصدّع الدولة النبويّة الفتيّة ولو بالتنازل عن حقّه الشرعي مؤقّتاً، وتقديم المشورة للخلفاء وإسداء النصح لهم، مع التوجّه إلى جمع القرآن وتفسيره، وتثقيف الأمة على مفاهيمه وتوعيتها على حقائقه، وكشف النقاب عن حقيقة المؤامرة التي دانت لها طوائف من المسلمين، والتصدّي لأخطاء الحكّام في الفهم والتطبيق لأحكام الشريعة الإسلامية، وإيجاد كتلة صالحة تؤمن بالتخطيط النبويّ الرائد للقيادة الإسلامية، وتسهر على نشره وتبليغه، وتضحّي من أجل تطبيقه وتنفيذه.

\* ـ واستطاع الإمام بعد عقدين ونصف من الصبر والكدح أن يقتطف ثمار سعيه ، وبعد أن تكشّفت حقائق كانت وراء الستار وتجلّى للأمة بجيليها الطليعي والتابع أنّ عليّاً عليه‌السلام هو الجدير بالخلافة دون غيره، وأنّه هو الذي يستطيع إصلاح ما فسد بالرغم من تعقّد الظروف وتبلبل القلوب واشتداد زاوية الانحراف عن نهج الحقّ القويم، حتى قال عليه‌السلام: (والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية إربة، ولكنّكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها((1).

\* ـ وأعلن الإمام عن سياسته قائلاً: (واعلموا أنّي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب)(2). وقال أيضاً: (اللّهمّ إنّك تعلم أنّه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنردّ المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطّلة من حدودك)(3).

ــــــــــــ

(1) بحار الأنوار: 32/50 باب بيعة أمير المؤمنين عليه‌السلام ط وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامية.

(2) بحار الأنوار: 32 / 36 .

(3) بحار الأنوار : 34/111 باب الفتن التي وقعت في زمان علي عليه‌السلام.

وأجهد الإمام عليه‌السلام نفسه على أن يحقّق بين الناس العدل الاجتماعي والسياسي وفي طريق لا التواء فيه، وأن يسود الأمن والحرية والرخاء والاستقرار مع الاحتفاظ بوحدة الأمة مع السعي في تربيتها وتعليمها وإعطائها كامل حقوقها، وعزل الجهاز الإداري الفاسد واستبداله بالولاة والعمّال الصالحين أو المعروفين بالصلاح ومراقبتهم أشدّ المراقبة، حيث أقصى عن دائرة المسؤولية كل الانتهازييّن والطامعين، والتزم الصراحة والحقّ والصدق في كلّ مجال ، فلم يخادع ولم يوارب، فسار عليه‌السلام على منهاج أخيه وابن عمّه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم.

\* ـ وبدأت تتحرّك كلّ القوى الطامعة والانتهازية التي خسرت مواقعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ضدّ الإمام، وأخذت تتكاتف كلّ القوى التي دعت لمقاتلة عثمان والتحريض عليه يوم أمس، رافعة شعار المطالبة بدم عثمان مندّدة بسياسة الإمام الحكيمة والنزيهة، فنكثت طائفة وقسطت أُخرى ومرقت ثالثة، وإذا بالإمام بعد كفاح مرير يقع شهيداً مخضّباً بدمائه الطاهرة في محراب عبادته وفي مسجد الكوفة وفي ليلة القدر من عام (40) من الهجرة النبوية، إنّه الفوز بالشهادة والفوز بالثبات على القيم الرسالية الفريدة والثبات على الحقّ اللاحب والجهاد في سبيل إرساء قواعد الدين ، إنّها ثورة القيم الإلهية على القيم الجاهلية بكل شُعبها وفروعها.

فسلام عليك يا أمير المؤمنين وقائد الغر المحجّلين يوم ولدت ويوم رُبّيت في حجر الرسالة، ويوم جاهدت من أجل أن تعلو راية الإسلام خفّاقة، ويوم صبرت ونصحت، ويوم بويعت وحكمت، ويوم كشفت النقاب عن براثن الجاهلية المتستّرة بشعار الإسلام، ويوم استشهدت وأنت تروّي بدمك الطاهر شجرة الإسلام الباسقة، ويوم تبعث حيّاً وأنت تحمل وسام الفوز في أعلى علّيّين.

الفصل الثاني: انطباعات عن شخصيّة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام

لقد عاصر الإمام عليّ عليه‌السلام حركة الوحي الرسالي منذ بدايتها حتى انقطاع الوحي برحيل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وكانت له مواقفه المشرّفة والتي يغبط عليها في دفاعه عن الرسول والرسالة طيلة ثلاثة وعشرين عاماً من الجهاد المتواصل والدفاع المستميت عن حريم الإسلام الحنيف، وقد انعكست مواقفه وإنجازاته وفضائله في آيات الذكر الحكيم ونصوص الحديث النبويّ الشريف.

قال ابن عباس: قد نزلت ثلاثمئة آية في عليّ عليه‌السلام (1). وما نزلت: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) إلاّ وعليّ أميرها وشريفها(2). ولقد عاتب الله أصحاب محمّد في آي من القرآن وما ذكر عليّاً إلاّ بخير(3).

ولكثرة ما نزل في علي عليه‌السلام من الآيات المباركة; خصّص جمع من المتقدّمين والمتأخرين كتباً جمعت ما نزل فيه عليه‌السلام. ونشير إلى بعض الآيات التي صرّح المحدّثون بنزولها في حقّه منها:

1 ـ ما عن ابن عباس: أنه كان مع عليّ بن أبي طالب أربعة دراهم لا يملك غيرها، فتصدّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سرّاً وبدرهم علانيةً، فأنزل الله

ــــــــــــ

(1) الفتوحات الإسلامية: 2 / 516.

(2) كشف الغمة: 93.

(3) ينابيع المودّة: 126.

سبحانه وتعالى: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (1).

2 ـ وعن ابن عباس أيضاً: أنّ عليّاً عليه‌السلام تصدّق بخاتمه وهو راكع، فقال النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم للسائل: من أعطاك هذا الخاتم؟ قال: ذاك الراكع، فأنزل الله: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) (2).

3 ـ وقد اعتبرت آية التطهير(3) عليّاً عليه‌السلام من أهل بيت الوحي المطهَّرين من كلّ رجس، واعتبرته آية المباهلة(4) نفس النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم.

4 ـ وشهدت سورة الإنسان بإخلاص عليّ وأهل بيته وخشيتهم من الله، وتضمّنت الشهادة الربّانية لهم بأنّهم من أهل الجنّة(5).

وعقد أرباب الصحاح وغيرهم من المحدّثين فصولاً خاصّة بفضائل عليّ عليه‌السلام في أحاديث رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، ولم تعرف الإنسانية في تأريخها الطويل رجلاً أفضل من عليّ عليه‌السلام بعد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، ولم يسجّل لأحد من الفضائل ما سجّل لعليّ بن أبي طالب بالرغم من كلّ ما ناله عليّ عليه‌السلام من سبّ وشتم على المنابر طوال حكم بني أُمية وما تداوله مبغضوه. وهم في صدد انتقاصه حتى لم يجدوا للعيب موضعاً فيه، ومما قاله عمر بن الخطّاب أنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال: (ما اكتسب مكتسب مثل فضل عليّ، يهدي صاحبه إلى الهدى ويردّه عن الردّى)(6).

وقيل لعليّ عليه‌السلام: ما لك أكثر أصحاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حديثاً؟ فقال : )إنّي

ــــــــــــ

(1) البقرة (2) : 274، وراجع: ينابيع المودّة: 92.

(2) المائدة (5) : 55، وراجع: تفسير الطبري: 6 / 165 والبيضاوي وغيرهما.

(3) الأحزاب (33) : 33، وراجع: صحيح مسلم ، فضائل الصحابة.

(4) آل عمران (3) : 61 ، صحيح الترمذي: 2 / 300.

(5) راجع: الكشّاف للزمخشري، والطبري في الرياض النضرة: 2 / 207.

(6) الرياض النضرة: 1 / 166.

كنت إذا سألته أنبأني، وإذا سكت ابتدأني((1).

وعن ابن عمر : أنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يوم آخى بين أصحابه وجاء عليّ وعيناه تدمع قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لعليّ عليه‌السلام : )أنت أخي في الدنيا والآخرة( (2) .

وعن أبي ليلى الغفاري أنّه قال : سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول : )سيكون من بعدي فتنة ، فإذا كان ذلك فألزموا عليّ بن أبي طالب فإنّه أول من آمن بي ، وأوّل من يصافحني يوم القيامة ، وهو الصدّيق الأكبر ، وهو فاروق هذه الأمة ، وهو يعسوب المؤمنين ، والمال يعسوب المنافقين( (3) .

واعترف الخلفاء جميعاً بأنّ عليّاً أعلم الصحابة وأقضاهم ، وأنّه لولا عليّ ؛ لهلكوا حتى صارت مقولة عمر مضرب الأمثال : لولا عليّ ؛ لهلك عمر (4) .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري أنّه قال : ما كنّا نعرف المنافقين إلاّ ببغض عليّ بن أبي طالب (5) .

ولمّا بلغ معاوية مقتل عليّ عليه‌السلام قال : ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب (6) .

وقال الشعبي : كان عليّ بن أبي طالب في هذه الأمة مثل المسيح بن مريم في بني إسرائيل ، أحبّه قوم فكفروا في حبّه ، وأبغضه قوم فكفروا في بغضه (7) .

وكان أسخى الناس ، وكان على الخلُق الذي يحبّه الله : السخاء والجود ، ما قال :

ــــــــــــ

(1) طبقات ابن سعد: 2 / 338، وحلية الأولياء: 1 / 68.

(2) سنن الترمذي: 5 / 595 الحديث 3720.

(3) الإصابة لابن حجر: 4 / 171 الرقم 994 ، ومجمع الزوائد: 1 / 102.

(4) شرح نهج البلاغة: 1 / 6 ، وتذكرة الخواص: ص87 .

(5) الاستيعاب بهامش الإصابة: 3 / 45.

(6) المصدر السابق.

(7) العقد الفريد: 2 / 216.

لسائل قطّ(1).

وقال صعصعة بن صوحان لعليّ بن أبي طالب عليه‌السلام يوم بويع: والله يا أمير المؤمنين لقد زيّنت الخلافة وما زانتك ورفعتها وما رفعتك، ولَهي إليك أحوج منها إليك.

وعن ابن شبرمة: أنّه ليس لأحد من الناس أن يقول على المنبر: (سلوني) غير علي بن أبي طالب(2).

وقام القعقاع بن زرارة على قبره فقال: رضوان الله عليك يا أمير المؤمنين، فوالله لقد كانت حياتك مفتاح الخير، ولو أنّ الناس قبلوك; لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولكنّهم غمطوا النعمة وآثروا الدنيا(3).

وقال (المسيحي) جورج جرداق في كتابه (الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانية): إنّ عليّ بن أبي طالب من الأفذاذ النادرين، إذا عرفتهم على حقيقتهم بعيداً عن الصعيد التقليدي عرفت أنّ محور عظمتهم إنّما هو الإيمان المطلق بكرامة الإنسان وحقّه المقدّس في الحياة الحرّة الشريفة، وبأنّ هذا الإنسان منظور أبداً، وبأن الجمود والتقهقر والتوقّف عند حال من أحوال الماضي أو الحاضر ليست إلاّ نذير الموت ودليل الفناء(4).

وقال شبلي شميل: الإمام عليّ بن أبي طالب، عظيم العظماء، نسخة مفردةٌ لم يرَ لها الشرق ولا الغرب صورةً طبق الأصل لا قديماً ولا حديثاً(5).

وبقدر ما بقي عليّ رمزاً وقيادةً عمليةً معاً، ملتزماً مع جيل الصحابة الكبار بالمفهوم الأوّل للإسلام كهداية وتضحية من أجل إصلاح العالم ودفعه إلى طريق

ــــــــــــ

(1) شرح نهج البلاغة: 1 / 7.

(2) أئمتنا: 1 / 94 ، عن أعيان الشيعة: ج3 / القسم 1 / ص103 .

(3) تأريخ اليعقوبي: 2 / 213.

(4) الإمام علي صوت العدالة الإنسانية: 1 / 14.

(5) المصدر السابق: ص35.

الحقّ والعدل، أي بمفهوم الدين كثورة دائمة ومستمرّة. كان معاوية يبرز من خلال صراعه مع عليّ ... ممثلاً لجيل المسلمين الجديد الذي وضعته الفتوحات في قمّة السلطة من جهة، وفرضت عليه أن يرى الأُمور أيضاً من وجهة نظر الحفاظ على المكتسبات المادية... وفي مثل هذه المواجهة العنيدة القاسية الممزّقة المدمّرة فقط كان معاوية يستطيع أن يولّد المشاعر الدنيويّة القويّة ويمزّق وحدة المسلمين ويشقّ وعيهم، وينتزع للسياسة السلطانية والدولة في مواجهة الروح الرسالية والثورية أرضاً جديدة من أملاك الدين الشامل(1).

وكتب الأستاذ هاشم معروف: لقد كان الإمام عليّ بن أبي طالب حدثاً تأريخياً غريباً عن طباع الناس وعاداتهم منذ ولادته وحتى النفس الأخير من حياته، فقد أطلّ على هذه الدنيا من الكعبة... فكانت ولادته في ذلك المكان حدثاً تأريخياً لم يكن لأحد قبله ولم يحدث لأحد بعده، وكما دخل هذه الدنيا من بيت الله فقد خرج منها حين أقبل عليه الموت من بيت الله ... وقال: ولم يحدث لإنسان غيره ما حدث له، فقد وضعه من لا يؤمنون به إيمان شيعته ومحبّيه في طليعة قادة الفكر وعباقرة العصور، ووصفه المعتدلون من محبّيه إلى جانب الأنبياء والمرسلين، والمغالون منهم في مستوى الآلهة(2).

ــــــــــــ

(1) نقد السياسة، الدولة والدين، برهان غليون: ص78 ، الطبعة الثانية 1993، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(2) سيرة الأئمة الاثني عشر: 1 / 141 ـ 142.

الفصل الثالث: مظاهر من شخصية الإمام عليّ عليه‌السلام

اجتمع للإمام عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام من صفات الكمال، ومحمود الشمائل والخِلال ، وسناء الحسب وعظيم الشرف، مع الفطرة النقيّة والنفس المرضيّة ما لم يتهيّأ لغيره من أفذاذ الرجال.

تحدّر من أكرم المناسب وانتمى إلى أطيب الأعراق، فأبوه أبو طالب عظيم المشيخة من قريش، وجدّه عبد المطلب أمير مكّة وسيّد البطحاء، ثمّ هو قبل ذلك من هامات بني هاشم وأعيانهم(1).

واختص بقرابته القريبة من الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، فكان ابن عمّه وزوج ابنته وأحبّ عترته إليه، كما كان كاتب وحيه، وأقرب الناس إلى فصاحته وبلاغته، وأحفظهم لقوله وجوامع كلمه.

أسلم على يديه قبل أن تمسّ قلبه عقيدة سابقة، أو يخالط عقله شوبٌ من شرك ، ولازمه فتىً يافعاً في غدوّه ورواحه وسلمه وحربه حتى تخلّق بأخلاقه واتّسم بصفاته، وفقه عنه الدين وتفقّه ما نزل به الروح الأمين، فكان من أفقه أصحابه وأقضاهم وأحفظهم وأدعاهم وأدقّهم في الفتيا وأقربهم إلى الصواب، حتى قال فيه عمر: لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن(2).

ــــــــــــ

(1) مقدمة شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 1 / 3 .

(2) مناقب آل أبي طالب: 2/361 ط دار الأضواء.

فكان العالم المجرّب الحكيم والناقد الخبير، وكان لطيف الحسّ، نقيّ الجوهر، وضّاء النفس، سليم الذوق، مستقيم الرأي، حسن الطريقة، سريع البديهة، حاضر الخاطر، عارفاً بمهمّات الأُمور(1).

عبادته وتقواه عليه‌السلام:

اشتهر عليّ بن أبي طالب بتقواه التي كانت علّة الكثير من تصرّفاته مع نفسه وذويه والناس... وفيما ترى العبادة لدى المعظم رجع أصداء الضعف في نفوسهم أحياناً، ومعنىً من معاني التهرّب من مواجهة الحياة والأحياء أحياناً أُخرى، وهوساً موروثاً ثمّ مدعوماً بهوس جديد مصدره تقديس الناس والمجتمع لكلّ موروث في أكثر الأحيان... تراها تشتهر عند الإمام أخْذاً من كلّ قوّة ووصلاً لأطراف الحلقة الخلقية التي تشتدّ وتمتدّ حتى تجمع الأرض والسماء، ومعنىً من معاني الجهاد في سبيل ما يربط الأحياء بكلّ خير، وهي على كلّ حال شيء من روح التمرّد على الفساد يريد محاربته من كلّ صوب، ثمّ على النفاق وروح الاستغلال والاقتتال من أجل المنافع الخاصّة.. وعلى المذلّة والفقر والمسكنة والضعف، ثمّ على سائر الصفات التي تميّز بها عصره المضطرب القلق.

إنّ من تبصّر في عبادة الإمام، تبيّن له أنّ عليّاً متمرّد في عبادته وتقواه، كما هو متمرّد في أُسلوبه في السياسة والحكم، ففي عبادته افتتان الشاعر يقف في هيكل الوجود الرحب صافي النفس ممتلئ القلب، حتى إذا انكشفت له جمالات هذا الكون; تجاوبت وما في كيانه من أصداء وأظلال وموازين، فأطلق هذه الكلمة الرائعة التي نرى فيها دستوراً كاملاً لتقوى الأحرار وعبادة عظماء النفوس: (وإنّ قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجّار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإنّ

ــــــــــــ

(1) راجع: مقدمة شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار)(1).

إنّ عبادة الإمام ليست شيئاً من سلبيّة الخائف الهارب أو التاجر الراغب كما هي الحال عند الكثيرين من المتعبّدين، بل هي شيء من إيجابية الإنسان العظيم الواعي نفسه والكون على أساس من خبرة المجرّب وعقل الحكيم وقلب الشاعر.

وبهذا المفهوم للتقوى والعبادة كان عليّ يوجّه الناس إلى أن يتّقوا الله في سبيل الخير الإنساني العام، أو قل: في سبيل أمر أجلّ من رغبة تجّار العبادات في نعيم الآخرة، كان يوجّههم إلى التقوى لعلّ فيها ما يحملهم على أن يعدلوا وينصفوا المظلوم من الظالم فيقول: )عليكم بتقوى الله .. وبالعدل على الصديق والعدوّ( (2). ولا خير في التقوى في نظر الإمام; إلاّ إذا دفعتك إلى أن تعترف بالحقّ قبل أن تشهد عليه، وألاّ تحيف على من تبغض ولا تأثم، والحياة ـ بهذا المعنى للعبادة ـ لا تبتغى لمتاع ولا تُرجى للذّة عابرة.

زُهده عليه‌السلام:

لقد زهد عليّ في الدنيا وتقشّف، وكان صادقاً في زهده كما كان صادقاً في كلّ ما نتج عن يمينه أو بَدَر من قلبه ولسانه، زهد في لذّة الدنيا وسبب الدولة وعلّة السلطان وكلّ ما يطمح لبلوغه الآخرون، ويَرَوْن أنّه مرتكز وجودهم، فإذا هو يسكن مع أولاده في بيت متواضع تأوي إليه الخلافة لا المُلك، وإذا هو يأكل الشعير تطحنه امرأته بيديها فيما كان عمّاله يعيشون على أطايب الشام وخيرات مصر ونعيم العراق، وكثيراً ما كان يأبى على زوجته أن تطحن له، فيطحن لنفسه وهو أمير المؤمنين، ويأكل من الخبز اليابس الذي يكسره على ركبته، وكان إذا أرعده البرد واشتدّ عليه الصقيع لا يتّخذ له عدّة من دثار يقيه أذى البرد، بل يكتفي بما رقّ من لباس الصيف إغراقاً منه في صوفيّة الروح.

ــــــــــــ

(1) نهج البلاغة طبعة صبحي الصالح : 510 الحكمة 237 ط دار الهجرة قم.

(2) بحار الأنوار: 77/236 باب وصيّة أمير المؤمنين عليه‌السلام ط الوفاء.

روى هارون بن عنترة عن أبيه، قال: دخلتُ على عليّ بالخورنق، وكان فصل شتاء، وعليه خلق قطيفة هو يرعد فيه، فقلت: يا أمير المؤمنين! إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً وأنت تفعل ذلك بنفسك؟ فقال: (والله ما أرزؤكم شيئاً، وما هي إلاّ قطيفتي التي أخرجتها من المدينة)(1).

وأتى أحدهم عليّاً بطعام نفيس حلو يقال له: الفالوذج، فلم يأكله عليّ ونظر إليه يقول: (والله إنّك لطيّب الريح حسن اللون طيّب الطعم، ولكن أكره أن أُعوِّد نفسي ما لم تعتد)(2).

ولعمري إنّ زهد عليّ هذا ليس إلاّ معنىً ومزاجاً من معاني فروسيّته ومزاجها وإن بدا للبعض أنّهما مختلفان.

وقد حملت هذه السيرة الطيّبة عمر بن عبد العزيز ـ أحد خلفاء الأسرة الأموية التي تكره عليّاً وتختلق له السيّئات وتسبّه على المنابر ـ على أن يقول: أزهد الناس في الدنيا عليّ بن أبي طالب(3).

والمشهور أنّ عليّاً أبى أن يسكن قصر الإمارة الذي كان معدّاً له بالكوفة، لئلاّ يرفع سكنه عن سكن أولئك الفقراء الكثيرين الذين يقيمون في خِصاصهم البائسة، ومن كلامه هذا القول الذي انبثق عن أُسلوبه في العيش انبثاقاً: )أأقنع من نفسي بأن يقال هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر؟!((4).

إباؤه وشهامته عليه‌السلام:

مثّل عليّ بن أبي طالب الفروسيّة بأروع معانيها وبكلّ ما تنطوي عليه

ــــــــــــ

(1) بحار الأنوار : 40/334 ط الوفاء.

(2) المصدر السابق : 40/327.

(3) المصدر السابق : 40/331 باب 98 ذ ح 13 ط الوفاء.

(4) نهج البلاغة طبعة صبحي الصالح: 418 الكتاب 45 .

من ألوان الشهامة. والإباء والترفّع أصلان من أصول روح الفروسيّة، فهما إذن من طبائع الإمام، لذلك كان بغيضاً لديه أن ينال أحداً من الناس بالأذى وإن آذاه، وأن يبادر مخلوقاً بالاعتداء ولو على ثقة بأنّ هذا المخلوق يقصد قتله.

وروح الإباء والترفّع هذه هي التي ارتفعت به عن مقابلة الأمويين بالسباب يوم كانوا يرشقونه به.. بل إنّه منع على أصحابه أن ينالوا الأمويين بالشتيمة المقذعة حتى قال لهم: (إنّي أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنّكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم; كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إيّاهم: اللهمّ احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتّى يعرف الحقّ مَن جهله، ويرعوي عن الغيّ والعدوان مَن لهج به )(1).

مروءته عليه‌السلام :

إنّ مروءة الإمام أندر من أن يكون لها مثيل في التأريخ، وحوادث المروءة في سيرته أكثر من أن تعدّ، منها أنّه أبى على جنده ـ وهم في حال من النقمة والسخط ـ أن يقتلوا عدوّاً تراجع، كما أبى عليهم أن يكشفوا ستراً أو يأخذوا مالاً، ومنها: أنّه حين ظفر بألدّ أعدائه الذين يتحيّنون الفرص للتخلّص منه; عفا عنهم وأحسن إليهم وأبى على أنصاره أن يتعقّبوهم بسوء وهم على ذلك قادرون(2).

صدقه وإخلاصه عليه‌السلام:

وتتماسك هذه الصفات الكريمة في سلسلة لا تنتهي; وبعضها على بعض دليل، ومن أروع حلقاتها: الصدق والإخلاص، وقد بلغ به الصدق مبلغاً أضاع به الخلافة، وهو لو رضي عن الصدق بديلاً في بعض أحواله; لما نال منه عدوّ ولا انقلب عليه صديق.. لقد رفض أن يقرّ معاوية على عمله وقال: (لا أداهن في ديني

ــــــــــــ

(1) نهج البلاغة طبعة صبحي الصالح: 323 ، الخطبة 206.

(2) البداية والنهاية: 7 / 276.

ولا أعطي الدنيّة في أمري) . ولمّا ظهرت حيلة معاوية; أطلق عبارته التي صحّت أن تكون صيغة للخلق العظيم: (والله ما معاوية بأدهى منّي، ولكنّه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر; لكنت من أدهى الناس)(1). وقال مشدّداً على ضرورة الصدق مهما اختلفت الظروف: (الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرّك ، على الكذب حيث ينفعك)(2).

شجاعته عليه‌السلام:

إن شجاعة الإمام هي من الإمام بمنزلة التعبير من الفكرة وبمثابة العمل من الإرادة، لأنّ محورها الدفاع عن طبع في الحق وإيمان بالخير، والمشهور أنّ أحداً من الأبطال لم ينهض له في ميدان.. فقد كان لجرأته على الموت لا يهاب صنديداً، بل إنّ فكرة الموت لم تجل مرة في خاطر الإمام وهو في موقف نزال، وأنّه لم يقارع بطلاً إلاّ بعد أن يحاوره لينصحه ويهديه.

وكان عليّ مع قوته البالغة يتورّع عن البغي أيّاً كان الظرف، وأجمع المؤرّخون على أنّه كان يأنف القتال إلاّ إذا حُمِل عليه حملاً، فكان يسعى أن يسوّي الأُمور مع خصومه .. على وجوه سلميّة تحقن الدم وتحول دون النزال.

وطبيعة التورّع عن البغي أصل من أصول نفسيّة عليّ وخلق من أخلاقه، وهي متّصلة اتّصالاً وثيقاً بمبدئه العام الذي يقوم بمعرفة العهد وصيانة الذمّة والرحمة بالناس حتى يخونوا كلّ عهد ويقسوا دون كلّ رحمة.

وما كان لعليّ أن يستنجد الصداقة على العداوة; لولا ذلك الفيض العظيم من الوفاء والحنان الذي تزخر به نفسه ويطغى على جنانه.

ولكنّ صاحب المودّات لم يرعَ أصدقاؤه له مودّة، لأنّهم لم يكونوا ليطمعوا

ــــــــــــ

(1) نهج البلاغة، الخطبة : 200.

(2) نهج البلاغة، قصار الحكم: 458.

بأن يحولوا بينه وبين نفسه، فيطلق أيديهم في خيرات الأرض دون سائر الخلق، يقول عليّ عليه‌السلام: (والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلُبها جَلبَ شعيرة ما فعلتُ، وإنّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة)(1) وليس عليّ في هذا المجال قائلاً ثمّ عاملاً، بل هو القول يجري من طبيعة العمل الذي يُعمل والشعور الذي يُحَسّ... فعليّ أكرم الناس مع الناس، وأبعد الخلق عن أن ينال الخلق بالأذى، وأقربهم إلى بذل نفسه في سبيلهم على أن يقتنع ضميره بضرورة هذا البذل، أوَليست حياته كلّها سلسلة معارك في سبيل المظلومين والمستضعفين، وانتصاراً دائماً للاُمّة دون من يريدونه آلة إنتاج لهم من السادة ورثة الأمجاد العائلية، أولم يكن سيفاً صارماً فوق أعناق القرشيّين الذين أرادوا استغلال الخلافة والإمارة للسلطان والجاه وتكديس الأموال ؟! أَلمْ يَضع الخلافةَ والحياةَ على الأرض لأنّه أبى مسايرة أهل الدنيا في استعباد إخوانهم الضعفاء والفقراء والمظلومين ؟

عدله عليه‌السلام:

ليس غريباً أن يكون عليٌّ أعدل الناس، بل الغريب أن لا يكونَهُ، وأخبار عليّ في عدله تراثٌ يشرّف المكانة الإنسانية والروح الإنساني.

وكان الإمام يأبى الترفّع عن رعاياه في المخاصمة والمقاضاة، بل إنّه كان يسعى إلى المقاضاة إذا وجبت لتشبّعه بروح العدالة.

وتجري في روحه العدالة حتى أمام أبسط الأُمور، ووصايا الإمام ورسائله إلى الولاة تكاد تدور حول محور واحد هو العدل، وقد انتصر العدل في قلب عليّ وقلوب أتباعه وإن ظلموا وظلم.

ــــــــــــ

(1) نهج البلاغة، الخطبة: 224.

تواضعه عليه‌السلام:

إنّ من أصول أخلاق الإمام أنّه كان يعتمد البساطة ويمقت التكلّف. وكان يقول: (شر الإخوان من تكلّف له)(1). ويقول: (إذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه)(2) ويقصد بالاحتشام مراعاته حتى التكلّف.

وكان لا يتصنّع في رأي يراه أو نصيحة يسديها أو رزق يهبه أو مال يمنعه. وكانت هذه الطبيعة تلازمه حتى يسأم أصحاب الأغراض من استرضائه بالحيلة. وإذا هم ينسبون إليه القسوة والجفوة والزهو على الناس، وليس صدق الشعور وإظهاره زهواً وليس جفوة، بل إنّه كان يمقت الزهو والعجب.. ولطالما نهى ولدَه وأعوانه وعمّاله عن الكبر والعجب قائلاً: (إيّاك والإعجاب بنفسك، واعلم أنّ الإعجاب ضد الصواب وآفة الألباب)(3). وكره التكلّف في محبّيه الغالين كما كره التكلّف في مبغضيه المفرطين فقال: (هلك فيّ اثنان: محبٌ غال ومبغضٌ قال)(4).

لقد كان يخرج إلى مبارزيه حاسر الرأس ومبارزوه مقنعون بالحديد، أفعجيب أن يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء؟.

نقاؤه عليه‌السلام:

وتميّز عليّ بسلامة القلب، فهو لا يحمل ضغينة على مخلوق ولا يعرف حقداً على ألدّ أعدائه ومناوئيه ومن يحقدون عليه حسداً وكرهاً.

كرمه عليه‌السلام:

وكان من خلقه أنّه كان كريماً ولا حدود لكرمه، ولكنّه الكرم السليم

ــــــــــــ

(1) نهج البلاغة، قصار الحكم: 479.

(2) المصدر السابق: 480.

(3) المصدر السابق من كتاب 31 رقم 57.

(4) نهج البلاغة : 117.

بأصوله وغاياته لا كرم الولاة الذين (يكرمون) بأموال الناس وجهودهم. وهذا الكرم لم يعرفه عليٌّ مرّة في حياته، وإنّما كرمه هو الذي يعبّر عن جملة المروءات، ففيما كان يزجر ابنته زجراً شديداً إذ هي استعارت من بيت المال قلادة تتزيّن بها في عيد من الأعياد. كان يسقي بيده النخل لقوم من يهود المدينة حتى تمْجلَ يده فيتناول أجرته فيهبها لأهل الفاقة والعوز ويشتري بها الأرقاء ويحرّرهم في الحال.

وقد شهد معاوية على كرم عليّ قائلاً: لو ملك عليّ بيتاً من تبر وبيتاً من تبن لأنفد تبره قبل تبنه(1).

علمه ومعارفه عليه‌السلام :

قال ابن أبي الحديد: (وما أقول في رجل تُعزى إليه كلّ فضيلة، وتنتمي إليه كلّ فرقة، وتتجاذبه كلّ طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها، وأبو عُذْرِها، وسابق مضمارها، ومجلّي حَلْبتها، كلّ من بزغ فيها بعده فمنه أخذ، وله اقتفى، وعلى مثاله احتذى. وإنّ أشرف العلوم ـ وهو العلم الإلهي ـ من كلامه عليه‌السلام اقتبس وعنه نقل وإليه انتهى ومنه ابتدأ... وعلم الفقه هو أصله وأساسه وكلّ فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ومستفيد من فقهه... وعلم تفسير القرآن عنه أُخذ ومنه فُرّع .. وعلم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوّف(؟!) إنّ أرباب هذا الفنّ في جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون، وعنده يقفون.. وعلم النحو والعربية قد علم الناس كافة أنّه هو الذي ابتدعه وأنشأه، وأملى على أبي الأسود الدؤلي جوامعَه وأصوله...)

ثم قال: (وأمّا الفصاحة، فهو عليه‌السلام إمام الفصحاء وسيّد البلغاء، وفي كلامه قيل: (دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين)، ومنه تعلّم الناس الخطابة والكتابة ..

ــــــــــــ

(1) تاريخ دمشق لابن عساكر : 43/414 ترجمة علي بن أبي طالب عليه‌السلام.

فوالله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره، ويكفي هذا الكتاب الذي نحن شارحوه دلالةً على أنّه لا يجارى في الفصاحة ولا يُبارى في البلاغة...)

ثم قال: (وأمّا الزهد في الدنيا، فهو سيّد الزهاد، وبدل الأبدال، وإليه تشدّ الرحال، وعنده تُنْفَضُ الأحلاس، ما شبع من طعام قطّ، وكان أخشنَ الناس مأكلاً وملبساً(.

وأمّا العبادة فكان أعبد الناس وأكثرهم صلاةً وصوماً، ومنه تعلّم الناس صلاة الليل وملازمة الأوراد وقيام النافلة، وما ظنّك برجل يبلغ من محافظته على وِرده أن يُبسَط له نِطَعٌ بين الصفّين ليلةَ الهرير(1) فيصلّي عليه ورده والسهام تقع بين يديه وتمرّ على صِماخيه يميناً وشمالاً، فلا يرتاع لذلك، ولا يقوم حتى يفرغ من وظيفته... وأنت إذا تأمّلت دعواته ومناجاته ووقفت على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله وما يتضمّنه من الخضوع لهيبتهِ والخشوع لعزّته والاستخذاء له; عرفت ما ينطوي عليه من الإخلاص، وفهمت من أيّ قلب خرجت، وعلى أيّ لسان جَرَت. وقال عليّ بن الحسين وكان الغاية في العبادة: عبادتي عند عبادة جدّي كعبادة جدّي عند عبادة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم.

وأمّا قراءته القرآن واشتغاله به فهو المنظور إليه في هذا الباب; اتّفق الكلّ على أنّه كان يحفظ القرآن على عهد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، ولم يكن غيره يحفظه، ثمّ هو أوّل من جمعه. وإذا رجعت إلى كتب القراءات وجدت أئمّة القرّاء كلّهم يرجعون إليه.

وما أقول في رجل تحبّه أهل الذمّة على تكذيبهم بالنبوّة، وتعظّمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل الملّة، وتصوِّر ملوك الإفرنج والروم صورته في بِيَعها وبيوت عباداتها، حاملاً سيفه؟ وما أقول في رجل أحبّ كلُّ واحد أن يتكثّر به، وودّ كلُّ أحد أن يتجمّل ويتحسّن بالانتساب إليه؟

ــــــــــــ

(1) هي أشد ليلة مرّت على الجيشين في معركة صفّين، راجع مروج الذهب : 2 / 389 .

وما أقول في رجل سبق الناس إلى الهدى.. لم يسبقه أحد إلى التوحيد إلاّ السابق لكلّ خير محمد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم (1)؟

ــــــــــــ

(1) من مقدمة ابن أبي الحديد لشرح نهج البلاغة 1 / 16 ـ 30 تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

الباب الثاني: فيه فصول:

الفصل الأول: نشأة الإمام علي عليه‌السلام.

الفصل الثاني: مراحل حياة الإمام علي عليه‌السلام.

الفصل الثالث: من الولادة إلى الإمامة.

الفصل الأول: نشأة الإمام علي عليه‌السلام

نسبه الوضّاء :

هو الإمام أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان.

جدّه الكريم :

عبد المطلب شيبة الحمد، وكنيته أبو الحرث، وعنده يجتمع نسبه بنسب النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وكان مؤمناً بالله تعالى، ويعلم بأنّ محمداً سيكون نبيّاً(1).

ولمّا حضرت عبد المطلب الوفاة دعا ابنه أبا طالب، فقال له: يا بني! قد علمت شدّة حبّي لمحمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ووجدي به أنظر كيف تحفظني فيه .. قال أبو طالب: يا أبه! لا توصني بمحمّد فإنّه ابني وابن أخي(2).

ــــــــــــ

(1) الطبقات لمحمد بن سعد: 1 / 74 ط. ليدن.

(2) كمال الدين للصدوق : 170 ط النجف الأشرف و 172 ط طهران عن ابن عباس. وفي موسوعة التاريخ الإسلامي: 1/285.

والده :

عبد مناف، وقيل: عمران، وقيل: شيبة، وكنيته أبو طالب، وهو أخو عبد الله والد النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لأُمه وأبيه. ولد أبو طالب بمكّة قبل ولادة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بخمس وثلاثين سنة، وانتهت إليه بعد أبيه عبد المطلب الزعامة المطلقة لقريش، وكان يروي الماء لوفود مكّة كافّة لأنّ السقاية كانت له، ورفض عبادة الأصنام فوحّد الله سبحانه، ومنع نكاح المحارم وقتل الموؤدة والزنا وشرب الخمر وطواف العراة في بيت الله الحرام(1). ولمّا توفّي عبد المطلب; تكفّل أبو طالب رعاية رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فكان أبو طالب يحبّه حبّاً شديداً لا يحبّه ولده، وكان لا ينام إلاّ إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه، وكان يخصّه بالطعام دون أولاده.

وروي أنّ أبا طالب دعا بني عبد المطلب فقال: لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وما اتّبعتم أمره، فاتّبعوه وأعينوه ترشدوا. وما زالت قريش كافّة عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حتى مات أبو طالب(2).

توفّي أبو طالب قبل الهجرة بثلاث سنين وبعد خروج بني هاشم مع النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من الشِعب وعمره بضع وثمانون سنة(3)، وكان للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم تعلّق شديد بأبي طالب، فقد عاش في كنفه (43) عاماً منذ الثامنة من عمره الشريف حينما توفّي جدّه عبد المطلب.. وقد ثبت أنّ أبا طالب كان موحّداً مؤمناً بالله ومعتقداً بالإسلام أرسخ الاعتقاد، وبقي على حاله هذه حتى وافاه الأجل، وإنّما أخفى إيمانه ليتمكّن أن يكون له شأن واتّصال مع كفّار مكّة، وليطّلع على

ــــــــــــ

(1) روضة الواعظين للفتال: 121 ـ 122 وصية أبي طالب لبني هاشم.

(2) الطبقات لابن سعد: 1 / 75.

(3) الكامل في التأريخ لأبن الأثير: 2 / 90، راجع : موسوعة التاريخ الإسلامي : 1/436.

مكائدهم ومؤامراتهم، فكان يعيش حالة التقيّة، وكان مثله كأصحاب الكهف في قومهم، وهو ممّن آتاهم الله أجرهم مرّتين لإيمانه وتقيّته(1).

أُمّه :

فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، تجتمع هي وأبو طالب في هاشم، أسلمت وهاجرت مع النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وكانت من السابقات إلى الإيمان وبمنزلة الأُم للنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم (2) ربّته في حجرها، ولمّا ماتت فاطمة بنت أسد; دخل إليها رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فجلس عند رأسها وقال: (رحمك الله يا أُمي، كنت أُمي بعد أُمي، تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيب الطعام وتطعميني، تريدين بذلك وجه الله والآخرة).

وغمّضها، ثمّ أمر أن تغسل بالماء ثلاثاً، فلمّا بلغ الماء الّذي فيه الكافور سكبه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بيده، ثمّ خلع قميصه فألبسه إيّاها وكفّنت فوقه ودعا لها أسامة بن زيد مولى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطّاب وغلاماً أسود فحفروا لها قبرها، فلمّا بلغوا اللّحد حفره رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بيده، وأخرج ترابه ودخل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قبرها فاضطجع فيه، ثمّ قال: (الله الّذي يحيي ويميت، وهو حيّ لا يموت، اللّهمّ اغفر لأُمّي فاطمة بنت أسد بن هاشم، ولقّنها حجتها، ووسّع عليها مدخلها بحقّ نبيّك والأنبياء من قبلي، فإنّك أرحم الراحمين) وأدخلها رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم اللحد والعباسُ وأبو بكر(3).

فقيل: يا رسول الله رأيناك وضعت شيئاً لم تكن وضعته بأحد من قبل:

ــــــــــــ

(1) بحار الأنوار: 35 / 72. وانظر: منية الطالب في إيمان أبي طالب للشيخ الطبسي، وأبو طالب مؤمن قريش للشيخ عبد الله الخُنيزي وموسوعة التاريخ الإسلامي: 1/514 ـ 517 و 596 ـ 601.

(2) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: 31.

(3) بصائر الدرجات : 71 عن الصادق عليه‌السلام ، وراجع: موسوعة التاريخ الإسلامي: 2/433 ـ 437.

فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: (ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنّة، واضطجعت في قبرها ليخفّف عنها من ضغطة القبر، إنّها كانت من أحسن خلق الله صُنعاً إليّ بعد أبي طالب رضي اللّه عنهما ورحمهما((1).

الفصل الثاني: مراحل حياة الإمام عليّ عليه‌السلام

ولد الإمام علي عليه‌السلام قبل البعثة النبوية بعقد واحد، وعاصر إرهاصات البعثة وكل حركة الرسالة خلال العهد المكّي ـ وهو عهد بناء الأمة المسلمة وتكوين القاعدة الرسالية الصلبة ـ كما عاصر كل أحداث العهد المدني، حيث تم فيه بناء الدولة الإسلامية بقيادة سيّد المرسلين صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وساهم بكل وجوده في بناء هذا الكيان الشامخ حتى تجلّى للجميع عمق وجوده في هذا البناء الرسالي الفريد.

وحمل الإمام عليه‌السلام بأمر من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مشعل الهداهية الربّانية والقيادة الإسلامية بعد وفاة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم رغم تراجع جمع من الصحابة وتمرّدهم على نصوص الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وخذلانهم للإمام عليه‌السلام والحيولة دون استلامه للقيادة السياسية .. ولكنه استمر في انجاز مهمامّه الرسالية في تلك الظروف العصيبة وعايس الخلفاء رغم انه كان يرى محلّه من القيادة محل القطب من الرحى .. فصبر وفي العين قذى مدة عقدين وصنف عقد حتّى انكشفت للأمة جملة من نتائج انحرافها الخطير عن تخطيط الرسول الأمين.

من هنا التجأت الأمة إلى الإمام لتسلم له زمام أمرها بعد تلك الخطوب وذلك التصدع الذي طال كيانه فحمل عبء القيادة بكل جدارة خلال نصف عقد فقط حتّى قدّم دمه الطاهر في سبيل الله رخيصا يبتغي به رضوان الله تعالى تثبيتا للقيم الرسالية التي جاهد من أجل إرسائها في وجدان المجتمع الإسلامي وضمير المجتمع الإنساني.

وعلى هذا تنقسم حياة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام إلى شطرين رئيسين:

الشطر الأول: حياته منذ ولادته وحتّى وفاة سيد المرسلين صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم.

الشطر الثاني: حياته من حين وفاة الرسول الأعظم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وتولّيه لمهامّ الإمامة الشرعية وحتّى استشهاده عليه‌السلام في محراب العبادة.

ــــــــــــ

(1) الفصول المهمة لابن الصباغ: 32، وفي فرائد السمطين: 1 / 379: (صنعت شيئاً لم تصنعه بأحد) وروى إسلام فاطمة بنت أسد وهجرتها وحنانها ورعايتها للرسول ووفاتها وما قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في فضلها كثير من الحفّاظ والمؤلّفين في كتبهم كابن عساكر وابن الأثير وابن عبد البرّ ومحب الدين الطبري ومحمد بن طلحة والشبلنجي وابن الصبّاغ البلاذري وغيرهم.

ونظرا لتنوّع الأدوار والظروف التي عاشها عليه‌السلام يمكننا أن نصنّف حياته إلى عدّة مراحل:

المرحلة الأولى: من الولادة إلى البعثة النبويّة المباركة.

المرحلة الثانية: من البعثة إلى الهجرة.

المرحلة الثالثة: من الهجرة إلى وفاة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم.

وهذه المراحل الثلاث تدخل في الشطر الأول من حياته وقد تجلّى فيها انقياده المطلق للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والدفاع المستميت عن الرسالة والرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم.

المرحلة الرابعة: حياة الإمام في عهد (أبي بكر وعمر وعثمان(.

المرحلة الخامسة: حياته في عهد دولته.

وسوف ندرس المراحل الثلاث الأولى في الفصل الثالث من الباب الثاني.

كما نبحث عن المرحلة الرابعة من حياته في الباب الثالث بفصوله الأربعة، ونخصص الباب الرابع بالمرحلة الخامسة من حياته عليه‌السلام.

الفصل الثالث: المرحلة الأولى : من الولادة إلى البعثة النبوية المباركة

ولادته :

قال عليّ عليه‌السلام: (فإنّي ولدتُ على الفطرة وسَبقتُ إلى الإيمان والهجرة((1).

ولِد الإمام عليّ عليه‌السلام بمكّة المشرّفة داخل البيت الحرام وفي جوف الكعبة في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رجب سنة ثلاثين من عام الفيل قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة، ولم يولد في بيت الله الحرام قبله أحد سواه، وهي فضيلة خصّه الله تعالى بها إجلالاً له وإعلاءً لمرتبته وإظهاراً لتكرمته(2).

ــــــــــــ

(1) نهج البلاغة (صبحي الصالح): الخطبة 57 ص92، وأمالي الطوسي: ص364 الرقم 765، ومناقب آل أبي طالب: 2 / 107، وشرح النهج لابن أبي الحديد: 4 / 114، وبحار الأنوار: 41 / 217.

(2) خصائص أمير المؤمنين للشريف الرضي: 39، والغدير للأميني: 6 / 22، والمستدرك للحاكم النيشابوري: 3/483، والكفاية للحافظ الكنجي الشافعي والخريدة الغيبيّة في شرح القصيدة العينيّة للآلوسي صاحب التفسير، ومروج الذهب للمسعودي، والسيرة النبوية، وموسوعة التاريخ الإسلامي: 1/306 ـ 310.

روي عن يزيد بن قعنب أنّه قال: كنت جالساً مع العباس بن عبد المطلب وفريق من بني عبد العزّى بإزاء بيت الله الحرام إذ أقبلت فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين عليه‌السلام ، وكانت حاملاً به لتسعة أشهر وقد أخذها الطلق، فقالت: يا ربّ إنّي مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب، وإنّي مصدّقة بكلام جديّ إبراهيم الخليل عليه‌السلام وإنّه بنى البيت العتيق، فبحقّ الّذي بنى هذا البيت، وبحقّ المولود الّذي في بطني إلاّ ما يسّرت عليَّ ولادتي.

قال يزيد: فرأيت البيت قد انشق عن ظهره، ودخلت فاطمة فيه، وغابت عن أبصارنا وعاد إلى حاله والتزق الحائط، فرمنا أن ينفتح لنا قفل الباب فلم ينفتح، فعلمنا أنّ ذلك أمر من أمر الله عَزَّ وجَلَّ، ثمّ خرجت في اليوم الرابع وعلى يدها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام (1).

وأسرع البشير إلى أبي طالب وأهل بيته فأقبلوا مسرعين والبِشر يعلو وجوههم، وتقدّم من بينهم محمّد المصطفى صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فضمّه إلى صدره، وحمله إلى بيت أبي طالب ـ حيث كان الرسول في تلك الفترة يعيش مع خديجة في دار عمه منذ زواجه ـ وانقدح في ذهن أبي طالب أن يسمّي وليده (عليّاً) وهكذا سمّاه، وأقام أبو طالب وليمةً على شرف الوليد المبارك، ونحر الكثير من الأنعام(2).

كناه وألقابه :

إن لأمير المؤمنين عليّ عليه‌السلام ألقاباً وكنىً ونعوتاً يصعب حصرها والإلمام بها، وكلّها صادرة من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في شتى المواقف والمناسبات العديدة التي وقفها عليه‌السلام لنشر الإسلام والدفاع عنه وعن الرسول.

فمن ألقابه عليه‌السلام: أمير المؤمنين، ويعسوب الدين والمسلمين، ومبير(3) الشرك والمشركين، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، ومولى المؤمنين، وشبيه هارون، والمرتضى، ونفس الرسول، وأخوه، وزوج البتول، وسيف الله المسلول، وأمير البررة، وقاتل الفجرة، وقسيم الجنّة والنار، وصاحب اللواء، وسيّد

ــــــــــــ

(1) علل الشرائع للصدوق: ص56، وروضة الواعظين للفتال النيسابوري: ص67، وبحار الأنوار: 35 / 8 ، وكشف الغمة للأربلي: 1 / 82 .

(2) بحار الأنوار: 35 / 18.

(3) اليعسوب: يقصد به هنا سيّد قومه. المبير: المهلك.

العرب، وخاصف النعل، وكشّاف الكرب، والصدّيق الأكبر، وذو القرنين، والهادي، والفاروق، والداعي، والشاهد، وباب المدينة، والوالي، والوصيّ، وقاضي دين رسول الله، ومنجز وعده، والنبأ العظيم، والصراط المستقيم، والأنزع البطين(1).

وأمّا كناه فمنها: أبو الحسن، أبو الحسين، أبو السبطين، أبو الريحانتين، أبو تراب.

الإعداد النبويّ للإمام عليّ عليه‌السلام :

كان النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يتردّد كثيراً على دار عمّه أبي طالب بالرغم من زواجه من خديجة وعيشه معها في دار منفردة، وكان يشمل عليّاً عليه‌السلام بعواطفه، ويحوطه بعنايته، ويحمله على صدره، ويحرّك مهده عند نومه إلى غير ذلك من مظاهر العناية والرعاية(2).

وكان من نِعَم الله عزّ وجلّ على عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام وما صنع الله له وأراده به من الخير أنّ قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم للعبّاس ـ وكان من أيسر بني هاشم ـ : يا عبّاس، إنّ أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد ترى ما أصاب الناس من هذه الأزمة، فانطلق بنا، فلنخفّف عنه من عياله، آخذُ من بيته واحداً، وتأخذ واحداً، فنكفيهما عنه، قال العباس: نعم.

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له: إنّا نريد أن نخفّف عنك من عيالك حتّى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا

ــــــــــــ

(1) كشف الغمة للأربلي: 1 / 93. وقد وردت ألقاب أُخرى عديدة لأمير المؤمنين في مصادر الرواة والمحدّثين منها: صحيح الترمذي والخصائص للنسائي والمستدرك للحاكم النيسابوري وحلية الأولياء للأصفهاني وأُسد الغابة لابن الأثير وتأريخ الإسلام للذهبي وغيرهم.

(2) بحار الأنوار: 35 / 43.

ما شئتما، فأخذ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عليّاً عليه‌السلام فضمّه إليه وكان عمره يومئذ ستة أعوام، وأخذ العبّاس جعفراً، فلم يزل عليّ بن أبي طالب مع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حتى بعثه الله نبيّاً، فاتّبعه عليّ عليه‌السلام فآمن به وصدّقه، ولم يزل جعفر عند العبّاس حتّى أسلم واستغنى عنه(1).

وقد قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بعد أن اختار عليّاً عليه‌السلام: (قد اخترت من اختاره الله لي عليكم عليّاً((2).

وهكذا آن لعليّ عليه‌السلام أن يعيش منذ نعومة أظفاره في كنف محمّد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حيث نشأ وترعرع في ظل أخلاقه السماويّة السامية، ونهل من ينابيع مودّته وحنانه، وربّاه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وفقاً لما علّمه ربّه تعالى، ولم يفارقه منذ ذلك التأريخ.

وقد أشار الإمام عليّ عليه‌السلام إلى أبعاد التربية التي حظي بها من لدن أستاذه ومربّيه النبيّ الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ومداها وعمق أثرها، وذلك في خطبته المعروفة بالقاصعة: (وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة(3)، وضعني في حجره وأنا ولد، يضمّني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسّني جَسده، ويشمّني عَرْفه(4)، وكان يمضع الشيء ثمّ يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة(5) في فعل).

إلى أن قال: (ولقد كنت أتّبعه اتباع الفصيل(6) أثر أمه، يرفع لي في كلّ يوم من

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري: 2 / 58 ط مؤسسة الأعلمي بيروت، وشرح ابن أبي الحديد: 13 / 198، وينابيع المودة: 202، وكشف الغمة: 1 / 104، وموسوعة التاريخ الإسلامي : 1 / 351 ـ 356.

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 1 / 15 ، نقلاً عن البلاذري والأصفهاني.

(3) الخصيصة: الخاصة.

(4) عرفه (بالفتح): رائحته، وأكثر استعماله في الطيب.

(5) الخطلة: الخطأ ينشأ من عدم الرؤية.

(6) الفصيل: ولد الناقة.

أخلاقه علماً(1)، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء(2)، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة، ولقد سمعت رنّة(3) الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرنّة؟ فقال: هذا الشيطان آيس من عبادته، إنّك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلاّ أنّك لست بنبيّ، ولكنّك وزير، وأنّك لعلى خير)(4).

المرحلة الثانية : من البعثة إلى الهجرة

عليّ عليه‌السلام أول المؤمنين برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم :

لقد نشأ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم على قيم إلهية سامية كما صرّح بذلك القرآن الكريم بقوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (5)، فكان النموذج المغاير لإنسان الجزيرة في معتقده وتفكيره وسلوكه وأخلاقه، فسلك منذ نعومة أظفاره خطّاً موازياً لقيم رسالات الأنبياء سيَّما شيخهم إبراهيم الخليل عليه‌السلام ، وكان في قناعة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنّ هذا الخطّ لا يلتقي بقيم المجتمع الجاهلي، من هنا بدأ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بإنشاء نواة الأسرة المؤمنة المتكونة منه وخديجة وعليّ عليهم‌السلام.

وقرّر أن يشقّ مجرى التأريخ، وأن يفتح طريقاً وسط التيار العام، وأن يقاوم بتلك الأسرة الانحراف السائد، وأن يُحدث موجاً هادراً يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى تيار جارف للوثنية والجاهلية من ربوع الأرض، إنّ عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام والذي تربّى في حِجر الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لم يسجد لصنم قطّ، ولم يُشرك بالله طرفة

ــــــــــــ

(1) عَلَماً: فضلاً ظاهراً.

(2) حراء: جبل قرب مكّة.

(3) رنّة الشيطان: صوته.

(4) شرح نهج البلاغة للفيض: 802 ، الخطبة 234.

(5) القلم (68) : 4.

عين. وعندما نزل الوحي على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كان عليّ عليه‌السلام إلى جانبه، وكان أوّل من آمن برسالته صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كما شهدت بذلك عامّة مصادر التأريخ.

وعن أنس بن مالك قال : أنزلت النبوّة على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يوم الاثنين وصلّى عليّ عليه‌السلام يوم الثلاثاء(1).

كما روي عن سلمان الفارسي أَنّه قال: أوّل هذه الأمة وروداً على نبيّها صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الحوض، أوّلها إسلاماً عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام (2).

وعن العباس بن عبد المطلب أنّه سمع عمر بن الخطاب وهو يقول: كفّوا عن ذكر عليّ بن أبي طالب إلاّ بخير، فإنّي سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول: في عليّ ثلاث خصال، وددت أنّ لي واحدةً منهنّ، كلّ واحدة منهنّ أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس، وذلك أنّي كنت أنا وأبو بكر وأبو عبيدة بن الجرّاح ونفر من أصحاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إذ ضرب النبي على كتف عليّ بن أبي طالب وقال: يا عليّ، أنت أوّل المسلمين إسلاماً، وأنت أول المؤمنين إيماناً، وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى، كذب من زعم أنّه يحبّني وهو مبغضك(3).

وإذ اتّفق المؤرّخون على أنّ أمير المؤمنين عليه‌السلام أوّل الناس إسلاماً(4); فقد

ــــــــــــ

(1) تأريخ دمشق لابن عساكر: 1 / 41، والكامل في التأريخ: 2 / 58، وتأريخ الطبري: 2 / 55، وسنن الترمذي: 5 / 600 الحديث 3735.

(2) الاستيعاب لابن عبد البرّ المالكي بهامش الإصابة: 3 / 29، وتأريخ الطبري: 2 / 55 وفيه: عليّ أول من أسلم، وفي تأريخ دمشق لابن عساكر: 1 / 32، 36، 65 ذكر أنّ عليّاً أول من أسلم، وتأريخ بغداد: 2 / 81 رقم 459.

(3) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: 126، وتأريخ دمشق لابن عساكر: 1 / 331 رقم الحديث 401.

(4) من مصادر حديث أنّ علي بن أبي طالب أول من أسلم: سنن البيهقي: 6 / 206، ومسند أبي حنيفة: رقم 368 ص173، وتأريخ الطبري: 2 / 55 ط مؤسسة الأعلمي، والكامل في التأريخ: 2 / 57، واُسد الغابة: 4 / 16، تاريخ ابن خلدون : ج3 / ص715 ، بدء الوحي والسيرة النبوية: 1 / 262، والسيرة الحلبية: 1 / 432، ومروج الذهب: 2 / 283، وعيون الأثر: 1 / 92، والإصابة في معرفة الصحابة: 2 / 507، وتأريخ بغداد للخطيب البغدادي: 2 / 18.

اختلفوا في سنّه حين أعلن إسلامه، والخوض في تحديد عمر الإمام عليه‌السلام حين إسلامه لا يُجدي نفعاً بعد أن عرفنا أنّه لم يكفر حتى يُسلم ولم يشرك حتّى يؤمن، ولقد قال سلام الله عليه: (ولدت على الفطرة)، ومن هنا اتّفقت كلمة المحدّثين جميعاً على احترام هذه الفضيلة وتقديسها بقولهم له حين ذكره: )عليّ كرّم الله وجهه)، فكان الإسلام في أعماق قلبه بعد أن احتضنه حجر الرسالة، وغذّته يد النبوّة، وهذّبه الخلق النبوّي العظيم.

قال الأستاذ العقّاد وهو يتحدّث عن الإمام عليّ عليه‌السلام: لقد ولد مسلماً على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح، لأنّه فتح عينيه على الإسلام، ولم يعرف قطّ عبادة الأصنام، فهو قد تربّى في البيت الّذي انطلقت منه الدعوة الإسلاميّة، وعرف العبادة من صلاة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وزوجته الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه(1).

علّي عليه‌السلام أوّل من صلّى :

عاش الإمام عليّ عليه‌السلام مع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كلّ متغيّرات حياة الرسول الأعظم، فكان يرى في محمّد المثل الكامل الّذي يُشبع تطلعاته وعبقرياته، فكان يحاكيه في أفعاله ويرصده في حركاته ويقتدي به ويطيعه في كلّ أوامره ونواهيه قبل البعثة النبويّة الشريفة وحتى آخر لحظة من عمر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، كما أجمع المؤرّخون على أنّه لم يردّ على رسول الله كلمة قطّ.

وقد صرّح الإمام عليه‌السلام بأنّه أوّل من صلَّى بعد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قائلاً: (لم يسبقني إلاّ رسول الله بالصلاة)(2).

ــــــــــــ

(1) عبقرية الإمام علي، عباس محمّود العقّاد: ص43. وقد ذكر العلاّمة الأميني في كتابه الغدير: 3 / 220 ـ 236 ما يربو على 66 حديثاً في أسبقية إسلام الإمام عليّ عليه‌السلام على غيره من الصحابة.

(2) نهج البلاغة للفيض: 397 الخطبة 131.

كما روي عن حبّة العرني أنّه قال: رأيت عليّاً عليه‌السلام يوماً ضحك ضحكاً لم أره ضحك ضحكاً أشدّ منه حتى أبدى ناجذه، ثمّ قال: (اللّهم لا أعرف أنّ عبداً من هذه الأمة عبدك قبلي غير نبيّها صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم)(1).

وجاء في تفسير قوله تعالى: (وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) (2) عن ابن عباس: أنّها نزلت في رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وعليّ بن أبي طالب وهما أول من صلّى وركع(3).

كما جاء عن أنس بن مالك: قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: (صلّت الملائكة عليَّ وعلى عليٍّ سبعاً، وذلك أنّه لم يرفع إلى السماء شهادة لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله إلاّ منّي ومنه)(4).

أوّل صلاة جماعة في الإسلام :

وكان رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قبل بدء أمره إذا أراد الصلاة خرج إلى شعاب مكّة مستخفياً، وأخرج عليّاً عليه‌السلام معه فيصلّيان ما شاء الله، فإذا قضيا رجعا إلى مكانهما، فمكثا يصلّيان على استخفاء من أبي طالب وسائر عمومتهما وقومهما، ثمّ إنّ أبا طالب مرّ عليهما فقال لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: ما هذا الذي أراك تدين به؟

قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: (هذا دين الله وملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله به نبيّاً إلى العباد، وأنت ياعمّ أحقّ من أبديتُ النصيحة له ودعوتُه إلى الهدى، وأحقّ من أجابني إليه وأعانني عليه).

وقال عليّ عليه‌السلام: (يا أبت، قد آمنت برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم واتّبعته وصلّيت معه لله).

ــــــــــــ

(1) تأريخ دمشق لابن عساكر: 1 / 49 رقم الحديث 88 .

(2) البقرة (2) : 43.

(3) شواهد التنزيل للحسكاني: 1 / 85 .

(4) المناقب لابن المغازلي: 14 رقم الحديث 19، وروى نحوه الشيخ المفيد في الإرشاد: 30 الفصل 1 الباب 2، وأسد الغابة لابن الأثير: 4 / 18 مثله.

فقال له: يا بُنيّ، أما إنّه لم يدعك إلاّ إلى الخير فالزمه(1).

وهناك موقف آخر لعمّه العباس رواه عفيف الكندي حيث قال: كنت إمرأً تاجراً فقدمت الحجّ، فأتيت العباس بن عبد المطّلب لأبتاع منه بعض التجارة، فوالله إنّي لعنده بمنى إذ خرج رجل من خِباء قريب منه، فنظر إلى الشمس فلمّا رآها قد مالت قام يصلّي، ثمّ خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل، فقامت خلفه تصلّي، ثمّ خرج غلام راهق الحلم من ذلك الخِباء فقام معه يصلّي، فقلت للعبّاس: ما هذا يا عبّاس؟ قال: هذا محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي، فقلت: من هذه المرأة؟ قال: امرأته خديجة بنت خويلد، قلت: من هذا الفتى؟ قال: عليّ بن أبي طالب ابن عمّه، قلت: ما هذا الذي يصنع؟ قال: يصلّي وهو يزعم أنّه نبيّ، ولم يتبعه على أمره إلاّ امرأته وابن عمّه هذا الغلام، وهو يزعم أنّه سيفتح على أمته كنوزَ كسرى وقيصر(2).

نعم، بعد أن تشكّلت نواة الأمة الإسلامية المباركة من رسول الله وعليّ وخديجة، وأخذ خبر الدين الجديد يتفشّى في صفوف القرشيين، وطفق الذين هداهم الله للإيمان يتقاطرون على الإسلام، وأخذ عود المسلمين يقوى ويشتدّ أزره، وبعد عدّة سنوات تحوّل إلى كيان قويّ وقادر على الإعلان عن نفسه على الجماهير والمواجهة والتحدّي من أجل الدين والعقيدة .. فأمر الله سبحانه وتعالى نبيّه الكريم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن يصدع بما يؤمر، وكان أصحاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قبل ذلك إذا أرادوا الصلاة يذهبون إلى الشعاب فيستخفون، فلما صلّى بعض الصحابة في الشعب اطّلع عليهم نفر من المشركين منهم أبو سفيان بن حرب والأخنس بن

ــــــــــــ

(1) الفصول المهمّة لابن الصباغ: 33، والكامل في التأريخ: 1 / 58 ، وأخرج مثله الطبري في تأريخه: 2 / 58.

(2) مسند أحمد: 1 / 29، والخصائص للنسائي: 3، وتأريخ دمشق لابن عساكر: 1 / 58، وكفاية الطالب للكنجي: 129، والكامل في التأريخ: 2 / 57.

شريق وغيرهما، فسبّوهم وعابوهم حتى قاتلوهم(1).

عليٌّ عليه‌السلام حين إعلان الرسالة :

حديث يوم الإنذار :

وحديث يوم الإنذار هو الحديث الخاص عن اجتماع عشيرة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بدعوة منه لغرض دعوتهم إلى بيعته ومؤازرته، وكان أوّل من أعلن استجابته لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ذلك اليوم من عشيرته الأقربين: هو عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام. وقد ذكر المفسّرون والمؤرّخون ومنهم الطبري في تأريخه وتفسيره معاً أنّه لمّا نزلت (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وضاق ذرعاً لما كان يعلم به من معاندة قريش وحسدهم، فدعا عليّاً عليه‌السلام ليعينه على الإنذار والتبليغ.

قال الإمام عليّ عليه‌السلام: دعاني رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقال: يا عليّ، إنّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت ذرعاً وعلمت أنّي متى أبادرهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، فصمتّ عليه حتى جاءني جبرئيل فقال: يا محمّد إلاّ تفعل ما تؤمر به يعذّبك ربّك. فاصنع لنا صاعاً من طعام، واجعل عليه رجل شاة، واملأ لنا عُسّاً من لبن، واجمع لي بني عبد المطّلب حتى أُكلّمهم وأُبلّغهم ما أمرت به.

فصنع عليّ عليه‌السلام ما أمره رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ودعاهم وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه، منهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فأكلوا، قال عليّ عليه‌السلام: فأكل القوم حتى ما لهم بشيء من حاجة، وما أرى إلاّ موضع أيديهم، وأيم الذي نفس عليّ بيده إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمتُ لجميعهم.

ثمّ قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: إسقِ القوم، فجئتهم بذلك العسّ فشربوا منه حتى رووا منه جميعاً، وأيم الله إنّه كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله. فلمّا أراد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن

ــــــــــــ

(1) الكامل في التأريخ: 2 / 60، السيرة النبوية: 1/315 ط دار الفرقان بيروت ـ لبنان.

يكلّمهم بادره أبو لهب فقال: لقد سحركم صاحبكم، فتفرّق القوم ولم يكلّمهم الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فأَمَرَ عليّاً في اليوم الثاني أن يفعل كما فعل آنفاً، وبعد أن أكلوا وشربوا قال لهم رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: يا بني عبد المطّلب! إنّني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا قد جئتكم به، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فأحجم القوم عنه جميعاً إلاّ عليّاً، فقد صاح في حماسة: أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه، فأخذ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم برقبة عليّ وقال: إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع(1).

إذاً كان يوم الدار يوم الإعلان الصريح عن بداية مرحلة جديدة في حياة النبيّ وحياة الدعوة الإسلامية، وقد اتّسمت بالتحدّي المتبادل ثمّ المواجهة السافرة بين الإسلام والشرك.

ومن تتبّع سيرة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وأحاط علماً بجميع شؤونها وتفاصيلها في بدء تشكيل الحكومة الإسلامية وتشريع أحكامها وتنظيم شؤونها ومجرياتها وفق الأوامر الإلهية; يرى أنّ علياً عليه‌السلام وزير النبيّ في كلّ أمره وظهيره على عدوّه، وساعده الّذي يضرب ويبني به وصاحب أمره إلى نهاية عمره الشريف. وكان يوم الدار والإنذار يوم المنطلق الذي لم يشهد ناصراً لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كعلي بن أبي طالب، شعاراً وشعوراً وجهاداً وفداءً.

عليٌ عليه‌السلام من إعلان الرسالة إلى الهجرة النبويّة المباركة :

عجزت قريش عن إيقاف مدّ الدعوة الإسلاميّة ومنع النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من التبليغ

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري: 2 / 63 ط مؤسسة الأعلمي، والكامل في التأريخ: 2 / 62، ومثله في الإرشاد للمفيد: 42 الباب 2 الفصل 7، وأيضاً في تفسير مجمع البيان: 7 / 206 وتأريخ دمشق لابن عساكر: 1 / 86 .

والهداية، فقد خابت مؤامراتهم ودسائسهم، وفشلت تهمهم وتهديداتهم، لأنّ أبا طالب كان الكهف الحصين لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الذي لم يزل يدفع عنه أذى قريش وجبروتها، فلجأت قريش إلى طريقة جبانة تنمُّ عن حقدها وضعفها فدفعت بالصبيان والأطفال للتعرّض للنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ورميه بالحجارة، وهنا كان الدور الحاسم لعليّ بن أبي طالب عليه‌السلام إذ لا يتسنّى لأبي طالب ـ وهو شيخ الهاشميّين الكبير ـ مطاردة الصبيان، فكان عليّ يطارد الصبيان المترصّدين للنبيّ ويذودهم عنه(1).

عليّ عليه‌السلام في شِعب أبي طالب :

وحين أسرع الإسلام ينتشر في مكّة وأصبح كياناً يقضّ مضاجع المشركين وخطراً كبيراً يهدّد مصالحهم; عمد المشركون إلى اُسلوب الغدر والقهر لإسكات صوت الرسالة الإسلاميّة، فشهروا سيوف البغي ولم يتوانَ أبو طالب في إحكام الغطاء الأمين للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، لما له من هيبة ومكانة شريفة في نفوس زعماء قريش الذين لم يجرؤا على النَيْلِ من النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لأنّ ذلك يعني مواجهة علنية مع أبي طالب وبني هاشم جميعاً، وقريش في غنىً عن هذه الخطوة الباهضة التكاليف.

فاتّجهوا نحو المستضعفين المسلمين من العبيد والفقراء فأذاقوهم ألوان التعذيب والقهر والمعاناة ليردّوهم عن دينهم وتمسّكهم بالنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم. ولم تلق قريش غير الصمود والإصرار على الإسلام والالتزام بنهج الرسالة الإسلامية، فوجد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أفضل حلّ لتخليص المستضعفين من المسلمين هو الخروج من مكّة إلى الحبشة(2).

ولمّا لم يبقَ في مكّة من المسلمين إلاّ الوجهاء والشخصيات فقد كانت

ــــــــــــ

(1) الاختصاص للمفيد : 146.

(2) سيرة ابن هشام: 1 / 321.

المواجهة الدموية هي أبعد ما يكون، وعندها سقطت كلّ الخيارات، ولم يبق أمام قريش إلاّ أن تلجأ إلى عمل يضعف الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ويجنّبها القتال، فكان قرارهم حصار بني هاشم ومن معهم إجتماعياً واقتصادياً باعتبارهم الحماية التي تقي الرسول من بطش قريش، فبدأت معركتها السلبية مع بني هاشم.

وتجمّع المسلمون وبنو هاشم في شِعب أبي طالب لتوفير سبل الحماية بصورة أفضل، حيث يمكن إيجاد خطوط دفاعية لمواجهة أيِّ محاولة هجومية قد تقوم بها قريش(1).

وللمزيد من الاحتياط والحرص على سلامة حياة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كان أبو طالب يطلب من ولده عليّ أن يبيت في مكان الرسول ليلاً حرصاً على سلامته من الاغتيال والمباغتة من قبل الأعداء من خارج الشِعب(2)، وكان عليّ عليه‌السلام يُسارع إلى الامتثال لأوامر والده ويضطجع في فراش النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فادياً نفسه من أجل الرسالة وحاملها.

ولم يكتف عليّ عليه‌السلام بهذا القدر من المخاطرة بنفسه، بل كان يخرج من الشِعب إلى مكّة سرّاً ليأتي بالطعام إلى المحاصرين(3)، إذ اضطرّوا في بعض الأيام أن يقتاتوا على حشائش الأرض.

لم يكن لأحد أن يقوم بمثل هذه الأعمال في تلك الفترة العصيبة إلاّ من ملك جناناً ثابتاً وقلباً شجاعاً ووعياً رسالياً وحبّاً متفانياً للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، ذلك هو عليّ ابن أبي طالب عليه‌السلام الذي قضى في الشِعب جزءً من زهرة شبابه حيث دخله وعمره سبعة عشر عاماً وخرج منه وعمره عشرون عاماً، فكانت تجربة جديدة في

ــــــــــــ

(1) سيرة ابن هشام: 1 / 350، وإعلام الورى: 1 / 125.

(2) البداية والنهاية لابن كثير: 3 / 84 .

(3) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 13 / 256.

حياته عَوَّدته على الاستهانة بالمخاطر، وأهّلته لتلقّي الطوارئ والمهام الجسام، وجعلته أكثر التصاقاً بالنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كما عوّدته على الصبر والطاعة والتفاني في ذات الله تعالى وحبّ الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم.

علي عليه‌السلام والهجرة إلى الطائف :

لقد تراكمت الأحداث على الرسول، واشتدّت قريش في تحدّيه وإيذائه بعد وفاة عمّه أبي طالب، ولم يعد في مكّة من تهابه قريش وترعى له حرمة، حتى قال النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: (ما زالت قريش كاعّةً عنّي حتى مات أبو طالب)(1) فكان عليه أن يُغيّر مكانه ويستبدله بمكان أكثر أمناً يستطيع منه الانطلاق لنشر الدعوة الإسلاميّة إلى أرجاء الجزيرة العربية والعالم أجمع، فأخذ يعرض نفسه على القبائل وابتدأ أوّلاً بالطائف، وبعد عشرة أيام من مكوثه هناك لم تتجاوب معه ثقيف، بل أغْرت به الصبيان والخدم والعبيد ليرشقوه بالحجارة، فوقف عليّ عليه‌السلام ومعه زيد بن حارثة يتلقّيان الضربات ويمنعان الصبية عن مواصلة الاعتداء حتى أصيبا بجروح في جسدهما، ومع ذلك تعرّض رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم للإصابة وسالت الدماء من ساقيه(2).

وروي أنّه كان للنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عدّة هجرات أُخرى تحرّك خلالها لعرض نفسه على القبائل لنشر الدعوة الإسلامية وتحصين دعوته، ولم يكن معه في حركته إلاّ عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام فخرج إلى بني عامر بن صعصعة والى ربيعة وبني شيبان(3). وعليّ يلازمه في كلّ خطواته.

ــــــــــــ

(1) أعيان الشيعة: 1 / 235، وسيرة ابن هشام : 2 / 57، 58.

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 1 / 127.

(3) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 4 / 125.

علي عليه‌السلام في بيعة العقبة الثانية :

وحين تمّ الاتّفاق على اللقاء التأريخي بين طلائع المسلمين القادمين من المدينة مع قائدهم الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في بيت عبد المطلب سرّاً وقف إلى جانب الرسول عمّه حمزة وعليّ والعباس(1)، وتمّت البيعة على أفضل شكل.

وعلى رغم كلّ التدابير التي اتّخذت لسرّيّة اللقاء وإنجاحه إذ تمّ انعقاده دون علم أحد حتى من المسلمين، إلاّ أنّ أنباءه قد تسرّبت إلى المشركين، فتجمّعوا وأقبلوا مع أسلحتهم إلى مكان الاجتماع، فخرج إليهم حمزة ومعه عليّ عليه‌السلام بسيفهما، فسألوا حمزة عن الاجتماع فأنكر ذلك فرجعوا خائبين.

إنّ حضور عليّ عليه‌السلام في هذا الحدث الهام والاجتماع التأريخي يكشف عن دور عليّ عليه‌السلام في أهمّ لحظات الدعوة وتأريخ الرسالة، لأنّه كان يعطي الأنصار صورة جيدة عن رسول الإسلام وعن حماية بني هاشم له صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فتزداد ثقتهم واطمئنانهم بالدعوة والرسالة الإسلامية.

وكان تخطيطاً مُوفّقاً وتدبيراً محكماً من النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، إذ استعان بأشجع رجال بني هاشم حمزة وعليّ عليهما‌السلام فهما اللّذان عُرفا بالبأس والشدّة في توفير القدر الكافي من الحماية للرسول وللرسالة معاً.

عليّ عليه‌السلام ليلة هجرة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى المدينة

كان الانفتاح الرسالي العظيم الذي قام به النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إثر المعاهدة التي أبرمها مع الأوس والخزرج في بيعة العقبة الثانية(2)، والذي كان نقطة انطلاق الدعوة الإسلامية إلى العالم الأوسع، والخطوة الكبيرة لبناء المجتمع الرسالي

ــــــــــــ

(1) السيرة الحلبية: 2 / 174.

(2) السيرة النبوية لابن هشام: 1 / 440، وموسوعة التاريخ الإسلامي: 1/700.

المؤمن، بعد أن انتشر الإسلام في يثرب بجهود الصفوة من الدعاة المخلصين والمضحّين من أجل الله ونشر تعاليم الإسلام، وبذا أصبح للمسلمين بقعة آمنة تمثّل محطة مركزية ومهمة لبلورة العمل الثقافي والتربوي والدعوة الإلهية في مجتمع الجزيرة العربية.

وحين تمادى طغاة قريش في إيذاء المسلمين والضغط عليهم لإرغامهم على ترك الدين الإسلامي وفتّهم عن نصرة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وحين كثر عتوّهم واضطهادهم; أمر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أصحابه بالهجرة إلى يثرب، فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: (إنّ الله قد جعل لكم داراً تأمنون بها وإخواناً)، فخرجوا على شكل مجاميع صغيرة وبدفعات متفرّقة خفيّة عن أنظار قريش(1).

ومع كلّ المعاناة التي لاقاها النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من القريب والبعيد والضغوط والتكذيب والتهديد حتى قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: (ما أوذي أحد مثل ما أوذيت في الله)(2) فإنّ أمله بالنصر على الأعداء والنجاح من تبليغ الدعوة الإسلامية لم يضعف، وثقته المطلقة بالله كانت أقوى من قريش ومؤامراتها، وقد عرفت قريش فيه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ذلك وتجسّدت لديها الأخطار التي ستكشف عنها السنون المقبلة إذا تسنّى لمحمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن يلتحق بأصحابه ويتّخذ من يثرب مستقراً ومنطلقاً لنشر دعوته، فأخذوا يعدّون العدّة ويخطّطون للقضاء عليه قبل فوات الأوان على شرط أن لا يتحمّل مسؤولية قتله شخص معيّن أو قبيلة لوحدها، فلا تستطيع بنو هاشم وبنو المطلب مناهضة القبائل جميعاً في دم صاحبهم فيرضون حينئذ بالعَقل منهم.

ــــــــــــ

(1) السيرة النبوية لابن هشام: 1 / 480، والمناقب لابن شهرآشوب: 1 / 182، وموسوعة التاريخ الإسلامي: 1/717.

(2) كنز العمال : 3/130 ، ح 5818، حلية الأولياء: 6/333.

فكان القرار بعد أن اجتمعوا في دار الندوة وقد كثرت الآراء بينهم أن يندبوا من كلّ قبيلة فتىً شابّاً جلداً معروفاً في قبيلته، ويعطى كلّ منهم سيفاً صارماً ثم يجمعون على النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في داره، ويضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه، واتّفقوا على ليلة تنفيذ الخطة، فأتى جبرئيل إلى النبيّ وأخبره بذلك، وأمره أن لا يبيت في فراشه، وأذن له بالهجرة، فعند ذلك أخبر عليّاً بأمورهم وأمره أن ينام في مضجعه على فراشه الذي كان ينام فيه، ووصاه بحفظ ذمّته وأداء أمانته، وقال له أيضاً: (إذا أبرمت ما أمرتك به; فكن على أُهبة الهجرة إلى الله ورسوله، وسر لقدوم كتابي عليك)(1)، وهنا تتجلى صفحة من صفحات عظمة علي عليه‌السلام ، إذ استقبل أمر الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بنفس مؤمنة صابرة مطمئنّة، فرسم لنا أكمل صورة للطاعة المطلقة في أداء المهمّات استسلاماً واعياً للقائد وتضحية عظيمة من أجل العقيدة والمبدأ، فما كان جوابه عليه‌السلام إلاّ أن قال للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: (أوتسلم يا رسول الله إن فديتك نفسي؟).

فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: (نعم، بذلك وعدني ربّي); فتبسّم علي عليه‌السلام ضاحكاً، وأهوى إلى الأرض ساجداً ، شكراً لما أنبأه به رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من سلامته(2).

ثمّ ضمّه النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى صدره وبكى وَجْداً به، فبكى عليّ عليه‌السلام لفراق رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم (3).

وعندما جاء الليل; اتّشح عليّ عليه‌السلام ببرد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الذي اعتاد أن يتّشح به، واضطجع في فراش النبيّ مطمئن النفس رابط الجأش ثابت الجنان مبتهجاً بما أوكل إليه فرحاً بنجاة النبيّ، وجاء فتيان قريش والشرّ يملأ نفوسهم

ــــــــــــ

(1) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: 45، وبحار الأنوار: 19 / 59 ـ 60.

(2) ذكر قصّة مبيت الإمام عليّ عليه‌السلام في فراش النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عدد كبير من العلماء والمؤرّخين منهم: الطبري: 2 / 99، وأحمد بن حنبل في مسنده: 1 / 331، وأسد الغابة: 4 / 45، وابن عساكر في تأريخ دمشق: 1 / 137، والحاكم في المستدرك: 3 / 4 ، وبحار الأنوار : 19 / 60 .

(3) أعيان الشيعة: 1 / 275.

ويعلو سيوفهم، وأحاطوا بالبيت وجعلوا ينظرون من فرجة الباب إلى حيث اعتاد النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن ينام فيه فرأوا رجلاً ينام على فراشه، فأيقنوا بوجود النبيّ، واطمأنت قلوبهم على سلامة خطّتهم، فلمّا كان الثلث الأخير من الليل خرج النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من الدار وقد كان مختبئاً في مكان منها، وانطلق إلى غار (ثور) وكَمَنَ فيه ليواصل بعد ذلك هجرته المباركة.

ولمّا حانت ساعة تنفيذ خطّتهم; هجموا على الدار، وكان في مقدّمتهم خالد ابن الوليد، فوثب عليّ عليه‌السلام من فراشه فأخذ منه السيف وشدّ عليهم فأجفلوا أمامه وفرّوا إلى الخارج، وسألوه عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: فقال: لا أدري إلى أين ذهب.

وبذلك كتب الله السلامة لنبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والانتشار لدعوته.

بهذا الموقف الرائع والإقدام الشجاع والمنهج الفريد سنّ عليّ عليه‌السلام سنّة التضحية والفداء لكلّ الثائرين من أجل التغيير والإصلاح والسائرين في دروب العقيدة والجهاد. لم يكن همّ عليّ عليه‌السلام إلاّ رضا الله وسلامة نبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وانتشار دعوته المباركة، فنزلت في حقّه الآية المباركة: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) (1).

مباهاة الله ملائكته بموقف عليّ عليه‌السلام:

كان مبيت عليّ عليه‌السلام على فراش رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم خذلاناً سافراً لقريش المعتدية، فقد خابت آمالهم وفشلت خططهم في قتل الرسول، وكان فيها إرغام الشيطان وعلو شأن الإيمان، ولم يكن أيّ عمل نظيراً للمبيت في الثواب والقيمة،

ــــــــــــ

(1) البقرة (2) : 207. راجع في شأن نزول الآية شرح النهج لابن أبي الحديد: 13 / 262، وإحياء العلوم للغزالي: 3 / 238، والكفاية للكنجي: 114، والتذكرة لسبط ابن الجوزي: 41، ونور الابصار للشبلنجي: 86، والطبقات لابن سعد: 1 / 212، وتأريخ اليعقوبي: 2 / 29، وسيرة ابن هشام: 2 / 291، والعقد الفريد لابن عبد ربّه: 3 / 290، وتفسير الرازي: 5 / 223، وشواهد التنزيل للحسكاني: 1 / 96.

كيف وقد باهى الله بهذه التضحية ملائكته، كما روي:

أنه ليلةَ بات عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام على فراش رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم; أوحى الله تعالى إلى جبرئيل وميكائيل: إنّي قد آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيّكما يؤثر صاحبه بالحياة؟

فاختار كلاهما الحياة وأحبّاها، فأوحى الله تعالى إليهما: أفلا كنتما مثل عليّ ابن أبي طالب حين آخيت بينه وبين محمّد، فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه، فهبط جبرئيل فجلس عند رأسه وميكائيل عند رجليه، وجعل جبرئيل يقول: بخ بخ، من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة فوق سبع سماوات(1)؟

مهامّ ما بعد ليلة المبيت :

مع إطلالة فجر اليوم الأوّل للهجرة المباركة وظِلال السلام والأمان الإلهي تحوط رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في كلّ خطوة يخطوها نحو يثرب مقرّ الرسالة الإسلامية الجديد، انفرجت أسارير قلب عليّ عليه‌السلام ، فقد انصرم الليل الرهيب باحتمالاته العديدة ومكارهه الكثيرة دون أن يقع شيء يمس حياته عليه‌السلام بخطر أو مكروه، واستطاع أن يؤدّي المهمّة على أكمل وجه، فقد كان على قدر عال من الانضباط والدقّة والوعي في التنفيذ.

وبقيت أمام عليّ عليه‌السلام مهمات أُخرى لم يكن بمقدور أحد أن يقوم بها، منها: أداء الأمانات التي كانت مودعة عند النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى أصحابها ـ وهم من المشركين ـ الذين وثقوا بالنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لأمانته وإخلاصه، فقد اشتهر بين قريش بالصادق الأمين، وكذلك من يقدم من العرب في الموسم فأودعوا عنده الحلي

ــــــــــــ

(1) تذكرة الخواص: 41، والسيرة الحلبية بهامشه السيرة النبوية: 2 / 27، والفصول المهمّة لابن الصبّاغ: 48، والمناقب لابن شهرآشوب: 2 / 65، وبحار الأنوار: 19 / 39، وأسد الغابة لابن الأثير: 4 / 25.

والأموال، ولم يكن الرسول ممّن يخل بتعهداته أو يخون أماناته حتى ولو كانت الظروف المحيطة صعبة والخطورة تهدّد حياته الشريفة في تلك اللحظات المتسارعة التي يطير لبّ العاقل فيها، لم ينس النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن يوكل هذه المهمّة إلى رجل يقوم بها خير قيام، ولم يكن إلاّ عليّ عليه‌السلام لأنّه الأعرف بشؤون رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وبالمودعين وأموالهم وهو القويّ الأمين.

فأوصل عليه‌السلام الأمانات إلى مَن كان من أصحابها، ثم قام على الكعبة منادياً بصوت رفيع: يا أيّها الناس هل من صاحب أمانة؟ هل من صاحب وصيّة؟ هل من صاحب عدة له قبل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ؟ فلمّا لم يأت أحد لحق بالنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وكان مقام عليّ بن أبي طالب بعد النبي بمكّة ثلاثة أيام(1).

هجرة الإمام عليّ عليه‌السلام :

وصل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى (قُبا) بسلام، واستقبلته جموع الأنصار، ومن هناك بعث بكتابه إلى عليّ عليه‌السلام يأمره فيه بالمسير إليه والإسراع في اللحاق به، وكان قد أرسل إليه أبا واقد الليثي، وحين وصل إليه كتاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم اشترى عليّ عليه‌السلام الركائب وأعدّ العدّة للخروج، وأمر من بقي معه من ضعفاء المسلمين أن يتسلّلوا ويتخفّفوا(2) إذا ملأ الليل بطن كلّ واد إلى ذي طوى(3)، وبدأت المهمّة الشاقّة الثالثة أمام عليّ عليه‌السلام وهي الرحيل برفقة النساء نحو يثرب، وخرج هو ومعه الفواطم: فاطمة بنت رسول الله، واُمّه فاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب، وفاطمة بنت حمزة، وتبعهم أيمن مولى

ــــــــــــ

(1) المناقب لابن شهرآشوب: 2 / 58، ومروج الذهب للمسعودي: 2 / 285.

(2) يتخفّفوا: لا يحملوا معهم شيئاً يثقل عليهم.

(3) ذي طوى: موضع قرب مكة .

رسول الله وأبو واقد الليثي(1).

وتولّى أبو واقد الليثي سوق النياق، ولشدّة خشيته كان يحثّ الخطى سريعاً حتى لا يلحق بهم الأعداء.

وعزّ على عليّ عليه‌السلام أن يرى نساء بني هاشم على تلك الحالة من الجهد والعناء من سرعة الحركة، فقال عليه‌السلام: ارفق بالنسوة أبا واقد، إنّهن من الضعائف.

وأخذ عليه‌السلام بنفسه يسوق الرواحل سوقاً رقيقاً، وهو ينشد ليبعث الطمأنينة في نفوس من معه:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| وليس إلاّ الله فارفع ظنَّكا  |  | يكفيك ربّ الناس ما أهمّكا  |

واستمرّ عليّ عليه‌السلام على هدوئه في قيادة الركب حتى شارف على قرية في الطريق تُسمى (ضجنان) وهناك أدركته القوّة التي أرسلتها قريش للقبض عليه ومن معه وإعادتهم إلى مكّة ، وكانوا سبعة فوارس من قريش ملثّمين معهم مولىً لحرب بن اُمية اسمه (جناح) ، فقال علي عليه‌السلام لأيمن وأبي واقد : أنيخا الإبل واعقلاها ، وتقدّم هو فأنزل النسوة ثمّ استقبل الفوارس بسيفه ، فقالوا له : أظننت يا غدّار أنّك ناجٍ بالنسوة ، إرجع لا أباً لك .

فقال عليه‌السلام : فإن لم أفعل ؟ .. فازدادوا حنقاً وغيظاً منه ، فقالوا له : لترجعنّ راغماً أو لنرجعنّ بأكثرك شعراً وأهون بك من هالك .

ودنا بعضهم نحو النياق ليفزعوها حتى يُدخلوا الخوف والرعب إلى قلوب النسوة ، فحال عليّ عليه‌السلام بينهم وبين ذلك ، فأسرع نحوه جناح وأراد ضربه بسيفه فراغ عنه عليّ عليه‌السلام وسارعه بضربة على عاتقه فقسمه نصفين حتى وصل السيف إلى كتف فرس جناح (2) ، ثمّ شدّ على بقية الفرسان وهو راجل، ففرّوا من بين يديه فزعين خائفين.

ــــــــــــ

(1) أمالي الطوسي : 2 / 84 ، وعنه بحار الأنوار : 19 / 64 .

(2) بحار الأنوار : 19 / 65 .

وقالوا: احبس نفسك عنّا يا ابن أبي طالب، فقال لهم: فإنّي منطلق إلى أخي وابن عمّي رسول الله، فمن سرّه أن أفري لحمه وأُريق دمه فليدنُ منّي، فهرب الفرسان على أدبارهم خائبين.

ثمّ أقبل عليه‌السلام على أيمن وأبي واقد وقال لهما: أطلقا مطاياكما، فواصل الركب المسير حتّى وصلوا (ضجنان) فلبث فيها يوماً وليلة حتى لحق به نفر من المستضعفين، وبات فيها ليلته تلك هو والفواطم يصلّون ويذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم حتى طلع الفجر، فصلّى بهم عليّ عليه‌السلام صلاة الفجر، ثمّ سار لوجهه يجوب منزلاً بعد منزل لا يفتر عن ذكر الله حتى قدموا المدينة.

وقد نزل الوحي قبل قدومهم بما كان من شأنهم وما أعدّه الله لهم من الثواب والأجر العظيم بقوله تعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ ... \* ... \* ... \* فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ... فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا ... وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ ... وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) (1).

وكان رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في (قباء) نازلاً على عمرو بن عوف، فأقام عندهم بضعة عشر يوماً يصلّي الخمس قصراً، يقولون له: أتقيم عندنا فنتّخذ لك منزلاً ومسجداً؟ فيقول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: لا، إنّي أنتظر عليّ بن أبي طالب، وقد أمرته أن يلحقني، ولست مستوطناً منزلاً حتى يقدم عليٌّ، وما أسرعه إن شاء الله!(2)

وحين وصل عليّ عليه‌السلام; كانت قدماه قد تفطّرتا من فرط المشي وشدّة الحرّ، وما أن رآه النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم على تلك الحالة; حتى بكى عليه إشفاقاً له، ثمّ مسح

ــــــــــــ

(1) آل عمران (3) : 191 ـ 195 ، راجع بحار الأنوار : 19 / 66 ـ 67 .

(2) روضة الكافي: 339.

يديه على قدميه فلم يشكهما بعد ذلك(1).

ثمّ إنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لمّا قدم عليه عليّ عليه‌السلام; تحوّل من قباء إلى بني سالم ابن عوف وعلي معه، فخطّ لهم مسجداً، ونصب قبلته، فصلّى بهم فيه ركعتين، وخطب خطبتين، ثمّ راح من يومه إلى المدينة على ناقته التي كان قدم عليها وعليّ لا يفارقه، يمشي بمشيه، وأخيراً نزل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عند أبي أيوب الأنصاري وعليّ معه حتى بنى له مسجده وبنيت له مساكنه، ومنزل عليّ عليه‌السلام فتحوَّلا إلى منازلهما(2).

من معاني مبيت الإمام عليه‌السلام في فراش النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم :

1 ـ إنّ مبيت الإمام عليه‌السلام ليلة الهجرة في فراش النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بمثابة إعلان عن نضج شخصية الإمام علي الرسالية، وأهليّته في أن يمثّل شخصيّة الرسول الّذي يعهد إليه في كلّ أمر مستصعب وخطب جليل ودعوة مهمّة.

2 ـ كانت عملية التمويه على قريش بارتداء الإمام عليه‌السلام رداء رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ومبيته في فراشه ربطاً لصلة القرابة بالعلاقة المبدئية، وتأكيداً لمبدأ أنّ نفس علي هي نفس الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وخصوصاً حين أتمّ مهامّه الأخرى التي تصرّف فيها الإمام بالأمور المالية والاجتماعية الخاصة بالرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم.

3 ـ إنّ ثبات الإمام عليه‌السلام ثلاثة أيام في مكّة كان تأكيداً لشجاعته حين أعلن الإمام بكلّ جرأة وثقة موقفه المبدئي بأنّه ثابت على خطى الرسول، وقد نفّذ أوامره وأنجز مهامه بهدوء ودقة تامّة، ثمّ هجرته العلنية أمام أنظار قريش.

4 ـ تجلّت في عملية المبيت بعض الجوانب العظيمة من شخصيّة الإمام عليه‌السلام والتي أوجزت حقيقة شجاعة الإمام وقوّته النفسية والبدنية ونضوجه الذهني ووعيه الرسالي واستيعابه للأوامر الآلهية.

ــــــــــــ

(1) بحار الأنوار: 19 / 64، والمناقب لابن شهرآشوب: 1 / 182، والكامل لابن الأثير: 2 / 106.

(2) روضة الكافي: 339 ـ 340.

المرحلة الثالثة : عليّ عليه‌السلام من الهجرة إلى وفاة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم

1 ـ عليّ عليه‌السلام والمؤاخاة :

حين شرع الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بتكوين نواة المجتمع الإسلامي وأراد أن يزيد من تماسك عرى العلاقات بين أفراد المجتمع ؛ أخي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بين المسلمين في موقف صريح بيّن ليرسّخ مبدأً أساسياً من مبادئ الإسلام الحنيف ، وهو ما تتطلبه الدعوة الإسلامية في مرحلتيها السرية والعلنية ، فوقعت أوّل مؤاخاة في الإسلام في مكّة قبل الهجرة ، حيث آخى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وحين نتفحّص عملية المؤاخاة نجد أنّ الرسول ضمّ الشكل إلى الشكل والمثل إلى المثل (1) ، لأنّ الأخوة عملية استراتيجية واسعة ذات معاني ودلالات حركيّة في مسيرة الدعوة الإسلاميّة ، فعبر جسر الأخوة تتماسك العلاقات بين المسلمين كما تنضج الأفكار ويتحقّق الإبداع .

روي أنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لمّا آخى بين أصحابه آخى بين أبي بكر وعمر ، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف ، ولم يؤاخِ بين عليّ بن أبي طالب وبين أحد منهم (2) .

فقال عليّ عليه‌السلام : يا رسول الله ! لقد ذهبت روحي وانقطع ظهري حين رأيتك فعلت بأصحابك ما فعلت بغيري ، فإن كان هذا من سخط عليَّ ؛ فلك العُتبى والكرامة .

فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : والذي بعثني بالحق ما أخّرتك إلاّ لنفسي ، وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبيّ بعدي ، وأنت أخي ووارثي .

فقال عليه‌السلام : وما أرث منك ؟

ــــــــــــ

(1) كفاية الطالب للحافظ الكنجي : 194 .

(2) الفصول المهمّة لابن الصبّاغ المالكي : 38 ، والغدير للعلاّمة الأميني : 3 / 112 .

قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : ما ورّث الأنبياء من قبلي ، كتاب ربّهم وسنّة نبيّهم ، وأنت معي في قصري في الجنّة (1) .

وأمّا المؤاخاة الثانية فكانت في المدينة بعد الهجرة بأشهر قليلة (2) .

2 ـ اقتران عليّ عليه‌السلام بالزهراء عليها‌السلام :

بعد أن استقرّ المقام بالمسلمين وبدأت مبادئ الإسلام وتعاليمه تترسّخ في نفوس المسلمين وظهرت يدهم القويّة في الدفاع عن الرسالة والرسول ؛ تفتّحت العلاقات بين المسلمين في صورة مجتمع متمدّن ونهضة ثقافية اجتماعية شاملة ، يتزعّمها الرسول الكريم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الذي عصمه الله في الفهم والتلقّي والإبلاغ والتربية والتنفيذ ، وها هو عليّ عليه‌السلام قد تجاوز العشرين من عمره الشريف وهو يصول في سوح الجهاد والدفاع عن العقيدة والدعوة الإسلامية ، ويقف مع الرسول في كلّ خطواته ، وقد بلغ من نفس الرسول أعلى منزلة ، يعيش معه وهو أقرب من أيّ واحد من المسلمين ، وبعد أن انقضت سنتان من الهجرة وفي بيت الرسول بلغت ابنته الزهراء عليها‌السلام مبلغ النساء ، وشرع الخطّاب بما فيهم أبو بكر وعمر (3) يتسابقون إلى النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يطلبونها منه وهو يردّهم ردّاً جميلاً ويقول : إنّي أنظر فيها أمر الله ، وكان عليّ من الراغبين في الزواج منها .

ولكن كان يمنعه عن مفاتحة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الحياء وقلّة ذات اليد ، فلم يكن

ــــــــــــ

(2) أخرجه أحمد بن حنبل في مناقب عليّ عليه‌السلام ، وتأريخ دمشق لابن عساكر : 6 / 201 ، وكنز العمال للمتّقي الهندي : 5 / 40 ، وكشف الغمة : 1 / 326 .

(2) كفاية الطالب للكنجي : 82 ، تذكرة الخواص : 14 ، والفصول المهمّة : 38 .

كما وردت أحاديث المؤاخاة بين النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وعليّ عليه‌السلام يصيغ مختلفة ومصادر عديدة منها : تأريخ ابن كثير : 7 / 235 ، والفصول المهمّة : 22 ، ومسند أحمد : 1 : 23 ، وتأريخ ابن هشام : 2 : 132 ، وتأريخ دمشق : 6 / 201 ، وفرائد السمطين : 1 / 226 ، والغدير : 3 / 115 ، وكفاية الطالب : 185 .

(3) كشف الغمة : 1 / 353 .

عليّ عليه‌السلام من الذين يملكون الأموال ن وبتشجيع من بعض أصحاب الرسول تقدّم عليّ لخطبة الزهراء ، فدخل على النبيّ وهو مطرق إلى الأرض من الحياء ، فأحسّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بما في نفسه فاستقبله ببشاشته وطلاقة وجهه الكريم ، وأقبل عليه يسأله برفق ولطف عن حاجته ، فأجابه عليه‌السلام بصوت ضعيف : يا رسول الله تزوّجني من فاطمة ؟

فردّ النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قائلاً : مرحباً وأهلاً ، ودخل على بضعته الزهراء ليعرض عليها رغبة عليّ عليه‌السلام فيها ، فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لها : لقد سألت ربّي أن يزوّجك خير خلقه وأحبّهم اليه ، وقد عرفت عليّاً وفضله ومواقفه ، وجاءني اليوم خاطباً فما ترين ؟ فأمسكت ولم تتكلّم بشيء ، فخرج النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وهو يقول : سكوتها رضاها وإقرارها .

ثمّ إنّ الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم جمع المسلمين وخطب فيهم ، فقال : إنّ الله أمرني أن أزوّج فاطمة من عليّ ...

ثمّ التفت إلى عليّ عليه‌السلام فقال :

لقد أمرني ربّي أن أزوجك فاطمة ... أرضيت هذا الزواج يا عليّ ؟ فقال عليه‌السلام : رضيته يا رسول الله ، وخرّ ساجداً لله .

فقال النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : بارك الله فيكما ، وجعل منكما الكثير الطيب .

وجاء عليّ عليه‌السلام بالمهر الذي هيّأه من بيع درعه فوضعه بين يدي رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فأمر الرسول أبا بكر وبلالاً وعمّاراً وجماعةً من الصحابة وأم أيمن لشراء جهاز الزواج ، ولمّا تم الجهاز وعرض على الرسول ؛ جعل يقلّبه بيده ويقول : بارك الله لقوم جلّ آنيتهم من الخزف .

وبيسر وبساطة ودون تكاليف تمت الخطبة والزواج ، وكان الجهاز من أبسط ما عرفته المدينة ، واحتفل النبيّ وبنو هاشم بهذا الزواج الميمون (1) .

وروي أنّ النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عوتب في زواج فاطمة عليها‌السلام فقال : لو لم يخلق الله عليّ بن أبي طالب لما كان لفاطمة كفؤ .

وفي خبر آخر أنّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال مخاطباً عليّاً عليه‌السلام : لولاك لما كان لها كفؤ على وجه الأرض (2) .

3 ـ عليّ عليه‌السلام مع الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في معاركه :

أ ـ عليّ عليه‌السلام في معركة بدر :

فتح رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بهجرته عهداً جديداً في تأريخ البشرية بشكل عامّ وفي تأريخ الرسالة الإسلامية بشكل خاص ، وبدأت معالم الدولة تتوضّح ومظاهر قوة المسلمين تبدو للعيان ، وفي الجانب الآخر لم تتوقّف قريش ومن والاها من المشركين ويهود المدينة الذين أظهروا السلم نفاقاً وتغطيةً على التخطيط السرّي للقضاء على الإسلام وأهله ، وكان رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يعالج الأمور بحكمة ورويّة ، ومن الطبيعي أن لا يقف النبيّ من مؤامرات أعداء الإسلام وتحرّشاتهم موقف الضعيف المتخاذل ، فأخذ يرسل السرايا ليهدّدهم ويطاردهم أحياناً .

ولما كان للمدينة موقع استراتيجي مهم في طرق التجارة والمواصلات في الجزيرة العربية ؛ فقد أصبح المسلمون بعد تزايد عددهم قوّة ضغط لابدّ من وضعها في الحسبان ، ومنذ أن وطأت قدم عليّ عليه‌السلام مدينة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ؛ بدأ العمل في كلّ جوانب الحياة وما تتطلبه الرسالة الإسلامية جنباً إلى جنب الرسول من بناء الدولة ونشر الرسالة مندفعاً بطاقة ذاتية هائلة بما وهبه الله من قوّة وعزيمة لا توازيها قوّة وطاقة مجموعة كبيرة من الأفراد ، فكان الذراع القويّ التي يضرب

ــــــــــــ

(1) كشف الغمة : 1 / 348 ، وبحار الأنوار : 43 / 92 ، ودلائل الإمامة للطبري : 16 ـ 17 .

(2) المناقب لابن شهر آشوب : 2 / 181 .

بها رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، ونجد هذا واضحاً جليّاً في كلّ وقعة ومعركة دخل فيها عليّ عليه‌السلام ، وكان من طبيعة المعارك أنّها تتوقّف في العادة على الجولة الأولى ، فمن يفوز فيها تحسم المعركة لصالحه ، كما في معركة بدر (1) التي كانت عنواناً لبداية اُفول كلّ القوى العسكرية في الجزيرة وخصوصاً قريش ، ومنطلقاً للانتصارات والفتوحات التي حقّقها المسلمون .

روي أنّ عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة خرجوا ودعوا إلى المبارزة ، فخرج إليهم في البداية عوف ومُعَوِّذ ابنا عفراء وعبد الله بن رواحة وكلّهم من الأنصار ، فقالوا لهم : من أنتم ؟ قالوا : من الأنصار ، فقالوا : أكفاء كرام وما لنا بكم من حاجة ، ليخرج الينا أكفاؤنا من قومنا .

فأمر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عمّه حمزة وعبيدة بن الحارث وعليّاً بمبارزتهم ، فدنا بعضهم من بعض فبارز عبيدة بن الحارث عتبة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز عليّ عليه‌السلام الوليد ، فأمّا حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وقتل عليٌّ عليه‌السلام الوليد ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما قد أثبت صاحبه ، وكرّ حمزة وعليّ عليه‌السلام على عتبة فقتلاه (2) .

ثمّ نشبت المعركة بين طرفين غير متكافئين بالموازين العسكرية : جبهة المسلمين وعددها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، تقاتل عن إيمان وعقيدة ، تدافع عن الحقّ وتدعو إليه ، وجبهة قريش وعددها تسعمائة وخمسون رجلاً تقاتل عن حميّة وعصبيّة جاهلية ، وهنا دخلت عناصر جديدة في الحرب منها : دعاء الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وثباته وبسالة حمزة وقوّة عليّ عليه‌السلام ، فغاص عليّ وحمزة وأبطال المسلمين في وسط قريش ، ونسي كلّ واحد منهم نفسه وكثرة عدوه ، فتطايرت الرؤوس عن الأجساد ، وأمدّ الله المسلمين بالقوة والعزيمة والثبات ، واسر المسلمون كلّ من عجز عن الفرار حتى بلغ عدد الأسرى سبعين رجلاً ، وعدد القتلى اثنين وسبعين رجلاً .

ــــــــــــ

(1) يقال لها : معركة بدر العظمى ، وقعت في السنة الثانية للهجرة في السابع عشر من شهر رمضان ، وقيل : في التاسع عشر منه .

(2) الكامل في التأريخ : 2 / 134 و 135 ط مؤسسة الأعلمي ، وتأريخ الطبري : 3 / 35 .

وتنصّ الروايات على أنّ عليّاً عليه‌السلام قتل العدد الأكبر منهم ، فعلى أقل التقادير أنّه عليه‌السلام قتل أربعة وعشرين ، وشارك في قتل ثمانية وعشرين آخرين ، ويبدو أنّ الذين قتلهم عليّ عليه‌السلام هم أبطال قريش وصناديدها (1) .

في هذه المعركة المهمّة كان عليّ عليه‌السلام صاحب راية رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إضافة إلى دوره الحاسم لنتيجة المعركة (2) .

وروي أنّ رجلاً من بني كنانة دخل على معاوية بن أبي سفيان فقال له : هل شهدت بدراً ؟ قال : نعم ، قال : فحدّثني ما رأيت وحضرت .

قال : ما كنّا شهوداً إلاّ كغياب ، وما رأينا ظفراً كان أوشك منه ، قال : فصف لي ما رأيت .

قال : رأيت عليّ بن أبي طالب غلاماً شابّاً ليثاً عبقرياً يفري الفري ، لا يثبت له أحد إلاّ قتله ، ولا يضرب شيئاً إلاّ هتكه ، ولم أر من الناس أحداً قطّ أنفق منه يحمل حملته ويلتفت التفاتة ، كأنّه ثعلب روّاغ ، وكأنَّ له عينان في قفاه ، وكأنّ وثوبَه وثوبُ وحش (3) .

ب ـ عليّ عليه‌السلام في معركة اُحد :

لم تكن قريش لتنسى هزيمتها الساحقة في معركة بدر ومقتل صناديدها

ــــــــــــ

(1) الإرشاد للمفيد : 64 الفصل 19 الباب 2 ، وكشف الغمّة : 1 / 182 .

(2) الاستيعاب لابن عبد البرّ المالكي بهامش الإصابة : 3 / 33 ، وتأريخ دمشق لابن عساكر : 1 / 142 .

(3) حلية الأولياء لأبي نعيم : 9 / 145 .

ورجالها وكثير من أبطالها فعزمت على الثأر من المسلمين ردّاً لاعتبارها الذي فقدته ، ولم يمضِ سوى عام حتى استكملت قريش عدّتها ، واجتمع إليها أحلافها من المشركين واليهود ، وانضمّ اليهم كلّ حاقد وناقم على الدين الإسلامي ، فاتّفقت كلمة الكفر ، واتّحدت قوى الباطل لمواجهة الحقّ ، وخرج جيش الكفر باتّجاه المدينة وقد تجاوز عدده ثلاثة آلاف ، وذلك في أوائل شوال من السنة الثالثة للهجرة ، وما أن وصل خبرهم إلى مسامع النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حتى جمع المسلمين واستشارهم في الموقف المناسب الذي يجب أن يتّخذوه ، تمّ خطب فيهم وحثّهم على القتال والصبر والثبات ، ووعدهم بالنصر والأجر ، وتجهّز للخروج بمن معه وكانوا ألفاً أو يزيدون ، ودفع لواءه لعليّ بن أبي طالب عليه‌السلام ووزّع الرايات على وجوه المهاجرين والأنصار ، وأبى النفاق إلاّ أن يأخذ دوره في إضعاف المسلمين ، فرجع عبد الله ابن أبي بمن تبعه في منتصف الطريق ، وكان عددهم يناهز الثلاثمائة (1) .

واستمرّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في مسيره قدماً حتى بلغ أُحداً ، فأعدّ أصحابه للقتال ووضع تخطيطاً سليماً محكماً للمعركة يضمن لهم النصر ، حيث أمر خمسين رجلاً من الرماة أن يكونوا من وراء المسلمين إلى جانب الجبل ، وأكّد عليهم بأن يلزموا أماكنهم ولا يتركوها حتى لو قُتل المسلمون جميعاً (2) .

ووصلت قريش إلى (أُحد) وأعدّوا أنفسهم للقتال ، فقسّموا الأدوار ووزّعوا المهام كما بدا لهم ، وأعطوا لواءهم لبني عبد الدار ، وأوّل من استلمه منهم طلحة بن أبي طلحة ، ولمّا علم النبيّ بذلك أخذ اللواء من عليّ عليه‌السلام وسلّمه إلى مصعب بن عمير وكان من بني عبد الدار ، وبقي معه إلى أن قُتل ، وحينئذٍ ردّه

ــــــــــــ

(1) الكامل في التأريخ : 2 / 150 ، وسيرة ابن هشام : 3 / 64 .

(2) مغازي الواقدي : 1 / 224 ، والكامل في التأريخ : 2 / 152 ، وسيرة ابن هشام : 3 / 66 .

النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى عليّ عليه‌السلام (1) ، وكانت معركة (أُحد) قد وقعت في شوال من العام الثالث من الهجرة .

وفي اللحظة التي كمل فيها التنظيم انطلقت شرارة المعركة عندما برز كبش الشرك وحامل رايتهم طلحة بن أبي طلحة الذي كان يُعدّ من شجعان قريش ، يتقدّم نحو المسلمين رافعاً صوته متحدّياً لهم مستخفّاً بجمعهم قائلاً : يا معشر أصحاب محمد ! إنّكم تزعمون أنّ الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنّة ؛ فهل أحد منكم يعجله سيفي إلى الجنّة أو يعجلني سيفه إلى النار ؟

فخرج إليه عليّ عليه‌السلام (2) وبرزا بين الصفّين ورسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم جالس في عريش أُعدّ له يشرف على المعركة ويراقب سيرها ، فضرب عليّ طلحة فقطع رجله وسقط على الأرض وسقطت الراية ، فذهب علي ليجهز عليه فكشف عورته وناشده الله والرحم ، فتركه عليّ عليه‌السلام فكبّر رسول الله وكبّر معه المسلمون فرحاً بنتيجة هذه الجولة .

ثمّ تقدّم أخوه عثمان بن أبي طلحة فحمل الراية فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فضربه فقتله ، فحمل اللواء من بعده أخوهما أبو سعيد ، فحمل عليه عليّ عليه‌السلام فقتله ، ثمّ أخذ اللواء أرطاة بن شرحبيل فقتله عليّ ، وهكذا تعاقب على حمل اللواء تسعة من بني عبد الدار قُتلوا بأجمعهم بسيف عليّ (3) أو سيف حمزة ، وكان آخر من حمل اللواء هو غلام لبني عبد الدار يُدعى (صواب) فحمل عليه عليّ وقتله ، وسقط اللواء من بعده في ساحة المعركة ولم يجرؤ أحد أن يحمله ، فدبّ الرعب في قلوب المشركين ، وانهارت معنوياتهم ، وانكشف المشركون لا يلوون على شيء حتى أحاط المسلمون بنسائهم ، وبدت المعركة وكأنّها قد حُسمت لصالح المسلمين .

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 2 / 199 ط مؤسسة الأعلمي .

(2) سيرة ابن هشام : 3 / 73 .

(3) الكامل في التاريخ : 2 / 152 ـ 154 .

وهنا عصفت النازلة العظمى بالمسلمين حيث ترك الرماة موقعهم فوق الجبل ، وانحدروا يشاركون إخوتهم غنائم المعركة ، ولم يثبت على الجبل إلاّ عشرة رماة .

فنظر خالد بن الوليد ـ وكان على خيل المشركين ـ خلوّ الجبل وقلّة الثابتين صاح بخيله ، وكرّ يحمل على الرماة وتبعه عكرمة فقتلوهم ، وهنا تغيّر ميزان القوة ورجحت كفّته لصالح المشركين ، فاستطاعوا أن ينفذوا ويشقّوا صفوف المسلمين (1) ، وكانت المأساة التي لم يعرف المسلمون لها مثيلاً ، فارتبك المسلمون وضاع صوابهم ، فكانت هزيمة بعد نصر وانكساراً بعد انتصار ، وتفرّق الناس كلّهم عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وأسلموه إلى أعدائه بعد أن استشهد عمّه حمزة ومصعب بن عمير ، ولم يبق معه أحد إلاّ عليّ ونفر قليل من المهاجرين والأنصار .

في هذه اللحظات الحاسمة والحرجة سجّل التأريخ موقف الصمود والفداء الذي وقفه عليّ عليه‌السلام من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وقف ليدافع عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بكلّ قوة وبسالة وهمّه سلامة الرسول والرسالة ، إذ كان يحمل الراية بيد والسيف بالأخرى يصدّ الكتائب ويردّ الهجمات عن الرسول ، وكأنّه جيش بكامل عِدَّته وعُدَّته ، وكان الرسول كلّما رأى جماعة تهجم عليه قال لعليّ عليه‌السلام : يا عليّ احمل عليهم ، فيحمل عليهم ويفرّقهم ، فلم يزل عليّ يقاتل حتى أثخنته جراحات عديدة في وجهه ورأسه وصدره وبطنه ويديه (2) .

فأتى جبرئيل عليه‌السلام النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقال : إنّ هذه لهي المواساة ، فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم :

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 2 / 194 ط مؤسسة الأعلمي .

(2) الكامل في التأريخ : 2 / 154 ، وأعيان الشيعة : 1 / 288 ، وبحار الأنوار : 20 / 54 .

إنّه منّي وأنا منه ، فقال جبرئيل : وأنا منكما ، فسمعوا صوتاً في السماء ينادي : لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ عليّ (1) .

وهكذا استطاع أمير المؤمنين عليه‌السلام أن يحافظ على حياة الرسول الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وأن يوصل نتيجة المعركة إلى حالة من التوازن دون أن يحرز أحد الطرفين نصراً حاسماً.

مواقف بعد معركة (أُحد( :

ولمّا انصرف أبو سفيان ومن معه ؛ بعث رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عليّاً عليه‌السلام فقال : اخرج في آثار القوم وانظر ماذا يصنعون ، فإن كانوا قد جنّبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنّهم يريدون مكّة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة .

قال عليّ عليه‌السلام : فخرجتُ في آثارهم فرأيتهم جنّبوا الخيل وامتطوا الإبل يريدون مكّة (2) .

ولمّا رجع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة عليها‌السلام وقال : اغسلي عن هذا دمه يا بنية ، وناولها عليّ عليه‌السلام سفيه وقد خضّب الدم يده إلى كتفه ، فقال لها رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : خذيه يا فاطمة فقد أدّى بعلك ما عليه ، وقد قتل الله بسيفه صناديد قريش (3) .

كانت معركة أُحد قاسية نتيجتها ، شديدة وطأتها ، باهضة مكلّفة خسارتها ، ورغم مرارة المعركة نلمح فيها ومضات ساطعة من مواقف عليّ عليه‌السلام ، فقد امتاز بأمور دون أن يشاركه فيها أحد :

ــــــــــــ

(1) الكامل في التأريخ : 2 / 154 ، وفرائد السمطين للحمويني : 1 / 257 الحديث 198 ، 199 ، وتأريخ دمشق لابن عساكر : 1 / 148 ، وروضة الكافي : الحديث : 90 .

(2) أعيان الشيعة : 1 / 389 ، والسيرة النبوية لابن هشام : 3 / 94 .

(3) أعيان الشيعة : 1 / 390 .

1 ـ أنه كان صاحب راية رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والتي لم تسقط إلى الأرض رغم فرار أغلب المسلمين .

2 ـ قتله عليه‌السلام أصحاب راية المشركين الذين تصدّوا لحملها ، وقد أظهر بذلك حنكة عسكرية وشجاعة فذّة ، وأحدث بذلك شرخاً كبيراً في صفوف المشركين كان سبباً في هزيمتهم في أوّل المعركة .

3 ـ ثباته عليه‌السلام مع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وعدم فراره بعدما فرّ عنه الناس يدلّ على إيمانه المطلق بالمعركة ، والذي يكشف عن عمق العقيدة ورسوخها في نفسه عليه‌السلام .

4 ـ أنه كان هو المحامي عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والدافع عنه كتائب المشركين الذين قصدوا قتل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، فكان عليه‌السلام يمثّل الدرع التي تقي رسول الله عن وصول مكروه إليه ، وهذا يدلّ على عظيم حبّه للرسول وتفانيه في الحرص على سلامته .

5 ـ أنّ أكثر المقتولين من المشركين يومئذٍ قتلاه (1) ، وهذا يدلّ على فاعليته القتالية العالية وقوّته وشجاعته عليه‌السلام .

6 ـ الأخلاق والقيم العالية التي عكسها في المعركة حيث ترك الإجهاز على طلحة بن أبي طلحة عندما كشف عن عورته حياءً منه عليه‌السلام وتكرّماً .

7 ـ أنّه عليه‌السلام كان قريباً من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ملازماً له حيث كان الرسول يوجّهه ليرد الهاجمين عليه ، وأيضاً هو الذي أخذ بيد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لمّا سقط في إحدى الحفر التي حفرها أبو عامر الراهب في ساحة المعركة ليقع فيها المسلمون (2) .

ــــــــــــ

(1) الإرشاد : 82 ، الفصل 23 الباب 2 .

(2) سيرة ابن هشام : 3 / 80 .

كما أنّه هو الذي حمل الماء بدرقته إلى النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ليغسل الدم والتراب عن وجهه ورأسه .

8 ـ ورغم الجراحات التي تعرّض لها عليّ عليه‌السلام والجهد الذي بذله ؛ فقد أرسله النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بعد انصراف قريش عن المعركة ليستطلع أخبارهم ، وهذا يدلّ على ثقة الرسول بقدرة عليّ ودقّة ضبطه للمعلومات وحنكته في معالجة الأمور الطارئة ، فالمعركة لم تنته بعد تماماً (1) .

ج ـ عليّ عليه‌السلام في معركة الخندق :

تمثّل أمام قريش الفشل في القضاء على المسلمين حقيقة واضحة ن ولكنّها الجاهلية والعناد والإصرار على الكفر ، فعادت قريش تتهيّأ مرةً أخرى لتوجيه الضربة القاضية للمسلمين ، وذلك بالتحالف مع القبائل الجاهلية الأخرى واليهود أيضاً ، حتى بلغ عددهم عشرة آلاف يقودها أبو سفيان (2) ، وازداد غيظ وحقد المشركين حين واجهوا الأسلوب الدفاعي والتكتيك الحربي الّذي اتّخذه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، بعد أن استشار أصحابه فأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق ، غير أنّ الاندفاع والحماس والغرور بالعدّة والعدد كان قويّاً في نفوس الأحزاب المجتمعة لقتال المسلمين والقضاء على الإسلام نهائياً .

وتمكّن بعض فرسان قريش من عبور الخندق من مكان ضيّق فيه ، فأصبحوا هم والمسلمون على صعيد واحد ، فازداد المسلمون خوفاً على خوفهم وخرج عليّ بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم .

ــــــــــــ

(1) هذه الامتيازات لعليّ عليه‌السلام في غزوة أُحد قد ذكرها العلاّمة السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة : 1 : 390 فراجع .

(2) السيرة الحلبية : 2 / 631 .

فوقف عمرو بن عبد ودّ يطلب المبارزة ويتحدّى المسلمين ، وهدأت أصوات المسلمين أمام صيحاته وكأنّ على رؤوسهم الطير ، كلّ يفكر في نفسه ويحسب لهذا الفارس ألف حساب .

فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : هل يبارزه أحد ؟ فبرز إليه عليّ عليه‌السلام فقال : أنا له يا رسول الله ، فأجلسه النبيّ ، وللمرّة الثانية والثالثة طالب عمرو المبارزة فلم يكن يجيبه إلاّ عليّ عليه‌السلام وفي كلّ مرّة كان رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يطلب منه الجلوس (1) ثم أذن النبيّ لعليّ بعد أن عمّمه بعمامته وقلّده بسيفه وألبسه درعه ، ثمّ رفع يديه وقال : )اللّهم إنّك أخذت عبيدة يوم بدر وحمزة يوم أُحد وهذا عليّ أخي وابن عمّي فلا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين) (2) .

وبرز عليّ عليه‌السلام إلى ساحة المعركة بعد أن قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : )برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه( (3) .

وانحدر عليّ عليه‌السلام نحو عمرو والثقة بنصر الله تملأ قلبه ، أمّا عمرو فقد كان لقاؤه مع عليّ مفاجأة له ، وفي هذا الموقف تردّد عمرو في مبارزة عليّ عليه‌السلام فقال له : يا عمرو ، إنّك كنت في الجاهلية تقول : لا يدعوني أحد إلى ثلاثة إلاّ قبلتها أو واحدة منها ، قال : أجل .

قال عليّ عليه‌السلام : فإنّي أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله وأن تسلم لربّ العالمين ، قال : أخّر عني هذه ، قال علي عليه‌السلام : أما إنّها خير لك لو أخذتها ، ثمّ قال : ترجع من حيث جئت ، قال: لا تتحدّث نساء قريش بهذا أبداً ، قال عليّ عليه‌السلام: تنزل تقاتلني .

ــــــــــــ

(1) السيرة النبوية لابن هشام : 3 / 224 ، تاريخ الطبري : 3 / 172 ، والكامل في التاريخ : 2 / 180 ، والسيرة الحلبية : 2 / 318 .

(2) موسوعة التاريخ الإسلامي : 2 / 491 و 492 ، عن شرح نهج البلاغة : 19 / 61 ، وراجع المناقب للخوارزمي : 144 ، السيرة الحلبية : 2 / 318 .

(3) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : 19/ 61 ، ينابيع المودة : الباب الثالث والعشرون ، رواه عن ابن مسعود ورواه الميلاني في قادتنا : 2 / 108 عن الدميري في حياة الحيوان : 1 / 248 وعن الفضل بن روزبهان : انّه حديث صحيح لا ينكره إلاّ سقيم الرأي ضعيف الإيمان . ولكنه ليس نصّاً في الإمامة .

فغضب عمرو عند ذلك ونزل عن فرسه وعقرها ، ثمّ أقبل على عليّ عليه‌السلام فتقاتلا ، وضربه عمرو بسيفه فاتّقاه عليّ بدرقته ، فأثبت فيها السيف وأصاب رأسه ، ثمّ ضربه عليّ على عاتقه فسقط إلى الأرض يخور بدمه ، وعندها كبّر علي عليه‌السلام وكبّر المسلمون خلفه ، وانجلت الواقعة عن مصرع عمرو ، وفرّ أصحابه من هول ما شاهدوه ، فلحق بهم عليّ فسقط نوفل بن عبد الله في الخندق فنزل إليه علي فقتله (1) .

وتلقّت الأحزاب هذه الضربة القاسية بدهشة واستغراب ، لأنّها لم تكن تتوقّع أنّ أحداً يجرؤ على قتل عمرو بن عبدودّ ، فدبّ الخوف في نفوسهم ولم يجسر أحد منهم على تكرار المحاولة إلاّ أنّهم بقوا محاصرين للمدينة فترة من الزمن حتى أذن الله بهزيمتهم حين استخدم رسول الله أسلوباً آخر لمحاربتهم .

وامتاز عليّ عليه‌السلام على جميع من حضروا غزوة الخندق بأمور :

1 ـ مبادرته لحماية الثغرة التي عبر منها عمرو وأصحابه ، والتي تدلّ على الحزم والإقدام في مواجهة الطوارئ في ساحة المعركة .

2 ـ مبارزته عَمْراً وقتله ، وقد تردّد المسلمون في مبارزته فلم يخرج إليه أحد ، وقد قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مشيداً بموقف عليّ عليه‌السلام : (لمبارزة عليّ بن أبي طالب لعمرو بن عبدودّ يوم الخندق أفضل من عمل أمتي إلى يوم القيامة) (2) .

3 ـ الشجاعة والقوّة الفائقة التي ظهرت منه عليه‌السلام طوال المعركة تمثلت واضحة حينما لحق المنهزمين الذين عبروا مع عمرو بن عبدود ، وهو راجل وهم فرسان .

ــــــــــــ

(1) تاريخ دمشق : 1 / 150 ، وراجع أيضاً موسوعة التاريخ الإسلامي : 2 / 495 .

(2) مستدرك الحاكم : 3 / 32 ، نقلاً عن هامش تأريخ دمشق : 1 / 155 ، وفرائد السمطين : 1 / 255 حديث 197 .

4 ـ الأخلاق العالية التي كان يتميز بها عليه‌السلام في شتّى المواقف ، مظهراً فيها عظمة الرسالة والرسول ، منها أنه لم يسلب عَمْراً درعه مع أنّها من الدروع الممتازة بين دروع العرب .

5 ـ إن قتله عليه‌السلام عَمْراً ونوفلاً ولحوقه بالمنهزمين كان سبباً في إعادة الثقة للمسلمين بنفوسهم بعدما رأوا الجمع الكبير لقريش وأحلافها ، وأيضاً كان سبباً لهزيمة المشركين مع ما أصابهم من الريح والبرد وسبب خوفهم من أن يعاودوا الغزو .

6 ـ الشرف الرفيع الذي ناله عليّ عليه‌السلام بشهادة الرسول حين قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عند مبارزة عليّ عليه‌السلام : ( برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه ) (1) .

د ـ عليّ عليه‌السلام في صلح الحديبية (\*) :

بعد الأحداث المتغيّرة والمؤلمة والمعارك الدامية التي خاضها النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والمسلمون مع قريش واليهود ؛ تمكّنت الرسالة الإسلاميّة أن تخطو خطوات بعيدة المدى تحقّق من خلالها للمسلمين كياناً واضحاً ووجوداً مستقلاً وقوة لابدّ من حسابها في شتى الميادين .

وكان المسلمون يشغفون شوقاً لزيارة الكعبة ويتذكّرونها كلّما وقفوا في صلاتهم متّجهين نحوها . في هذا الوقت من عمر الرسالة الإسلامية عزم النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم على أداء فريضة من فرائض الإسلام بأمر من الله ، فقرّر الحجّ واتّخذ كلّ الإجراءات والتدابير اللازمة لمثل هذه الخطوة حتّى أعلن صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مراراً أنّه لا يريد الحرب ضد قريش أو غيرها .

ــــــــــــ

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ك 19 / 61 .

(\*) كان خروج النبي لأداء العمرة في مطلع ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة المباركة .

ولمّا علمت قريش بالخبر ، اجتمعت كلمتهم على منعه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من دخول مكّة مهما كلّفهم ذلك من جهد وخسائر ، وأرسلوا خالد بن الوليد على رأس جماعة من الفرسان ليقطع عليه الطريق .

وحين نزل النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والمسلمون منطقة (الجحفة) ؛ كان الماء قد نفد لديهم ولم يجدوا ماءً ، فأرسل صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الروايا فلم يتمكّنوا من جلب الماء لتردّدهم وخوفهم من قريش ، عندها دعا صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عليّاً عليه‌السلام وأرسله بالروايا لجلب الماء ، وخرج السقاة وهم لا يشكّون في رجوعه لمّا رأوا من رجوع من تقدّمه ، فخرج عليٌّ عليه‌السلام حتى وصل (الحرار) واستقى ، ثمّ أقبل بها إلى النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ولها زَجَل ، فلمّا دخل كبّر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ودعا له بالخير (1) .

ثم إن قريشاً اضطرّت النبيّ أن يعدل عن الطريق المؤدّي إلى مكّة ، وانحرف به رجل من (أسلم) إلى طريق وعرة المسالك خرجوا منها إلى ثنية المراد ، فهبط الحديبيّة ، وحاولت قريش أكثر من مرّة التحرّش بالمسلمين ومهاجمتهم بقيادة خالد بن الوليد ، لكنّ عليّاً عليه‌السلام وجماعة من المسلمين الأشدّاء كانوا يصدّون تلك الغارات ويفوّتون الفرصة على قريش في جميع محاولاتها العدوانية (2) .

واضطرّت قريش أن تفاوض النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بعدما رأت العزيمة والإصرار منه ومن المسلمين على دخول مكّة ، فأرسلت إليه مندوبين عنها للتفاوض ، وكان آخرهم سهيل بن عمر وحويطب من بني عبد العزّى . ويبدو أنّ المفاوضات لم

ــــــــــــ

(1) الإرشاد : 108 ، الفصل 30 الباب 2 ، وكشف الغمة : 1 / 280 باب المناقب مثله .

(2) سيرة الأئمّة الاثني عشر للحسني : 1 / 217 نقلاً عن ابن إسحاق .

تنحصر بخصوص قضيّة الدخول إلى مكّة في ذلك العام (1) بل تناولت أموراً أخرى لصالح الطرفين .

فقد روي أنّ عليّاً عليه‌السلام قال : لمّا كان يوم الحديبيّة ؛ خرج إلينا ناس من المشركين فقالوا لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : يا محمد ! خرج إليك أناس من أبنائنا وإخواننا وأرقّائنا وليس لهم فقه في الدين ، وإنّما خرجوا فراراً من أموالنا وضياعنا فارددهم إلينا ، فقال : إذا لم يكن لهم فقه في الدين كما تزعمون سنفقّههم فيه ، وأضاف إلى ذلك : يا معشر قريش ! لتنتهنّ أو ليبعثنّ الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف قد امتحن الله قلبه بالإيمان ، فقال له أبو بكر وعمر والمشركون : من هو ذلك الرجل يا رسول الله ، فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : هو خاصف النعل ، وكان قد أعطى نعله لعليّ عليه‌السلام يخصفها (2) .

وبعد أن تمّ الاتّفاق بين الطرفين على بنود الصلح ؛ دعا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عليّ بن أبي طالب فقال له : اُكتب يا عليّ ، بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : أمّا الرحمن فو الله ما أدري ما هو لكن اكتب باسمك اللّهمّ ، فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلاّ بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : اُكتب باسمك اللّهمّ ، هذا ما قاضى عليه محمّد رسول الله ، فقال سهيل : لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمّد بن عبد الله ، فقال النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : إنّي لرسول الله وإن كذّبتموني ، ثمّ قال لعليّ عليه‌السلام : امحِ رسول الله ، فقال عليه‌السلام : يا رسول الله ، إنّ يدي لا تنطلق لمحو اسمك من النبوّة ، فأخذه رسول الله فمحاه ، ثمّ قال له : أما إنّ لك مثلها وستأتيها وأنت مضطرّ لذلك (3) .

ــــــــــــ

(1) كنز العمال : 10 / 472 ، غزوة الحديبية .

(2) ينابيع المودة للقندوزي : 59 ، وكنز العمال : 13 / 173 ، وفضائل الخمسة للفيروزآبادي : 2 / 237 .

(3) تأريخ الطبري : 2 / 282 ط مؤسسة الأعلمي ، والكامل لابن الأثير : 2 / 404 .

هـ ـ عليّ عليه‌السلام في غزوة خيبر (\*) :

لمّا تم عقد صلح الحديبية اطمأن النبيّ على مصير الرسالة الإسلاميّة من ناحية قريش وباقي أطراف عرب الجزيرة الذين كانوا على شركهم ، لأنّ بنود الصلح كانت تميل غلى ترجيح كفّة المسلمين ، يضاف إلى ذلك تنامي قوّة المسلمين عِدّة وعُدّة ، فقد أقبل على الإسلام خلق كثير ، والعرب أدركوا أنّ قريشاً على عتوّها وطغيانها وقوّتها قد انكسرت شوكتها وفشلت خططها في القضاء على الإسلام عن طريق القوّة ، ولذا بدا التوقيع على عقد الصلح استسلاماً من جانب قريش .

وبقيت قوّة أخرى تثير الشغب وتمثّل النفاق والغدر ، تلك هي جموع اليهود الذين كانوا خارج المدينة ، فكان النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يراقبهم خشية أن يقوموا بعمل معادي بدعم خارجي ، وخصوصاً أنّ تأريخ اليهود مليء بالغدر ونقض العهود ، لذا قرّر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم غزو (خيبر) معقل اليهود وحصنهم . فأمر صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أصحابه أن يتجهّزوا للغزو بأسرع وقت ، فتمّ ذلك فخرج من المدينة وأعطى الراية لعليّ عليه‌السلام ومضى يجدّ السير باتّجاه خيبر ، فوصل إليهم ليلاً ولم يعلم به أهلها ، فخرجوا عند الصباح ، فلمّا رأوه عادوا وامتنعوا في حصونهم ، فحاصرهم النبيّ وضيّق عليهم ونشبت معارك ضارية بين الطرفين حول الحصون ، وتمكّن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من فتح بعض حصونهم ، واستمرّ الحال هذا من الحصار والقتال بضعاً وعشرين يوماً ، وبقيت بعض الحصون المنيعة ، فبعث النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم برايته أبا بكر فرجع ولم يصنع شيئاً ، وفي اليوم الثاني بعث بها عمر بن الخطاب فرج خائباً

ــــــــــــ

(\*) خيبر : مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع ونخل كثير ، تقع خارج المدينة على بعد حوالي (90) ميلاً ، وقعت الغزوة في بداية محرّم من العام السابع للهجرة .

كصاحبه يجبّن أصحابه ويجبّنه أصحابه ، وهنا عزَّ على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن يعقد بيده لواءً فيرجع خائباً ، أو يوجّه أحداً نحو هدف فيرتد منهزماً ، فأعلن صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كلمة خالدة تتضمّن معان عميقة ومغاز جليلة ، فقال بصوت رفيع يسمعه أكثر المسلمين : ( لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله ، كرّاراً غير فرّار يفتح الله عليه ، جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله ) (1) .

فاشرأبّت الأعناق وامتدّت وتمنّى كلّ واحد أن يكون مصداق ذلك ، حتى أنّ عمر بن الخطاب قال : ما أحببت الإمارة إلاّ يومئذٍ ، وتمنّيت أن أعطى الراية (2) .

فلمّا طلع الفجر ، قام النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فدعا باللواء والناس على مصافّهم ، ثمّ دعا عليّاً عليه‌السلام ، فقيل : يا رسول الله ! هو أرمد ، قال : فأرسلوا له ، فذهب إليه سلمة ابن الأكوع وأخذ بيده يقوده حتى أتى به النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وقد عصّب عينيه ، فوضع النبيّ رأس عليّ في حجره ، ثمّ بلَّ يده من ريقه ومسح بها عيني عليّ فبرأتا حتى كأن لم يكن بهما وجع ، ثمّ دعا النبيّ لعليّ بقوله : اللّهمّ أكفه الحرّ والبرد (3) .

ثمّ ألبسه درعه الحديد وشدَّ ذا الفقار الّذي هو سيفه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في وسطه وأعطاه الراية ووجّهه نحو الحصن ، فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: ( أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثمّ ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله تعالى فيه ، فو الّذي نفسي بيده ، لإن يهدي بهداك ـ أو لغن يهدي الله بهداك ـ رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم ) .

قال سلمة : فخرج والله يهرول هرولةً وإنّا لخلفه نتّبع أثره حتّى ركز رايته في رخم من حجارة تحت الحصن ، فأطلع إليه يهوديّ من رأس الحصن ، فقال : من أنت ؟ قال : (أنا عليّ بن أبي طالب) .

ــــــــــــ

(1) تاريخ الطبري : 2 / 300 ط مؤسسة الأعلمي ، وتأريخ دمشق لابن عساكر : 1 / 166 ترجمة الإمام علي عليه‌السلام ، تذكرة الخواص لابن الجوزي الحنفي : 32 ، والسيرة الحلبية بهامش السيرة النبوية : 3 / 37 .

(2) تذكرة الخواص : 32 .

(3) تأريخ الطبري : 2 / 301 ط مؤسسة الأعلمي ، والكامل لابن الأثير : 2 / 220 ، وفرائد السمطين : 1 / 264 ، حديث 203 .

قال : قال اليهودي لأصحابه : غلبتم ، وما أُنزل على موسى (1) .

ثمّ خرج إليه أهل الحصن ، وكان أوّل من خرج إليه الحارث أخو (مرحب) وكان معروفاً بالشجاعة ، فانكشف المسلمون ووثب عليّ عليه‌السلام ، فتضاربا وتقاتلا فقتله عليّ عليه‌السلام وانهزم اليهود إلى الحصن ، ثمّ خرج مرحب وقد لبس در عين وتقلّد بسيفين واعتمّ بعمامتين ومعه رمح لسانه ثلاثة أسنان .

فاختلف هو وعليّ بضربتين ، فضربه عليٌّ بسيفه فقدّ الحجر الذي كان قد ثقبه ووضعه على رأسه ، وقدّ المغفر ، وشقّ رأسه نصفين حتى وصل السيف إلى أضراسه ، ولمّا أبصر اليهود ما حلّ بفارسهم (مرحب) ؛ ولّوا منهزمين إلى داخل الحصن وأغلقوا بابه .

فصار عليّ عليه‌السلام إليه فعالجه حتى فتحه ، وأكثر الناس من جانب الخندق ـ الّذي حول الحصن ـ لم يعبروا معه عليه‌السلام فأخذ باب الحصن فقلعه وجعله على الخندق جسراً لهم حتى عبروا وظفروا بالحصن ونالوا الغنائم (2) .

وروي : أنّه اجتمع عدّة رجال على أن يحرّكوا الباب فما استطاعوا .

قال ابن عمرو : ما عجبنا من فتح الله خيبر على يدي عليّ عليه‌السلام ولكنّا عجبنا من قلعه الباب ورميه خلفه أربعين ذراعاً ، ولقد تكلّف حمله أربعون رجلاً فما أطاقوه ، فأخبر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بذلك فقال : ( والذي نفسي بيده لقد أعانه عليه أربعون ملكاً ) .

ــــــــــــ

(1) أعيان الشيعة : 1 : 401 .

(2) تأريخ الطبري : 2 / 301 ط مؤسسة الأعلمي ، والإرشاد للمفيد : 114 ، الفصل 31 من باب 2 ، وبحار الأنوار : 21 / 16 .

وروي أنّ أمير المؤمنين عليه‌السلام قال في رسالته إلى سهل بن حنيف : والله ما قلعت باب خيبر ورميت به خلف ظهري أربعين ذراعاً بقوّة جسدية ولا حركة غذائية ، لكنّي أيّدت بقوّة ملكوتية ونفس بنور ربّها مضيئة ، وأنا من أحمد كالضوء من الضوء (1) .

و ـ عليّ عليه‌السلام في فتح مكّة (\*) :

ساد الهدوء والسلم الأجواء المحيطة بقريش والمسلمين ، والتزم رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بكامل بنود الحديبية ، غير أنّ قريشاً كانت تنوي نقض المعاهدة ، وقد تصوّرت أن ضعفاً أصاب المسلمين بعد انسحابهم من معركة (مؤتة) منهزمين ، فأدّى استخفافها بالمسلمين إلى التآمر على أحلاف النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من خزاعة ، فحرّضت بعض أحلافها من بني بكر ، فوقعت بينهما مناوشات فتغلّب بنو بكر بمعونة قريش على خزاعة ، وبهذا فقد نقضت قريش المعاهدة وأعلنت الحرب على المسلمين .

فعزم النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم على محاربة قريش ، وقال كلمته المشهورة : ( لا نصرت إن لم أنصر خزاعة ) وأخذ يستعدّ لذلك وهو يحرص على أن لا يذاع هذا الأمر ، ولكن حاطب بن أبي بلتعة سرّب الخبر ، فأرسل كتاباً إلى قريش مع امرأة يخبرهم بما عزم عليه النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وقبل خروجها من ضواحي المدينة ؛ نزل الوحي على النبيّ وأخبره بذلك ، فأرسل خلفها بالفور عليّاً والزبير ، وأمرهما بأن يجدّا السير في طلبها قبل أن تفلت منهما ، فأدركاها على بعد أميال من المدينة ، فأسرع إليها الزبير وسألها عن الكتاب فأنكرته وبكت فرقّ لها الزبير ، ورجع عنها ليخبر عليّاً ببراءتها وقال له : ارجع لنخبر الرسول بذلك ، فقال عليّ عليه‌السلام : إنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يخبرنا بأنّها تحمل كتاباً وتقول أنت بأنّها لا تحمل شيئاً ، ثمّ شهر عليّ عليه‌السلام سيفه

ــــــــــــ

(1) الأمالي للصدوق : المجلس السابع والسبعون ، الحديث 10 .

(\*) كان فتح مكة في شهر رمضان سنة ثمانٍ من الهجرة النبويّة .

وأقبل عليها حتى استخرج الكتاب منها ، ورجع إلى النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وسلّمه إيّاه (1) .

ولمّا أتمّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الاستعدادات والتجهيزات اللازمة للخروج إلى مكّة ؛ أعطى لواءه إلى عليّ عليه‌السلام ووزّع الرايات على زعماء القبائل ومضى يقطع الطريق باتّجاه مكّة .

ولمّا رأت قريش أنّها لا طاقة لها أمام النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والمسلمين ؛ استسلمت ولم تجد بُدّاً من أن يدخل كلّ فرد منهم داره ليأمن على نفسه انقياداً للأمان الذي أعلنه النبيّ لهم (2) .

وروي : أنّ سعد بن عبادة كان معه راية رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم على الأنصار ولمّا مرَّ على أبي سفيان وهو واقف بمضيق الوادي ( في الطريق إلى مكّة ) قال أبو سفيان : من هذه ؟ قيل له : هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة مع الراية ، فلمّا حاذاه سعد قال : يا أبا سفيان ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحلّ الحرمة ، اليوم أذلّ الله قريشاً ، فلمّا مرَّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بأبي سفيان وحاذاه أبو سفيان ناداه : يا رسول الله ! أمرت بقتل قومك فإنّه زعم سعد ومن معه حين مرّ بنا أنه قاتلنا فإنّه قال : اليوم يوم الملحمة ... أنشدك الله في قومك ، فأنت أبرّ الناس وأرحمهم وأوصلهم .

فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : ( كذب سعد ، اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعزَّ الله فيه قريشاً ، اليوم يعظّم الله فيه الكعبة ، اليوم تكسى فيه الكعبة ) .

وأرسل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى سعد بن عبادة عليّاً عليه‌السلام أن ينزع اللواء منه ، وأن يدخل بها مكّة (3) .

ودخل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مكّة بذلك الجيش الكبير الذي لم تعرف له مكة نظيراً في تأريخها الطويل ، ولواؤه بيد عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام ، وأعلن العفو العامّ وهو على أبواب مكّة .

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 2 / 328 ط مؤسسة الأعلمي ، والسيرة الحلبية بهامشه السيرة النبويّة : 3 / 75 .

(2) تأريخ الطبري : 2 / 332 ، والكامل في التأريخ لابن الأثير : 2 / 243 .

(3) تأريخ الطبري : 2 / 334 ط مؤسسة الأعلمي ، الإرشاد للمفيد : 121 الفصل 34 الباب 2 .

صعود عليّ عليه‌السلام على منكب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لتحطيم الأصنام :

وروي عن عليّ عليه‌السلام أنّه قال : انطلق بي رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى كسر الأصنام ، فقال لي : اجلس ، فجلست إلى جنب الكعبة ، ثمّ صعد الرسول على منكبي فقال لي : انهض بي ، فنهضت به ، فلمّا رأى ضعفي تحته قال : اجلس ، فجلست ونزل عنّي ، وقال : يا عليّ اصعد على منكبي ، فصعدت على منكبيه ، ثمّ نهض بي حتى خيل لي أن لو شئت نلت السماء ، وصعدت على الكعبة .. فألقيت الصنم الأكبر وكان من نحاس موتداً بأوتاد من حديد ، فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : عالجه ، فلم أزل أعالجه ورسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول : إيه إيه ، حتّى قلعته ، فقال : دقّه ، فدققته وكسّرته ونزلت (1) .

ز ـ عليّ عليه‌السلام في غزوة حنين (\*) :

بعد أن كتب الله النصر والفتح لرسوله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حين دخل مكّة واستسلمت قريش وأذعنت له أجمعت قبيلة (هوازن) وقبيلة (ثقيف) على محاربة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والمبادرة إليه قبل أن يغزوهم ، وأعدّ لهم النبيّ العدّة لمّا سمع بذلك ، وعبّأ المسلمين الذين تجاوز عددهم اثني عشر ألفاً وخرج اليهم من مكّة .

ولمّا قربوا من موقع العدوّ صفّهم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ووزّع الألوية والرايات على قادة الجيش وزعماء القبائل ، فأعطى عليّاً لواء المهاجرين (2) ، ولكنّ هوازن أعدّت خطّةً للغدر بالمسلمين على حين غفلة منهم ، فكمنوا لهم في شعاب وادٍ من أودية

ــــــــــــ

(1) المستدرك على الصحيحين : 2 / 367 و 3 / 5 . وروى ابن الجوزي في تذكرة الخواص : 34 مثله ، ينابيع المودة للقندوزي : 254 .

(\*) وقعت غزوة (حنين) في شوال سنة ثمانٍ للهجرة النبويّة .

(2) السيرة الحلبية : 3 / 106 .

تهامة حيث لا مفرّ لهم من المرور فيه .

وحين انحدر المسلمون في وادي (حنين) باغتتهم كتائب هوازن من كلّ ناحية ، وانهزمت بنو سليم وكانوا في مقدّمة جيش المسلمين وانهزم مَنْ وراءهم ، وخلّى الله تعالى بينهم وبين عدوّهم لإعجابهم بكثرتهم ، ولم يثبت مع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلاّ نفر قليل من بني هاشم وأيمن بن عبيد (1) .

ووقف عليّ عليه‌السلام كالمارد يضرب بسيفه عن يمينه وشماله ، فلم يدن أحد من النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ؛ إلاّ جَنْدَلَه بسيفه ، وكان لثبات النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ودفاع عليّ عليه‌السلام ومن معه أن عادت الثقة إلى نفوس بعض المسلمين ، فأعادوا الكَرّة على هوازن . وخرج رجل من هوازن يدعى (أبو جرول) حامل رايتهم وكان شجاعاً ، فتحاماه الناس ولم يثبتوا له ، فبرز إليه عليّ عليه‌السلام وقتله ، فدبَّ الذعر في نفوس المشركين كما دبَّ الحماس في نفوس المسلمين ، ووضع المسلمون سيوفهم في هوازن وأحلافها يقتلون ويأسرون وعليّ عليه‌السلام يتقدّمهم حتى قتل بنفسه أربعين رجلاً من القوم ، فكان النصر للمسلمين (2) .

ح ـ عليّ عليه‌السلام في غزوة تبوك (\*) :

استعدّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لمواجهة الروم حين علم أنّهم يريدون الإغارة والهجوم على الجزيرة ، فأعدّ بما يملك من استراتيجية محكمة العدّة والعدد ، وقرّر ـ لأهمية الموقف والنزال ـ أن يكون على رأس الجيش المتقدّم ، ولكنّ الظروف السياسية والعسكرية لم تكن تدعو للاطمئنان التامّ ونفي الاحتمال من هجوم المنافقين أو المرجفين على المدينة أو قيامهم بأعمال تخريبية أخرى ، لذا يتطلّب الأمر أن يبقى في المدينة من يتمتّع بمؤهّلات ولياقات عالية وحكمة بالغة ودراية تفصيلية في جميع الاُمور وحرص على العقيدة كي يتمكّن من مواجهة الطوارئ ، فاختار النبيّ الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عليّاً لهذه المهمّة الحسّاسة كي يقوم مقام النبيّ في غيابه .

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 2 / 347 ، وأعيان الشيعة للأمين : 1 / 279 .

(2) روضة الكافي : ص 308 رقم الحديث 566 ، والمغازي للواقدي : 2 / 895 ، وكشف الغمّة : 1 / 226 .

(\*) وقعت غزوة (تبوك) في شهر رجب سنة تسعٍ من الهجرة النبويّة .

فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: ( يا عليّ ، إنّ المدينة لا تصلح إلاّ بي أو بك ) .

ولمّا تحرّك النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم باتّجاه (تبوك) ؛ ثقل على أهل النفاق بقاء عليّ عليه‌السلام على رأس السلطة المحليّة في عاصمة الدولة الإسلاميّة ، وعظم عليهم مقامه ، وعلموا أنّها في حراسة أمينة ولا مجال لمطمع فيها ، فساءهم ذلك ، فأخذوا يردّدون في مجالسهم ونواديهم أنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لم يستخلفه إلاّ استثقالاً ومقتاً له ، فبهتوا بهذا الإرجاف عليّاً ، كبهت قريش للنبي بالجِنّة والسِّحر .

فلمّا بلغ عليّاً عليه‌السلام إرجاف المنافقين به أراد تكذيبهم وإظهار فضيحتهم ، فأخذ سيفه وسلاحه ولحق بالنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقال : يا رسول الله ، إنّ المنافقين يزعمون أنّك خلّفتني استثقالاً ومقتاً ، فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: ارجع إلى مكانك فإنّ المدينة لا تصلح إلاّ بي أو بك ، فأنت خليفتي في أهل بيتي ودار هجرتي وقومي ، أما ترضى ـ يا عليّ ـ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي .

فرجع عليّ عليه‌السلام ومضى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في سفره (1) .

تبليغ سورة براءة :

استمرّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يبلّغ رسالته المباركة وينشر الإسلام في ربوع

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 2 / 368 ط مؤسسة الأعلمي ، والإرشاد للمفيد : 138 ، الفصل 43 ، والسيرة الحلبية بهامش السيرة النبوية : 3 / 132 ، وصحيح البخاري : باب غزوة تبوك 6 / 3 ، وصحيح مسلم . كتاب فضائل الصحابة : 5 / 23 الحديث 2404 والترمذي : 2 / 300 . ومسند أحمد : 1 / 185 و 284 الحديث 508 وسنن ابن ماجة : 1 / 42 الحديث 115 وتاريخ بغداد : 1 / 432 رقم 6323 .

الجزيرة العربية ، وفي ذات الوقت يطارد فلول الشرك عسكرياً حتى أشرفت السنة التاسعة للهجرة على نهايتها ، فأصبح للإسلام كيان سياسي مستقلّ وأمة تسودها علاقات متينة وأرض مترامية الأطراف وحدود منيعة ، ولم يعد لقوى الشرك وجود معتبر ، فكان لابدّ من تصفيتهم ، ونزلت على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم سورة (براءة) الّتي تسنّ التشريعات الّتي تحدّد موقفه من المشركين والعهود والأحلاف الّتي كان قد أبرمها معهم . وكان أفضل مكان لإعلان هذا القرار وقراءة هذا البيان الرسمي الإلهي هو البيت الحرام ، وأفضل وقت له هو اليوم العاشر من ذي الحجّة حيث يجتمع المشركون من أطراف الجزيرة ، فأرسل النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أبا بكر ليحجّ بالناس ويبلّغ سورة (براءة) ، ولمّا انتهى إلى (ذي الحليفة ) وهو المكان المعروف اليوم بمسجد الشجرة ، وإذا بالوحي ينزل على النبيّ ويأمره أن يرسل مكانه عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام ، فأرسل النبيّ عليّاً وأمره أن يأخذ الآيات من أبي بكر ويبلّغها بنفسه ، فمضى نحو مكّة وهو على ناقة النبيّ حتى التحق بأبي بكر ، فلمّا سمع رغاء الناقة عرفها فخرج فزعاً وهو يظنّه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وإذا هو عليّ ، فأخذ منه الآيات ورجع أبو بكر إلى المدينة خائفاً أن يكون قد نزل فيه ما يُغضب النبيّ ، فقال : يا رسول الله ! اَنزل فيَّ شيء ؟ فقال النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : لا ، ولكنّي أمرت أن أُبلّغها أنا أو رجل منّي (1) .

وانطلق عليّ عليه‌السلام في طريقه حتى بلغ مكّة ، وعندما اجتمع الناس لأداء مناسكهم ؛ قرأ عليهم الآيات الأولى من السورة ، ونادى في الناس : لا يدخل مكّة مشرك بعد عامه هذا ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدّته (2) .

ــــــــــــ

(1) الكامل في التأريخ لابن الأثير : 2 / 291 ، وفضائل الخمسة من الصحاح الستة : 2 / 343 .

(2) البداية والنهاية لابن كثير : 5 / 45 .

عليّ عليه‌السلام في اليمن :

استمراراً في نشر الإسلام أرسل النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى اليمن خالد بن الوليد وجمعاً من الصحابة ليدعوا قبيلة (همدان) إلى الإسلام ، وظلّ خالد نحواً من ستة أشهر دون أن يحقّق نجاحاً ، فلم يتمكّن من إقناع همدان في اعتناق الإسلام ، فبعث إلى النبيّ يخبره بعدم إجابة القوم له وانصرافهم عنه ، عند ذاك بعث النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام وطلب منه أن يُعيد خالداً إلى المدينة ويحلّ محلّه في مهمّته ، ويبقي معه من يشاء من المجموعة المرسلة مع خالد .

روي عن البراء بن عازب الّذي كان مع خالد وبقي في سريّة عليّ عليه‌السلام : كنت ممّن خرج مع خالد فأقمنا ستة أشهر ندعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا ، ثمّ إنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بعث عليّاً عليه‌السلام وأمره أن يقفل خالداً ويكون مكانه ، فلمّا دنونا من القوم ؛ خرجوا إلينا وصلّى بنا عليّ عليه‌السلام ثمّ صفّنا صفاً واحداً ثمّ تقدّم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بإسلامهم ، فأسلمت همدان جميعاً وأرسل عليّ عليه‌السلام إلى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بالخبر السارّ ، فخرّ رسول الله ساجداً ثمّ رفع رأسه وقال : السلام على همدان (1) .

وروي : أنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أرسل عليّاً في مهمّة ثانية إلى اليمن ليدعو (مذحج) إلى الإسلام ، وكان معه ثلاثمائة فارس ، وعقد رسول الله له اللواء وعمّمه بيده ، وأوصاه أن لا يقاتلهم إلاّ إذا قاتلوه ، فلمّا دخل إلى بلاد مذحج ؛ دعاهم إلى الإسلام فأبوا عليه ورموا المسلمين بالنبل والحجارة ، فأعدّ عليّ عليه‌السلام أصحابه للقتال ، وهجم عليهم فقتل منهم عشرين رجلاً فتفرّقوا وانهزموا فتركهم ، ثمّ دعاهم إلى الإسلام ثانية فأجابوه لذلك ، وبايعه عدد من رؤسائهم ، وقالوا : له نحن على من وراءنا من قومنا وهذه صدقاتنا فخذ منها حقّ الله .

ــــــــــــ

(1) أعيان الشيعة : 1 / 410 ، والكامل في التأريخ لابن الأثير : 2 / 300 ، والسيرة النبوية لابن كثير ك 4 / 201 .

وروي : أنّ عليّاً عليه‌السلام قال : بعثني رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى اليمن ، فقلت : يا رسول الله ، تبعثني إلى قومٍ وأنا حديث السنّ لا أبصر القضاء ، فوضع يده على صدري وقال : اللّهمّ ثبت لسانه واهدِ قلبه ، ثمّ قال : إذا جاءك الخصمان فلا تقضِ بينهما حتى تسمع من الآخر ، فإنّك إذا فعلت ذلك ؛ تبيّن لك القضاء . قال عليّ عليه‌السلام : والله ما شككت في قضاءٍ بين اثنين (1) .

ثمّ إنّ عليّاً جمع الغنائم فأخرج منها الخمس وقسّم الباقي على أصحابه ، وبلغه خبر خروج النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى مكّة لأداء فريضة الحجّ ، فتعجّل عليه‌السلام السير ليلتحق بالنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في مكّة ، وروي أنّ بعض من كان في سريّة عليّ عليه‌السلام اشتكى من شدّته في إعطاء الحقّ ، فلمّا سمع النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ذلك قال : أيّها الناس ، لا تشتكوا عليّاً فو الله إنّه لأخشن في ذات الله من أن يشتكى منه (2) .

وعن عمرو بن شاس الأسلمي أنّه قال : كنت مع عليّ عليه‌السلام في خيله التي بعثه بها رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى اليمن ، فوجدت في نفسي عليه (3) ، فلمّا قدمت المدينة شكوته في مجالس المدينة وعند من لقيته ، فأقبلت يوماً ورسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم جالس في المسجد ، فلمّا رآني أنظر إلى عينيه نظر إليَّ حتى جلست إليه ، فقال : إيه يا عمرو ، لقد آذيتني ، فقلت : إنّا لله وإنّا إليه راجعون أعوذ بالله والإسلام من أن أؤذي رسول الله ، فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : ( من آذى عليّاً فقد آذاني ) (4) .

ــــــــــــ

(1) السيرة النبوية لابن كثير : 4 / 207 .

(2) سيرة ابن هشام : 4 / 603 ، والسيرة النبوية لابن كثير : 4 / 205 مثله .

(3) المستدرك على الصحيحين : 3 / 134 .

(4) السيرة النبوية لابن كثير : 4 / 202 .

طبيعة عمل النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم :

إنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الذي كان يعيش همّ الرسالة الإسلامية بذل قصارى جهده في التبليغ والنصح لبناء مجتمع رسالي رصين يقاوم كلّ الظروف حتى يسود الإسلام بقاع الدنيا ، وقد عمل صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم على محورين رئيسين هما : توعية الأمة بوصفها الرعيّة بالمقدار الذي تتطلبه الرعيّة الواعية من فهم وثقافة وقدرة على ممارسة الحياة الإسلامية كما أرادها الله سبحانه , وكان لعليّ عليه‌السلام دور فاعل في هذا المحور ، فانّه يمكننا القول بأنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كان مشغولاً بتوسيع رقعة المجتمع الإسلامي طولياً ، وكان عليّ عليه‌السلام مشغولاً بتعميق الرقعة عرضياً ، فكانت مهمّته تكملة لمهمّة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم .

والمحور الآخر هو إعداد وتوعية الصفوة التي اختارها الله سبحانه لِتَخْلُفَ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في غيابه لقيادة المجتمع والرسالة الإسلاميّة وصيانتها عن الانحراف والزيغ ، إعداداً على مستوى قيادة التجربة وعلى مستوى الحاكمية عليها ، وقد أعدّ النبيّ عليّاً ليتسلّم التجربة الإسلاميّة من بعده من خلال إشراكه في كلّ المواقف المهمّة والمعقّدة والصعبة ومن خلال تثقيفه ثقافة خاصة لم يشاركه أحد فيها ، فقد روي عنه عليه‌السلام أنه قال : ( علّمني رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من العلم ألف باب يفتح من كلّ باب ألف باب ) (1) .

وكان عليّ عليه‌السلام يتمتّع بمؤهّلات ولياقات عالية أهّلته أن ينال ثقة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم المطلقة في قوله وفعله ، فنجد أنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أخذ عليّاً صغيراً وتعهّده وربّاه ، فلازمه طوال فترة حياته ، وما أن مضت فترة على الدعوة الإسلامية ؛ حتى أعلن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عن اتّخاذه عليّاً عليه‌السلام أخاً ومؤازراً له في دعوته ، وكرّر هذا الإعلان في مواطن عديدة ، بل اتّخاذه أخاً ومساوياً له في كلّ شيء ما عدا النبوّة .

ــــــــــــ

(1) أئمّة أهل البيت تنوّع أدوار ووحدة هدف ، الشهيد السيد محمد باقر الصدر ك 95 .

وحين توضّحت شخصيّة عليّ عليه‌السلام ؛ بدأ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يكلّفه نيابةً عنه في المهمّات التي لا يمكن أن يقوم بها أحد غير النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أو شخص كنفسه ، مثل : المبيت في فراش النبيّ ليلة الهجرة ؛ وردّ الودائع ، وحمل الفواطم إلى المدينة . ومن درجة اهتمام النبيّ بعليّ في هذه المرحلة ؛ أنّه لم يدخل المدينة عند هجرته إليها ، وصرّح بعدم اتّخاذها مقرّاً جديداً له حتى يلتحق عليّ به ، وتبليغ سورة (براءة) مثال آخر فقد أخذ عليّ عليه‌السلام السورة من أبي بكر وبلّغها .

وحين اضطرّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم للمواجهات العسكرية لم يكن يعطي رايته إلاّ لعليّ عليه‌السلام ، وكان يرسله في كلّ المواقف المستعصية التي تتطلّب كفاءة عالية ، فكان عليّ عليه‌السلام يؤدّيها على أتمّ وجه .

وفي مرحلة جديدة بعد أن امتاز عليّ عليه‌السلام من غيره من الصحابة بصدق سريرته وعمق إيمانه وتفانيه من أجل العقيدة والمبدأ أشار النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى أهميّة أهل بيته عليهم‌السلام ووجودهم وعظيم حبّه لهم ، وميّز عليّاً عليه‌السلام ، وقد دعم القرآن الكريم موقف النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بقوله : (قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلّا الْمَوَدّةَ فِي الْقُرْبَى) (1) .

وأشار النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى طهارة عليّ وأهل بيته من الرجس المادي والمعنوي ، ولم يأذن لأحد بالمرور بمسجده على كلّ حال إلاّ لعليّ .

ولم يزل النبيّ يوجّه القاعدة الشعبية للالتفات حول عليّ ، ويأمرهم بحبّه والتعلّق به عند حلول المشاكل أو المستجدات المستعصية ، ووضّح لهم ضرورة فهم شخصية عليّ عليه‌السلام في شدّة إيمانه وقوّته في ذات الله وعمق فهمه للعقيدة الإسلامية وسعة علمه ، فكانت الأحاديث : (أقضاكم عليّ . أعلمكم عليّ . أعدلكم عليّ ) وقد أثبتت الأحداث والوقائع صحّة ذلك .

ــــــــــــ

(1) الشورى (42) : 23 .

وفي آخر منسك من مناسك الإسلام أشرك النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عليّاً في حجّة دون غيره من المسلمين وقد صرّح بذلك ، وقاما معاً بنحر الهدي .

كانت هذه الخطوات إعداداً وتهيئة الأرضية لإعلان الغدير حين وقف النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بعد إتمام مراسم حجّة الوداع ليعلن للملأ أنّه سيغادر الدنيا ويخلف عليّاً كقائد ومرجع للاُمّة بعده ، وأنّ هذا الإعلان والتنصيب صادر عن الله تعالى ، وتمّت بيعة الناس لعليّ عليه‌السلام بإمرة المؤمنين ونزل الوحي الإلهي ببلاغ تمام النعمة وكمال الدين .

عليّ عليه‌السلام في حجّة الوداع :

بشوق غامر وغبطة تملأ القلوب تطلّع المسلمون إلى اللقاء العبادي السياسي الذي لم يشهد التأريخ نظيراً له من قبل عندما تحرّك موكب النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في أواخر شهر ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة باتجاه مكّة ليؤدّي مناسك الحجّ وحيث اللقاء مع الجموع القادمة من أطراف الجزيرة العربية يحدوها هدف واحد وتحت راية واحدة يردّدون شعاراً إلهياً واحداً (1) :

وكان النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قد كتب إلى عليّ عليه‌السلام في اليمن يأمره أن يلتحق به في مكّة ليحجّ معه ، وأسرع عليّ بالخروج من اليمن ومعه الغنائم والحلل التي أصابها من اليمن ، والتقى بالنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وقد أشرف على دخول مكّة ، فاستبشر بلقائه وأخبره بما صنع في اليمن ، ففرح النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بذلك وابتهج وقال له : بِمَ أهللت ؟

ــــــــــــ

(1) يرى بعض المؤرّخين أنّ من خرج مع النبيّ يبلغ تسعين ألفاً ، والبعض الآخر مائة وعشرين ألفاً ، عدا من حجّ من أهالي مكّة وضواحيها واليمن وغيرها . راجع السيرة الحلبية : 3 / 257 ، وكنز العمّال : 11 / 609 .

فقال عليّ عليه‌السلام : يا رسول الله ! إنّك لم تكتب إليّ بإهلالك ولا عرفته فعقدتث نيّتي بنيّتك ، وقلت اللّهمّ إهلالاً كإهلال نبيّك ، وسقت معي من البدن أربعاً وثلاثين ، فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : الله أكبر وأنا قد سقت معي ستاً وستين ، فأنت شريكي في حجّي ومناسكي وهديي ، فأقم على إحرامك وعد إلى جيشك وعجّل به حتى نجتمع بمكّة ، وكان عليّ عليه‌السلام قد سبق الجيش حينما بلغ مشارف مكّة وأَمّر عليهم رجلاً منهم (1) .

وأدى النبيّ مناسك العمرة والحجّ وعلي معه ، وقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : منى كلّها منحر ، فنحر بيده الكريمة ثلاثة وستين ، ونحر عليّ عليه‌السلام سبعة وثلاثين تمام المائة ، ثمّ اجتمع الناس فخطب النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم خطاباً جامعاً وعظ المسلمين فيه ونصحهم (2) .

أتمَّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والمسلمون مناسكهم في منى ، ثمّ رجع إلى مكّة فدخل فيها ، وطاف طواف الوداع ، ثمّ اتّجه إلى المدينة .

عليّ عليه‌السلام في غدير خم أميراً للمؤمنين :

ولمّا انصرف النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم راجعاً إلى المدينة ومعه تلك الحشود الغفيرة من المسلمين ؛ وصل إلى غدير خمّ من الجحفة التي تتشعّبُ فيها طرق أهل المدينة والعراق ومصر ، وذلك في اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة ، نزل إليه الوحي عن الله بقوله : (يَا أَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبّكَ) (3) وأمره أن يقيم عليّاً علماً للناس ويبلّغهم ما نزل فيه من الولاية وفرض الطاعة على كلّ أحد ، وقد ضمن الوحي للنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن يكفيه شرّ الحاقدين والحاسدين من الناس ، وكان أوائل القوم قريباً من الجحفة ، فأمر رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن يردّ من تقدّم منهم ، ويحبس من

ــــــــــــ

(1) الإرشاد للمفيد : 1 / 172 ، والسيرة النبوية لابن كثير : 4 / 205 .

(2) السيرة الحلبية : 3 / 283 ن والسيرة النبوية لابن كثير : 4 / 291 .

(3) المائدة (5) : 67 .

تأخّر عنهم في ذلك المكان الذي لم يكن منزلاً لأحد من قبله ، ولم يكن هو صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ينزل فيه لو لا خطاب الوحي له ، ثمّ وقف صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بين تلك الجموع وقال بصوت يسمعه الجميع : أيّها الناس كأنّي قد دعيت فأجبت ، إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض .. ثمّ قال : إنّ الله مولاي وأنا وليُّ كلّ مؤمن ومؤمنة ، وأخذ بيد عليّ عليه‌السلام وقال : ( من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه ، اللّهم وال من والاه ، وعادِ من عاداه ، وأنصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأَدر الحق معه حيث دار ، أَلا فليبلّغ الشاهد الغائب ) .

ثمّ لم يتفرّقوا حتّى نزل أمين الوحي بقوله : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاَمَ دِيناً) .

فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : (الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ، ورضى الرب برسالتي والولاية لعلّي من بعدي) ثمّ طفق القوم يهنّئون أمير المؤمنين عليه‌السلام وممّن هنّأه في مقدّم الصحابة الشيخان أبو بكر وعمر ، كلٌّ يقول : بخ بخ لك يا ابن أبي طالب ، أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة (1) .

وروي : أنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أمر بنصب خيمة لعليّ عليه‌السلام وأمر المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً ويسلّموا عليه بإمرة المؤمنين ، ففعل ذلك كلّهم حتّى من كان معه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من أزواجه ونساء المسلمين (2) .

ــــــــــــ

(1و2) السيرة الحلبية بهامشه السيرة النبوية : 3 / 274 ، والمناقب لابن المغازلي الشافعي ك 16 ، والفصول المهمّة لابن الصبّاغ المالكي : 40 ، وينابيع المودة للقندوزي : 40 .

وقد ورد حديث الغدير في مصادر كثيرة جدّاً يضاف لما ذكرنا منها : أسباب النزول للنيشابوري ، مطالب السؤول لكمال الدين الشافعي ، تفسير مفاتيح الغيب للرازي ، تفسير المنار لمحمّد عبده ، تفسير ابن شريح ، تذكرة الخواص لابن الجوزي ، مسند الإمام أحمد ، ذخائر العقبى للطبري ، الرياض النضرة لمحبّ الدين الطبري وغيرها من الجوامع الحديثية والتأريخية والتفسيرية ، راجع الغدير للعلامة الأميني.

واقعة الحارث بن النعمان ونزول آية (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ) :

لمّا شاع وانتشر قول النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : ( من كنت مولاه فعليّ مولاه ) فَبلغ الحارث ابن النعمان الفهري ، فأتى النبيّ على ناقته وكان بالأبطح ، فنزل وعقل ناقته وقال للنبيّ وهو في ملأ من الصحابة : يا محمّد ! أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله فقبلنا منك ، ثمّ ذكر سائر أركان الإسلام وقال : ثمّ لم ترض بهذا حتّى مددت بضبعي ابن عمك وفضّلته علينا وقلت : ( من كنت مولاه فعليّ مولاه ) فهذا منك أم من الله ؟

فقال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : ( والله الذي لا إله إلاّ هو ، هو أمر الله ) فولّى الحارث يريد راحلته وهو يقول : اللّهمّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، فما وصل إليها حتى رماه الله بحجر فسقط على هامّته وخرج من دبره ، وأنزل الله تعالى : ( سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ) (1) . (2)

محاولات الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لتثبيت بيعة عليّ عليه‌السلام :

لقد كان رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم على علمٍ تامٍّ بما سيؤول إليه وضع المسلمين من بعده ، لأنّه كان يراقب العلل والأمراض التي ابتلي بها هذا المجتمع ن وكان على يقين بأن أوّل ضربة من بعده ستوجّه إلى الخطّ الرسالي الذي أرسى قواعده هو وعليّ ، وإلى الزعامة التي أشار إليها النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في أن تخلفه في الخطّ الصحيح للدعوة الإسلاميّة ، لانّ هذا يهدّد مصالح الكثير ممّن كانوا يريدون أن يستفيدوا من الإسلام ويتنعّموا بإشباع رغباتهم في ظلاله لا أن يقدّموا جهداً وفائدة للإسلام ، ويتزّعموا هذا الكيان الكبير الذي بناه النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم .

ــــــــــــ

(1) المعارج (70) : 1 .

(2) تفسير المنار : 6 / 464 ، وتذكرة الخواص : ص 31 مع اختلاف في اللفظ ، والفصول المهمّة لابن الصبّاغ : 42 ، أبو اسحاق الثعلبي في تفسيره والحاكم الحسكاني في كتابه دعاة الهداة ، والقرطبي في تفسيره ، والحمويني في فرائد السمطين ، والزرندي الحنفي في معارج الوصول ودرر السمطين ، والسمهودي في جواهر العقدين ، والعماري في تفسيره ، والشربيني القاهري الشافعي في تفسيره ، والمناوي الشافعي في فيض القدير ، والحلبي في السيرة الحلبية والحفني الشافعي في شرح الجامع الصغير ، والزرقاني المالكي في شرح المواهب اللدنية ، والشبلنجي الشافعي في نور الأبصار ، وغيرهم كما تجد تفصيل ذلك في الجزء الأول من موسوعة (الغدير) .

وكان صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يتخوّف من أن تتحول الشريعة الإسلامية إلى شيء آخر غير الذي أنزله الله عليه ، وتكون خاضعة للأهواء والرغبات ، وكمصداق على تخوف النبيّ هو واقعة الحارث بن النعمان الذي جاء يشكّك ويستنكر على النبيّ مواقفه .

فما كان منه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلاّ وأن يعلن موقفه من الاتّجاه الصحيح لخطّ الدعوة الإسلامية عبر مراحل وفترات عديدة ، فكان يكرّر لأصحابه : غن تستخلفوا عليّاً ـ وما أراكم فاعلين ـ تجدوه هادياً مهدياً يحملكم على المحجّة البيضاء (1) .

وروي أنّ سعد بن عبادة قال في ملأ من الناس : فو الله لقد سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول : إذا أنا متُّ تضلّ الأهواء بعدي ويرجع الناس على أعقابهم ، فالحقّ يومئذٍ مع عليّ عليه‌السلام .

وحديث الثقلين شاهد آخر على ضرورة التمسّك بطاعة عليّ عليه‌السلام والسير على هَدْيه ومنهاج ولايته لضمان سلامة العقيدة الإسلامية وتحصينها من الانحراف .

ثمّ بدأ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بإعداد خطّة جديدة لإتمام الأمر الإلهي بتنصيب عليٍّ أميراً للمؤمنين ، فحاول أن يعدّ جيشاً كبيراً يضمّ فيه كلّ العناصر التي من الممكن أن تدخل في حلبة الصراع السياسي مع الإمام عليّ عليه‌السلام وتناوئه على زعامة الساحة الإسلاميّة ، ومن ثَمّ سينحرف مسار الرسالة الإسلامية عن طريقها القويم ، أو على الأقل أنّها تطالب بمكانة سياسية أو إدارية في جهاز الدولة ، وقد تظهر موقفاً معادياً في حالة رفض الإمام عليّ عليه‌السلام ذلك ، ممّا قد يثير الكثير من المشاكل للأمة وهي في حالة ارتباك بفقده صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم .

ــــــــــــ

(1) حلية الأولياء لأبي نعيم : 1 / 64 ، ومختصراً تأريخ دمشق لابن عساكر : 18 / 32 .

مرض النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وسريّة أسامة :

حياة عليّ عليه‌السلام هي حياة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والرسالة الإسلامية ، فالمواقف المهمّة والصعبة في الكثير من الصراعات والأزمات والمنعطفات التي وقف فيها عليّ بكلّ بسالة وشجاعة مع رسول الله حتى آخر لحظات عمره الشريف تكشف عن مدى القرب والاتصال والتلاحم المصيري بين الرسول وعليّ ، وتفهّمنا جيّداً من خلال الآيات والروايات وحوادث التأريخ أنّ عليّاً هو الامتداد الطبيعي لرسول الإسلام صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وهو المؤهّل لقيادة الأمة الإسلامية بعد الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وليس ثمة إنسان آخر .

لقد أودع النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عليّاً عليه‌السلام أسرار النبوّة وتفاصيل الرسالة وحمّله عبء مسؤولية رعايتها وصيانتها ، حتى أنّه أوكل إليه أمر تجهيزه ودفنه دون غيره ، لعلمه وثقته بأنّ عليّاً عليه‌السلام سينفّذ أوامره ولا يحيد عنها قيد أنملة ولا يتردّد طرفة عين ، ولم يكن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يطمئنّ لغيره هذا الاطمئنان .

وكان النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يُصرّ على تبيان خلافة عليّ عليه‌السلام وأنّه الوصيّ من بعده حتى في آخر لحظات حياته المباركة مضافاً إلى كلّ التصريحات والتلميحات التي أبداها في شتى المناسبات ومختلف المواقف .

لمّا رجع النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من حجّه إلى (يثرب) ، أقام فيها أيّاماً حتى اعتلّت صحّته واشتدّ به ألم المرض ، وكان صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول : ( ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان انقطاع أبهري من ذلك السمّ ) (1) وتقاطر المسلمون عليه يعودونه وفي نفوسهم القلق والأسى وفي أذهانهم الحيرة والتساؤل عن مصير الأيّام الآتية والرسالة السماوية ، فنعى صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إليهم نفسه وأوصاهم بما يضمن لهم استمرار مسيرة الرّسالة وتحقيق السعادة والنجاح ، فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : (أيها الناس ! يوشك أن أُقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي وقدّمت إليكم القول معذرة إليكم ألا إنّي مخلّف فيكم كتاب الله عزّ وجلّ وعترتي أهل بيتي) ثمّ أخذ بيد عليّ عليه‌السلام وقال : (هذا عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض) .

ــــــــــــ

(1) المستدرك على الصحيحين : 3 / 58 .

وأراد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن يتمّم مساعيه لكي يهيئ الأمور لتنصيب عليٍّ خليفةً من بعده من دون أن تؤثّر عليه قوى التنافس أو مؤامرات المغرضين ودسائس المنحرفين ، فقد أجمع المؤرّخون على أنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في الأيّام الأخيرة من حياته المباركة لم يكن يعنيه شيء أكثر من تجهيز جيش يضمّ أكبر عدد من المسلمين بما في ذلك أبو بكر وعمر ووجوه المهاجرين والأنصار ، وأمّر عليهم أسامة بن زيد وإرساله إلى الحدود الشمالية لمنطقة الجزيرة العربية واستثنى عليّاً عليه‌السلام .

ولكنّ عدداً من الصحابة لم يَرُقْ لهم أمر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فتثاقلوا عن الخروج في جيش أسامة واعتذروا بأعذار واهية ، وانطلقت ألسنتهم بالنقد اللاذع والاعتراض المرّ على تأمير أسامة ، فخرج صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ـ رغم كلّ الآلام ـ وخطب فيهم وحثّهم على الانضواء تحت قيادة أسامة ، وقد بدا عليه الانفعال والتصلّب ، واستمرّ يلحّ على إنفاذ الجيش والخروج نحو هدفه ، وقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : أنفذوا جيش أسامة ، لعن الله من تخلّف عن جيش أسامة (1) .

ونجد هنا غرابةً في الموقف ، وهي إلحاح الرسول على ضرورة مسير جيش أسامة إلى الوجهة التي وجّهها إيّاه على الرغم من مرضه وعلمه بدنوّ أجله ، فلو كان لأحد ممّن كان تحت إمرة أسامة أهميّة في حالة وفاة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ؛ لاستثناه .

ــــــــــــ

(1) السيرة الحلبية : 3 / 34 .

وأعجب من ذلك هو تلكّؤ القوم وتملّصهم عن تنفيذ أمر النبيّ ، فكأن هناك أمراً خفياً يريدون إبرامه (1) .

ويبدو أنّ الرسول استشفّ من التحركات التي صدرت من الصحابة أنّهم يبغون لأهل بيته الغوائل ويتربّصون بهم الدوائر ، وأنّهم مجمعون على صرف الخلافة عنهم ، فرأى صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن يصون أمته عن الانحراف ويحميها من الفتن ، فأراد أن يحاول معهم محاولة جديدة لتثبيت ولاية عليّ عليه‌السلام وخلافته له صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقال : ( إئتوني بالكتف والدواة أكتب إليكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً ) .

فتنازعوا ـ ولا ينبغي عند نبيّ أن يتنازع ـ فقالوا : ما شأنه ؟ أَهَجَر ؟ استفهموه . فذهبوا يردّدون عليه القول : فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : دعوني فالذي أنا فيه خير ممّا تدعوني إليه . وأوصاهم بثلاث ، قال : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت اُجيزهم . وسكت عن الثالثة عمداً أو قال : فنسيتها (2) .

رأي :

دوّن أكثر المؤرّخين هذا الحديث في كتبهم على هذا النحو ، ولم يذكروا من وصاياه إلاّ وصيّتين وسكتوا عن الثالثة أو تناسوها مجاراةً للحاكمين الّذين تقمّصوا الخلافة بعد الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، في حين أنّه لم يسبق لأحد من الرواة لأحاديثه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن نسي شيئاً أو فاته دون أن يدوّنه حتى يمكن القول بأنّهم

ــــــــــــ

(1) وممّا يؤكّد هذا الظنّ أنّ الصحابة الذين أبوا الخروج في جيش أسامة كانوا يخشون تكرار الموقف الذي حصل في غزوة تبوك عندما استخلف النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عليّاً في المدينة ومن ثمّ تصريحه (أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي) ممّا أثار الريب والحسد في نفوسهم .

بل إنّهم أدركوا أنّ الأمر في هذه المرّة يحمل أبعاداً أخرى تتعدّى مسألة الخروج مع جيش أسامة ، خاصةً بعد أن رأوا الرسول يصرّ على خروجهم ويستثني عليّاً ، وعلامات المرض تشتد عليه ، وفي هذه الفترة كان صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يكرّر عليهم بأنّي أوشك أن أُدعى فأجيب .

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد : 4 / 60 ، وتأريخ الطبري : 2 / 436 ط مؤسسة الأعلمي ، والكامل في التأريخ لابن الأثير : 2 / 320 ، والإرشاد للمفيد : 1 / 184 .

أحصوا حتى أنفاسه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فكيف نسي الحاضرون على كثرتهم وازدحامهم عنده وصيّته الثالثة وهو في حالة الوداع لهم ؟ وهم ينتظرون كلّ كلمة تصدر منه تهدّئ من روعهم وتبعث الأمل في نفوسهم نحو المستقبل ؟ ولولا أنّ الثالثة تأكيد لنصوصه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم السابقة على خلافة عليّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ؛ لم ينسها أو لم يتغافل عنها أحد من الرواة أولئك (1) !

عليّ عليه‌السلام مع النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في اللحظات الأخيرة:

اشتدّ المرض على النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فأغمي عليه ، فلمّا أفاق قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : (أُدعوا لي أخي وصاحبي) وعاوده الضعف فقالت عائشة : لو بعثت إلى أبي بكر ، وقالت حفصة : لو بعثت إلى عمر ، فاجتمعوا عنده جميعاً فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : (انصرفوا فإن تك لي حاجة أبعث إليكم) (2) .

ثمّ دُعي عليّ عليه‌السلام فلمّا دنا منه أومأ إليه ، فأكبَّ عليه ، فناجاه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم طويلاً ، ثمّ ثقل النبيّ وحضره الموت ، فلمّا قارب خروج نفسه قال لعليّ عليه‌السلام : ( ضع رأسي في حجرك ، فقد جاء أمر الله تعالى ، فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك ، وامسح بها وجهك ، ثمّ وجّهني إلى القبلة وتولّ أمري وصلِّ عليَّ أوّل الناس ، ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي ، واستعن بالله تعالى ) (3) .

وهكذا انتقل الرسول الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى جوار ربّه راضياً مرضيّاً بعد أن أدّى رسالته بأحسن وجه ، وأوضح السبيل للأمة من بعده . وعلي بن أبي طالب عليه‌السلام يلازمه ملازمته الظل لذي الظل ويتابعه متابعة التلميذ لأستاذه في جميع لحظات حياته الرسالية المباركة .

ــــــــــــ

(1) سيرة الأئمة الإثني عشر ، للحسني : 1 / 255 .

(2) تأريخ الطبري : 2 / 439 ط مؤسسة الأعلمي .

(3) الإرشاد للمفيد : 1 / 186 .

الباب الثالث : فيه فصول :

الفصل الأوّل : عصر الإمام عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام

الفصل الثاني : الإمام عليّ عليه‌السلام في عهد أبي بكر

الفصل الثالث : الإمام عليّ عليه‌السلام في عهد عمر

الفصل الرابع : الإمام عليّ عليه‌السلام في عهد عثمان

الفصل الأوّل: عصر الإمام عليّ عليه‌السلام

حديث الوفاة :

لم يكن حول النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في اللحظات الأخيرة من حياته سوى عليّ عليه‌السلام وبني هاشم ، وقد علم الناس بوفاته من الضجيج وعويل النساء ، فأسرعوا وتجمّعوا في المسجد وخارجه وهم في حالة من الارتباك والدهشة لا يحيرون جواباً إلاّ البكاء والنواح ، وهم على هذه الحالة وإذا بموقف غريب يصدر من عمر إذ خرج بعد أن دخل على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والسيف في يده يهزّه ويقول : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله قد مات ، إنّه والله ما مات ولكنّه قد ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران (1) . ولم يهدأ عمر حتى وصل أبي بكر (2) إلى بيت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فكشف عن وجه النبيّ وخرج مسرعاً ، وقال : أيّها الناس ، من كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت ، ثمّ تلا الآية : (وَمَا مُحمّدٌ إِلّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرّسُلُ ... ) (3) .

ثمّ خرج عمر وأبو بكر وأبو عبيدة الجرّاح من البيت الذي فيه جثمان النبي المبارك وتركوه إلى عليّ وأهل بيته المفجوعين بوفاته ، وقد أذهلهم المصاب عن كلّ شيء ن وقام عليّ عليه‌السلام وأهل بيته عليهم‌السلام بتجهيز النبيّ والصلاة عليه ودفنه ، وفي الوقت نفسه كانت قد عقدت الأنصار اجتماعاً لها في سقيفة بني ساعدة لتدبير أمر الخلافة .

ــــــــــــ

(1) الكامل في التأريخ : 2 / 323 .

(2) يروى أنّ أبا بكر كان في (السنح) وهو محل يبعد عن المدينة بميل واحد أو أكثر قليلاً .

(3) آل عمران (3) : 144 .

الحزب القرشي والأنصار في السقيفة :

ما أن سمع عمر خبر اجتماع الأنصار في السقيفة ؛ حتى أتى منزل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وفيه أبو بكر ، فأرسل إليه أن أُخرج إليَّ ، فأجابه بأنّه مشغول ، فأرسل إليه عمر ثانيةً أن أُخرج فقد حدث أمر لا بدّ أن تحضره .

فخرج إليه أبو بكر ، فمضيا مسرعين نحو السقيفة ومعهما أبو عبيدة ومن ثَمّ لحقهم آخرون ، فأدركوا الأنصار في ندوتهم ولمّا يتمّ بعدُ الاجتماع ولم ينفضّ أصحابه ، فتغيّر لون سعد بن عبادة وأُسقط ما في أيدي الأنصار وساد عليهم الوجوم والذهول ، ونفذ الثلاثة في تجمّع الأنصار أتمّ نفوذ وأتقنه ، ينمّ عن معرفتهم بالنفوس ونوازعها ورغباتها ومعرفتهم بنقاط الضعف التي من خلالها تسقط ورقة الأنصار .

أراد عمر أن يتكلّم فنهره أبو بكر لعلمه بشدّته وغلظته والموقف خطير وملبّد بالأحقاد والأضغان ، ويجب أن يستعمل فيه البراعة السياسية والكلمات الناعمة لكسب الموقف أوّلاً ثمّ يأتي دور الشدّة والغلظة .

وافتتح أبو بكر الحديث بأسلوب لبق فخاطب الأنصار باللطف ، ولم يستعمل في خطابه أيّ كلمة مثيرة فقد قال : نحن المهاجرون أوّل الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأمسّهم برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم رحماً ، وأنتم إخواننا في الإسلام ، وشركاؤنا في الدين ، نصرتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا نفتات عليكم بمشورة ، ولا نقضي دونكم الأمور ، فقال الحباب بن المنذر بن الجموح : يا معشر الأنصار ! املكوا عليكم أمركم ، فإنّ الناس في ظلكم ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ، ولا يصدر أحد إلاّ عن رأيكم ، أنتم أهل العزّة والمنعة ، وأولو العدد والكثرة ، وذوو البأس والنجدة ، وإنّما ينظر الناس ما تصنعون فلا تختلفوا فتفسد عليكم أموركم ، فإن أبى هؤلاء إلاّ ما سمعتم فمنّا أمير ومنهم أمير ، فقال عمر : هيهات لا يجتمع سيفان في غمد ، والله لا ترضى العرب أن تؤمّركم ونبيّها من غيركم ، ولا تمتنع العرب أن تولّي أمرها من كانت النبوّة منهم ، فمن ينازعنا سلطان محمّد ونحن أولياؤه وعشيرته .

فقال الحباب بن المنذر : يا معشر الأنصار ! املكوا أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم ؛ فاجلوهم من هذه البلاد ، وأنتم أحقّ بهذا الأمر منهم ، فإنّه بأسيافكم دانَ الناس بهذا الدين ، أنا جذيلها المحكك وعُذيقها المرجَّب ، أنا أبو شبل في عرينة الأسد ، والله إن شئتم لنعيدها جذعة .

وهنا تأزّم الموقف وكاد أن يقع الشرّ بين الطرفين ، فوقف أبو عبيدة بن الجرّاح ليحول دون ذلك ويتدارك الفشل ، فقال بصوت هادئ مخاطباً الأنصار : يا معشر الأنصار ! أنتم أوّل من نصر وآوى ، فلا تكونوا أوّل من بدّل ، وانسلت كلماته هادئةً إلى النفوس ، فسادَ الصمت لحظات على الجميع ، فاغتنمها بشير بن سعد لصالح المهاجرين هذه المرّة ، يدفعه لذلك حَسده لسعد بن عبادة فقال : يا معشر الأنصار ! ألا إنّ محمّداً من قريش وقومه أولى به ، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر .

فاغتنم المهاجرون الثلاثة هذه الثغرة في جبهة الأنصار ، فطفقوا يقدّم بعضهم بعضاً ، فبدا أنّهم لم يروا أنّ واحداً منهم يدعمه نصّ شرعيّ أو يختص بميزة ترفع من رصيده مقابل غيره فتؤهّله للخلافة .

فقال أبو بكر : هذا عمر وأبو عبيدة بايِعوا أيّهما شئتم (1) ، وقال عمر:

ــــــــــــ

(1) الإمامة والسياسة : 1 / 15 ، وتأريخ الطبري : 2 / 458 ط مؤسسة الأعلمي ، والكامل في التأريخ : 2 / 325 .

يا أبا عبيدة، ابسط يدك أبايعك ، فأنت أمين هذه الأمة (1) ، فقال أبو بكر : يا عمر ! ابسط يدك نبايع لك ، فقال عمر : أنت أفضل منّي ، قال أبو بكر : أنت أقوى منّي ، قال عمر : قوّتي لك مع فضلك ابسط يدك أبايعك (2) . فلمّا بسط يده ليبايعاه سبقهما بشير بن سعد فبايعه ، فناداه الحباب بن المنذر : يا بشير ! عَقَّتك عقاق، أنفِستَ على ابن عمّك الإمارة ؟

ولمّا رأت الأوس ما صنع بشير وما تطلب الخزرج من تأمير سعد ؛ قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن خضير وكان نقيباً : والله لئن وليتها الخزرج مرّة ؛ لا زالت عليكم بذلك الفضيلة أبداً ، فقوموا فبايعوا أبا بكر ، فانكسر على سعد والخزرج ما أجمعوا عليه ، وأقبل أصحاب أسيد يبايعون أبا بكر (3) ، وقالت بعض الأنصار : لا نبايع إلاّ عليّاً (4) .

ثم أقبل أبو بكر والجماعة التي تحيط به يزفّونه إلى المسجد زفاف العروس (5) والنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لازال ملقىً على فراش الموت ، وعمر يهرول بين يديه وقد نبر حتى أزبد شدقاه وجماعته تحوطه وهم متّزرون بالأُزر الصنعانية ، لا يمرّون بأحد إلاّ خبطوه وقدّموه ، فمدّوا يده فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه شاء ذلك أو أبى (6) .

لقد كانت حجّة الحزب القرشي في السقيفة ضد الأنصار مبنيّة على أمرين :

1 ـ إنّ المهاجرين أوّل الناس إسلاماً .

2 ـ إنّهم أقرب الناس إلى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وأمسّهم به رحماً .

ــــــــــــ

(1) الطبقات الكبرى : 3 / 181 .

(2) تأريخ الخلفاء للسيوطي : 70 .

(3) الكامل في التأريخ : 2 / 330 .

(4) تأريخ الطبري : 2 / 443 ط مؤسسة الأعلمي .

(5) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : 6 / 8 .

(6) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : 1 / 219 . ط دار إحياء الكتب العربية .

وقد أدان هؤلاء القادة أنفسهم بهذه الحجّة ، وذلك لأنّ الخلافة إذا كانت بالسبق إلى الإسلام والقرابة القريبة من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ـ كما يدّعون ـ فهي لعليّ عليه‌السلام وحده ، لأنّه أوّل الناس إسلاماً وإيماناً وتصديقاً بالرسالة الإسلامية ، وأخوه بمقتضى المؤاخاة التي عقدها النبيّ بينه وبين عليّ يوم آخى بين المهاجرين في مكّة ، وبينهم وبين الأنصار في المدينة ، وابن عمّه نسباً وأقرب الناس إلى نفسه وقلبه بلا شكّ في ذلك .

تحليل اجتماع السقيفة :

سارع الأنصار إلى سقيفة بني ساعدة ، وعقدوا لهم اجتماعاً سرّياً أحاطوه بكثير من الكتمان والتحفّظ ، وأحضروا معهم شيخ الخزرج سعد بن عبادة الذي كان مريضاً ، فقال لبعض بنيه : إنّه لا يستطيع أن يسمع المجتمعون صوته لمرضه ، وأمره أن يتلقّى منه قوله ويردّده على مسامع الناس ، فكان سعد يتكلّم ويستمع إليه ابنه ، ويرفع صوته بعد ذلك ، قال سعد مخاطباً الحاضرين :

إنّ لكم سابقةً إلى الدين وفضيلةً في الإسلام ليست لقبيلة من العرب ، إنّ رسول الله لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأوثان ، فما آمن من قومه إلاّ قليل ، حتى أراد بكم خير الفضيلة ، وساق إليكم الكرامة ، وخصّكم بدينه ، فكنتم أشد الناس على من تخلّف عنه ، وأثقلهم على عدوّه من غيركم ، ثمّ توفّاه الله وهو عنكم راضٍ . فشدّوا أيديكم بهذا الأمر فإنّكم أحقّ الناس وأولاهم .

لكنّ المتتّبع للأحداث يلمح أنّ اجتماع الأنصار لم يكن في بداية أمره للاستئثار بتراث النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم واغتصاب الخلافة من أهلها الشرعيّين ، وذلك من خلال ملاحظة ما يلي :

1 ـ عدم حضور خيار الأنصار وهم البدريّون في الاجتماع ، مثلُ : أبي أيوب الأنصاري ، حذيفة بن اليمان ، البراء بن عازب ، عبادة بن الصامت .

2 ـ إنّ الأنصار كانوا يعلمون جيّداً النصوص النبويّة ويحفظونها ، ومنها : (إنّ الأئمة من قريش) ، وعرفوا جيّداً الأحكام الواردة في شأن العترة الطاهرة وشهدوا تنصيب عليّ عليه‌السلام في غدير خم ، وأوصاهم النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بعليّ وأهل بيته عليهم‌السلام ، وحين أدركوا أنّه ليس له دور رئيس في الحكم أخذوا يقولون : لا نبايع إلاّ عليّاً (1) .

3 ـ ثمّ إنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لا زال مسجّىً ولم يُدفن بعدُ ، فهل يعقل أن لا يشارك خيارهم في شرف حضور مراسم الدفن وينشغلوا في اجتماع انتخاب الخليفة ؟

4 ـ من الممكن تفسير اجتماعهم هذا بأنّه لتقرير مصيرهم من الحكم الجديد بعد علمهم بما تخطّط له قريش من تطبيق قرارهم (لا تجتمع النبوّة والخلافة في بني هاشم) ، وهم ليست لهم دوافع كالتي كانت في نفوس زعماء قريش ، ثمّ إنّ تخوّفهم هذا له سوابق فبعد فتح مكّة ؛ خشيت الأنصار أن لا يعود معهم النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وكان طبيعيّاً أن يتخوفوا من العزلة السياسية والإداريّة .

وإذا قرّرت قريش صرف الخلافة عن صاحبها الشرعيّ، وهو عليّ عليه‌السلام ؛ فما دور الأنصار وهم الثقل الأكبر في جمهور المسلمين ، ولهم الدور الفاعل والرئيس في نشر الرسالة الإسلاميّة ؟!

إنّ اجتماع الأنصار في السقيفة لم يكن حاسماً في قراراته ، فقد عُقد لدراسة الاحتمالات المتوقّعة للخلافة بعد الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وأيضاً لم يكن جميع الأنصار على رأي واحد ، فقد كانت تختفي في أفق الاجتماع نوايا متنافرة وتنطوي النفوس على رغبات متضادّة ، فنجد بعضهم يجيب سعداً قائلاً : وفّقت في الرأي وأصبت في القول ، ولن نعدو ما رأيت ، نولّيك هذا الأمر .

ثمّ ترادّوا في الكلام فقالوا : فإن أبى المهاجرون وقالوا نحن أولياؤه وعشيرته .

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 2 / 443 ط مؤسسة الأعلمي .

وهنا انبرى آخرون فقالوا : نقول : منّا أمير ومنكم أمير ، فعلّق سعد على هذا الاقتراح قائلاً : فهذا أوّل الوهن (1) .

إنّ الأنصار بموقفهم هذا قد هيَّئوا فرصة سياسية ثمينة ما كانت لتفوت الجناح المترقّب للفوز بالسلطة ، وفتحوا باب الصراع على مصراعيه بعيداً عن القيم والأحكام الإسلامية ؛ إذ قدّمت فيه الحسابات القبلية على الحسابات الشرعية ، وتقدّمت فيه مصلحة القبيلة على مصلحة الرّسالة الإسلامية .

وقد اعتذر عمر من مباغتة الأنصار في السقيفة فقال : وإنّا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من مبايعة أبي بكر ، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة ، فإمّا أن نتابعهم على ما لا نرضى أو نخالفهم فيكون الفساد ... (2) .

وهكذا أخذ الموقف السياسي يزداد تعقيداً وإعضالاً .

نظرة قريش للخلافة :

حين انطلقت الرسالة الإسلامية في مكّة وبين ظهراني قريش ؛ لم تتمكّن قريش من تحمّل ظهور نبيّ في بطنٍ من خيار بطونها ، بل أفضلها وهي بنو هاشم ، فاجتمعت كلمة قريش على محاربة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وبني هاشم بكلّ وسائل الحرب ومقاومتهم بشتّى فنون المقاومة وخطّطت للتآمر لا حُبّاً بالأصنام وما هم عليه من العبادة ولا كراهية للدعوة الجديدة ، فليس في الإسلام ما لا ترتضيه الفطرة السليمة (3) ، لكن قريشاً لا تريد أن تغيّر صيغتها السياسية القائمة على اقتسام مناصب الشرف والسيادة ، وخصوصاً أنّ مجتمع الجزيرة كانت تحكمه النزعة القبلية .

ــــــــــــ

(1) تاريخ الطبري : 2 / 444 ط مؤسسة الأعلمي حوادث سنة 11 هـ .

(2) صحيح البخاري : كتاب المحاربين 6 ح 6442 ، وسيرة ابن هشام : 4 / 308 ، وتأريخ الطبري : 2 / 447 ط مؤسسة الأعلمي .

(3) يروى أنّ كثيراً من زعماء قريش كانوا يجاهرون بالعداء للدين ولكنّهم يذهبون خلسةً لاستماع القرآن .

من هنا لم تكن قريش تريد أن يتميّز البطن الهاشمي عن بقيّة بطونها ولا أن يتفوّق عليها ، وقد تصوّرت أنّ التفاف الهاشميّين حول النبوّة ودفاعهم المستميت عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم هو إصرار هاشمي على التميّز والرغبة بالتفوّق على الجميع ، فحاصرت قريش الهاشميّين في شِعب أبي طالب ، وتآمرت على قتل النبيّ ، وفشل الحصار وفشلت كلّ محاولات الاغتيال لشخص النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وعلا طوفان الرسالة الإسلامية على كلّ القوى المناوئة ، وأسلمت قريش طوعاً أو كرهاً ، فلم تعد لقريش قدرة على الوقوف في وجه النبوّة .

ولكنّ إعداد النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم العدّة لتكون الخلافة من بعده لعليّ ولذرّيّته عليهم‌السلام بأمر من الله تعالى وباعتبارهم . أجدر وأعلم بأصول الشريعة وأحكامها ، وأنّهم الأفضل من كلّ أتباعه ، والأنسب لقيادة الأمة ، قد أثار هذا المنطق في نفوس قريش النزعة القبلية والحقد الجاهلي فعزمت أن لا تجمع النبوّة والخلافة في بني هاشم ، فالنبوة والخلافة في عرف قريش سلطان وحكم كما صرّح بذلك أبو سفيان يوم فتح مكّة بقوله للعباس : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً (1).

هذه الفكرة والعقلية سادت في الأجواء السياسية المحمومة في آخر أيّام النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وقريش مدركة أنّ النبيّ ميّت لا محالة في مرضه هذا ، وقد أخبرهم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بذلك ، وأيضاً لو تركت الأمور على مجراها الطبيعي فالخلافة ستئول إلى عليّ عليه‌السلام حتماً . من هنا كان تحرّك الحزب المناوئ لبني هاشم بصورة عامّة ولعليّ عليه‌السلام خاصّة ، فكانت السقيفة .

ونجد فكرة عدم اجتماع النبوّة والخلافة في بني هاشم من خلال المحاورة

ــــــــــــ

(1) شرح نهج البلاغة : 17 / 272 .

بين عمر وابن عباس في زمن خلافة عمر ، حين قال له عمر : يا ابن عباس ! أتدري ما منع قومكم منكم بعد محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ؟ قال ابن عباس : فكرهت أن أجيبه فقلت : إن لم أكن أدري فإنّ أمير المؤمنين يدري ، فقال عمر : كرهوا أن يجمعوا لكم النبوّة والخلافة فتجحفوا على قومكم ، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفّقت (1) .

وثمّة أمر آخر يتعلّق بموضوع تحويل الخلافة عن عليّ عليه‌السلام وهو أنّ عليّاً عليه‌السلام قد وتر قريشاً في حروبها ضد الإسلام وإنّ كلّ دم أراقه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بسيف عليّ عليه‌السلام وسيف غيره فإنّ العرب بعد وفاته صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عصبت تلك الدماء بعليّ وحده ، لأنّه لم يكن في رهط النبيّ مَن يستحق في شرع قريش وعاداتهم أن يعصب به تلك الدماء إلاّ عليّ وحده (2) .

ملامح التخطيط لإقصاء الإمام عليّ عليه‌السلام عن الخلافة :

نلاحظ أنّ هناك تخطيطاً محكماً لدى الخطّ المناوئ لعليّ عليه‌السلام لأخذ الخلافة منه من خلال ما يلي:

1 ـ بقاؤهم في المدينة ومحاولتهم عدم الخروج منها مهما يكن من أمر ، وذلك عندما عرفوا أنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قد تدهورت صحّته، كما لاحظوا بأنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في تلك الأيام كان يكثر من التوصية بعليّ عليه‌السلام وضرورة اتّباعه لسلامة الدين والدولة.

2 ـ حضورهم الدائم قرب الرسول ومحاولتهم الحيلولة دون حصول شيء يدعم ولاية عليّ عليه‌السلام ، فكان الشغب في مجلس النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم تحت الشعار الذي رفعه عمر : ( حسبنا كتاب الله ) ثمّ اتهام النبيّ المعصوم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بغلبة الوجع ممّا أزعج النبيّ ، حيث إنّ قول النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : ( إئتوني بدواة وكيف ) من غير المعقول أن يثير النفور والشكّ في نفوس الجميع دون سابق مضمر في نفوس البعض ، فلم يكن داعٍ لاعتراضهم إلاّ إثارة الشغب ومنع النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عن الكتابة .

ــــــــــــ

(1) مروج الذهب : 2 / 253 ، وشرح النهج لابن أبي الحديد : 1 / 189 ط دار إحياء التراث العربي ، الكامل في التأريخ : 3 / 63 و 64 .

(2) نهج البلاغة لابن أبي الحديد : 3 / 283 .

3 ـ السرعة في البتّ بموضوع الخلافة وإتمام البيعة عبر استغلالهم الفرصة بانشغال الإمام علي عليه‌السلام وبني هاشم بمراسم تجهيز النبيّ ودفنه ، فحين علم عمر بنبأ الاجتماع في السقيفة ؛ أرسل إلى أبي بكر حين دخل إلى بيت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن اُخرج فقد حدث أمر لابدّ أن تحضره ، ولم يوضّح ذلك خشية أن يطّلع عليه عليّ أو أحد من بني هاشم ، وإلاّ لماذا ؟ فهل كان هذا الأمر المهمّ يعني أبا بكر دون بقيّة المسلمين وفيهم من هو أحرص على الإسلام من أبي بكر وعمر ؟ ولماذا لم يدخل عمر بنفسه إلى داخل دار النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حيث يجتمع الناس فيتحدّث إليهم ؟ يدخل عمر بنفسه إلى داخل دار النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حيث يجتمع الناس فيتحدّث إليهم ؟

4 ـ سعيهم لضمان حياد الأنصار وإبعادهم عن ميدان التنافس السياسي بدعوى أنّهم ليسوا عشيرة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم .

5 ـ الترتيب في أخذ البيعة أوّلاً من الأنصار ، لأنّ قريشاً لو بايعت الخليفة الجديد ؛ لما كان لبيعتها أدنى قيمة واقعية ، ولأمكن الإمام فيما بعد أن يقيم الحجّة على قريش ، ولا يمكن لأيّ فرد أن يقف في موقع الندّ لعليّ عليه‌السلام إذا كانت الأنصار في كفّة الإمام .

ويمكن ملاحظة ذلك من طريقة أخذ البيعة بعد الخروج من السقيفة ، إذ كان الناس مجتمعين في المسجد فقال عمر : ما لي أراكم مجتمعين حلقاً شتّى ؟! قوموا فبايعوا أبا بكر فقد بايعته الأنصار ، فقام عثمان ومن معه من بني أمية فبايعوا ، وقام سعد وعبد الرحمن ومعهما بنو زهرة فبايعوا .

6 ـ دخول عناصر من خارج المدينة معدّةً سلفاً لتأييد الطرف المناوئ لبني هاشم ، بدليل قول عمر : ما هو إلاّ أن رأيت ( أسلم ) فأيقنتُ بالنصر (1) .

7 ـ محاولتهم التعتيم على الإجراءات التي تمّت مخاتلةً ، واتهامهم لكلّ مَن يعارضهم بأنّه يريد الفتنة وشقّ عصا المسلمين ، وقد اتّضح ذلك من خلال الحوادث التي تتابعت فيما بعدُ ، والقضاء على من ثبت على عدم البيعة وخالف قرار السقيفة (2) .

8 ـ ومن الأدلّة على التخطيط السابق : أنّ عثمان بن عفّان كتب اسم عمر في الوصية كخليفة من بعد أبي بكر (3) من دون أن يأمره بذلك ، فقد كان مغمىً عليه ، فمن أين علم عثمان أنّ عمر هو الخليفة بعد أبي بكر ؟

9 ـ ثمّ إنّ عمر وضع عثمان ضمن مجموعة أحدها يكون خليفة المسلمين بحيث يضمن ترشيحه مؤكّداً ، وأيّ خبير بالتأريخ مُلمّ بمجريات الأمور وتركيبة المرشّحين الستّة يستطيع أن يحلّل ذلك كما حلل الإمام عليّ عليه‌السلام الموقف بوضوح (4) .

10 ـ حين تشكّلت الحكومة التي تمخّضت عن اجتماع السقيفة ؛ توّلى أبو بكر الخلافة ، وأبو عبيدة المال ، وعمر القضاء (5) ، وهذه هي أهمّ المناصب وأكثرها حساسيةً في مناهج الحكم والدولة ، هذه التركيبة لجهاز الدولة والعناصر الحاكمة لا تتأتّى صدفةً ولا يتمّ ذلك إلاّ عن تخطيط سابق .

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 2 / 459 ط مؤسسة الأعلمي .

(2) راجع طبقات ابن سعد : 3 / ق 2 / 145 ، وأنساب الأشراف : 1 / 589 ، والعقد الفريد : 4 / 247 ، السقيفة والخلافة لعبد الفتاح عبد المقصود : 13 ، والسقيفة انقلاب أبيض : اغتيال خالد بن سعيد بن العاص ، وابن عساكر : ترجمة سعد بن عبادة وكنز العمّال : 3 / 134 .

(3) تأريخ الطبري : 2 / 618 ط مؤسسة الأعلمي ، وسيرة عمر لابن الجوزي : 37 ، والكامل في التأريخ : 2 / 425 .

(4) أنساب الأشراف : 5 / 19 .

(5) الكامل في التأريخ : 2 / 420 .

11 ـ قول عمر حين حضرته الوفاة : لو كان أبو عبيدة حيّاً استخلفته (1) .

وليس كفاءة أبي عبيدة هي التي أوحت إلى عمر بهذا التمنّي ، لأنّه كان يعتقد أهليّة عليّ عليه‌السلام للخلافة ، ومع ذلك لم يشأ أن يتحمّل أمر الأمة حيّاً كان أو ميّتاً .

12 ـ اتّهام معاوية لأبي بكر وعمر بالتخطيط لاستلاب الخلافة من عليّ عليه‌السلام ، كما جاء ذلك في كتابه إلى محمّد بن أبي بكر إذ قال : فقد كنّا وأبوك نعرف فضل ابن أبي طالب وحقّه لازماً لنا مبروراً علينا ، فلمّا اختار الله لنبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ما عنده وأتمّ وعده وأظهر دعوته وأفلج حجّته وقبضه إليه ؛ كان أبوك والفاروق أوّل من ابتزّه حقّه وخالفه على أمره ، على ذلك اتّفقا واتّسقا ، ثمّ إنّهما دعواه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما وتلكّأ عليهما فهمّا به الهموم وأرادا به العظيم (2) .

13 ـ قول أمير المؤمنين عليّ عليه‌السلام لعمر : احلب يا عمر حلباً لك شطره ، اشدد له اليوم أمره ليرد عليك غداً (3) .

14 ـ اتهام الزهراء عليها‌السلام للحاكمين بالحزبيّة السياسية والتآمر للانقضاض على السلطة وتجريد بني هاشم منها (4) بقولها : (فوسمتم غير إبلكم ، وأوردتم غير شربكم ... ابتداراً زعمتم خوف الفتنة ؟ ( أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنّ جَهَنّمَ لَُمحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ )) .

سلبيّات حادثة السقيفة :

1 ـ الاستبداد بالرأي والقرار ، فقد استهان المشاركون في السقيفة بوصايا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم للمسلمين بالاهتمام بعترته الطاهرة ، واستخفّوا بأوامره المصرّحة

ــــــــــــ

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : 1 / 190 ط دار إحياء التراث العربي ن وتأريخ الطبري : 3 / 292 قصة الشورى ، والكامل في التأريخ : 3 / 65 .

(2) مروج الذهب للمسعودي : 3 / 199 ، وقعة صفّين لنصر بن مزاحم ك 119 .

(3) الإمامة والسياسة : 29 ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : 6 / 11 .

(4) راجع خطبة الزهراء في مسجد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وبحار الأنوار ك 29 / 220 .

بلزوم الاقتداء بهم والتمسّك بحبلهم ، ولو فرض ـ جدلاً ـ أنّه لا نصّ بالخلافة من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم على أحد من آل محمد وفرض كونهم غير متميّزين في حسب أو نسب أو أخلاق أو جهاد أو علم أو عمل أو إيمان أو إخلاص ، بل كانوا كسائر الصحابة ، فهل كان ثمّة مانع شرعيّ أو عقليّ أو عرفيّ يمنع تأجيل عقد البيعة إلى حين الانتهاء من تجهيز رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم (1) ؟!

إن هذا الاستعجال من المبادرين لسدّ الفراغ الذي خلّفته وفاة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على وجود نصوص أو أرضية تشريعية كان ينبغي تفويتها والمبادرة لأخذ زمام الأمر ، لئلاً تأخذ النصوص فاعليتها إن جرت الأمور بشكل طبيعي ، ولهذا قال عمر عن بيعة أبي بكر : إنّها كانت فلتة وقى الله المسلمين شرّها ألا ومن عاد لمثلها فاقتلوه (2) .

2 ـ البيعة لم تكن جامعة لأهل الحلّ والعقد الذي يعتبر شرطاً أساسياً في حصول الإجماع وفي مشروعية الانتخاب ، إذ اُلغي في السقيفة استشارة الطبقة الرفيعة من الصحابة مثل عليّ عليه‌السلام والعباس وعمار بن ياسر وسلمان وخزيمة بن ثابت وأبي ذر وأبي أيوب الأنصاري والزبير بن العوام وطلحة وأبي بن كعب ، وغيرهم كثير .

3 ـ استعمال العنف والقسوة في طريقة أخذ البيعة من المسلمين ، فإنّ كثيراً من المسلمين قد أرغموا عليها ، وقد لعبت دِرَّة عمر في سبيل تحقيقها وإيجادها دوراً كبيراً .

4 ـ لقّنت السقيفة مفاهيم منحرفة للأمة ، منها :

أ ـ الاستعلاء على الأمة والاستخفاف بشأنها تحت شعار (مَن ذا ينازعنا سلطان محمّد ؟ ! ) .

ــــــــــــ

(1) النص والاجتهاد للسيد شرف الدين : 25 ط اُسوة .

(2) تذكرة الخواص : 61 ، وراجع صحيح البخاري : كتاب الحدود ، باب رجم الحبُلى .

ب ـ تحويل مفهوم النبوّة الرّبانية وخلافة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى مفهوم السلطة العشائرية التي تستمد قوّتها وشرعيتها من انتخاب أبناء العشيرة وليس من نصوص الشريعة المقدّسة .

ج ـ فسح المجال أمام المسلمين لطرح التعددية في السلطة ومنافسة مَن فرض الله طاعته بالنصّ ، وتشجيع التمرّد على الحاكم المعصوم المنصوب بأمر من الله تعالى ، كما قالوا : منّا أمير ومنكم أمير .

د ـ هيّأ اجتماع السقيفة الأرضيّة المناسبة لتجاوز وجود الأمة وتجاوز رأيها السياسي كما حصل ذلك مرة أخرى عند تعيين عمر ، وثالثة عند وفاة عمر متمثلاً في الشورى التي فرضها عمر على المسلمين .

موقف الإمام عليه‌السلام من اجتماع السقيفة :

لم يكن الإمام عليّ عليه‌السلام طامعاً وساعياً في استلام الخلافة والتربّع على عرشها مثل الآخرين ، إذ كان همّه الأوّل والأخير تثبيت دعائم الإسلام ونشره ، وإعزاز الدين وأهله ، وإظهار عظمة الرسول وبيان سيرته ، وحثّ الناس على الاقتداء بمنهجه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، فانشغل بمراسم تجهيز النبيّ والصلاة عليه ودفنه ، وما كان يدور في خَلَده أنّ الخلافة تعدوه وهو المؤهّل لها رسالياً والمرشّح لها نبوّياً ، ولكنّ نفوس القوم أضمرت ما ينافي وصايا نبيّهم في غزوتي أُحد وحنين ، وأغراهم الطمع في سلطان بغير حقّ ، فتركوا نبيّهم مطروحاً بلا دفن كما تركوه وفرّوا عنه في حياته عند الشدائد والهزائز .

لقد وصل خبر اجتماع السقيفة إلى بيت النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حيث يجتمع عليّ عليه‌السلام وبنو هاشم والمخلصون من الصحابة حول جسد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، فقال العباس عمّ الرسول لعليّ : يا ابن أخي ، اُمدد يدك أبايعك ، فيقال : عمّ رسول الله بايع ابن عمّ رسول الله ، فلا يختلف عليك اثنان .

فقال عليه‌السلام : يا عمّ ، وهل يطمع فيها طامع غيري ؟

قال العباس : ستعلم .

غير أنّ الإمام عليه‌السلام لم يكن ليخفى عليه ما كان يجري في الساحة من مؤامرات آنذاك فأجابه بصريح القول : ( إنّي لا أحب هذا الأمر من وراء رِتاج ) (1) .

موقف أبي سفيان :

روي : أنّ أبا سفيان جاء إلى باب دار رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وعليّ عليه‌السلام والعباس موجودان فيه ، فقال : ما بال هذا الأمر في أقلّ حيّ من قريش ؟! والله لئن شئت لأملأنّها عليهم خيلاً ورجالاً ، فقال عليّ عليه‌السلام : ارجع يا أبا سفيان ! طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضرّه بذاك شيئاً .

وروي أيضاً : أنّه لمّا اجتمع الناس على بيعة أبي بكر ؛ أقبل أبو سفيان وهو يقول : والله إنّي لأرى عجاجةً لا يطفئها إلاّ دم ، يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم ! أين المستضعفان عليّ والعباس ، وقال : أبا حسن ، ابسط يدك أبايعك ، فأبى عليّ عليه‌السلام عليه وزجره وقال : إنّك والله ما أردت بهذا إلاّ الفتنة ، وإنّك طالما بغيت الإسلام شرّاً ، لا حاجة لنا في نصيحتك (2) . ولمّا بويع أبو بكر قال أبو سفيان : ما لنا ولأبي فصيل ، إنما هي بنو عبد مناف !

فقيل له : إنّه قد ولّى ابنك ، قال : وصلته رحم (3) .

لم تكن معارضة أبي سفيان للسقيفة عن إيمانه بحقّ الإمام عليّ عليه‌السلام وبني هاشم ، وإنّما كانت حركة سياسية ظاهرية أراد بها الكيد بالإسلام والبغي عليه ، فإنّ

ــــــــــــ

(1) الإمامة والسياسة : 21 . والرِتاج : الباب المغلق .

(2) تاريخ الطبري : 2 / 449 ، والكامل في التاريخ : 2 / 326 ط دار الفكر .

(3) تأريخ الطبري : 2 / 449 ط دار الأعلمي ، والكامل في التأريخ : 2 / 326 .

علاقة أبي بكر مع أبي سفيان كانت وثيقة للغاية (1) .

أقطاب المعارضة للسقيفة :

كان من الطبيعي أن تبرز أطراف معارضة لنتائج السقيفة التي لم تتمتّع بالأهليّة الكافية والاحقيّة في الزعامة ، فبرزت ثلاثة أطراف :

الأوّل : الأنصار باعتبارهم كتلة سياسية واجتماعية كبيرة لابدّ من حسابها في ميزان الترشيح والانتخاب ، فنازعوا الخليفة الفائز وصاحبيه في سقيفة بني ساعدة ، ووقعت بينهم المنازعة التي انتهت بفوز قريش .

وقد انتفع أبو بكر وحزبه في مواجهة الأنصار من :

1 ـ تركّز فكرة الوراثة الدينية في الذهنية العربية في قوله بأنّهم شجرة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وأقربهم إليه ، فهم أولى به من سائر المسلمين ، وأحق بخلافته وسلطانه .

2 ـ انشقاق الأنصار على أنفسهم بين مؤيّد ومعارض لأبي بكر ، نتيجة تجذّر النزعة القبلية من نفوسهم ، أو لحسد بعضهم لبعض ، أو الرغبة في نيل الحظوة والقُربة لدى السلطة الحاكمة الجديدة ، حتى برزت هذه الظاهرة واضحة في قول أسيد بن حضير في السقيفة : لئن ولّيتموها سعداً عليكم مرة واحدة لا زالت لهم بذلك عليكم الفضيلة ولا جعلوا لكم نصيباً فيها أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر (2) .

ــــــــــــ

(1) فقد روي أنّ أبا سفيان اجتاز على جماعة من المسلمين منهم أبو بكر وسلمان وصهيب وبلال ، فقال بعضهم : أما أخذت سيوف الله من عنق عدّو الله مأخذها ؟ فزجرهم أبو بكر وقال لهم : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيّدهم ؟ .. ومضى مسرعاً إلى النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يخبره بمقالة القوم فردّ عليه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قائلاً : يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت الله . صحيح البخاري : 2 / 362 .

(2) الكامل في التأريخ : 2 / 331 .

لقد أعطى اجتماع السقيفة لأبي بكر القوّة من ناحيتين :

1 ـ إضعاف دور القاعدة الشعبية للإمام عليّ عليه‌السلام فإنّ الأنصار سجّلوا على أنفسهم بذلك مذهباً لا يسمح لهم بأن يقفوا بعد السقيفة إلى صفّ الإمام ويخدموا قضيته وأحقّيته في الخلافة .

2 ـ بروز أبي بكر كمدافع وحيد عن حقوق المهاجرين بصورة عامّة وعن قريش خاصّة في مجتمع الأنصار ، حيث إنّ الظرف كان مناسباً جدّاً ، إذ خلا من أقطاب المهاجرين الذين لم يكن لتنتهي المسألة في محضرهم إلى نتيجتها التي انتهت إليها .

الثاني : الأمويون الذين كان لديهم مطمع سياسيّ كبير في نيل نصيب مرموق من الحكم ، واسترجاع شيء من مجدهم السياسي في الجاهلية وعلى رأسهم أبو سفيان ، وقد تعامل معهم أبو بكر وحزبه وفق معرفتهم بطبيعة النفس الأموية وشهواتها السياسيّة والمادية ، فكان من السهل على أبي بكر أن يتنازل عن بعض المبادئ والحقوق الشرعية ، فدفع لأبي سفيان جميع ما في يده من أموال المسلمين وزكواتهم التي جمعها من سفره الذي بعثه فيه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لجباية الأموال ، ولم يعبأ الفائزون بالسقيفة بمعارضة الأمويين وتهديد أبي سفيان وما أعلنه من كلمات الثورة والرغبة في تأييد الإمام عليه‌السلام وبني هاشم .

بل استفاد أبو بكر وحزبه من الأمويين في إضعاف دور بني هاشم حاضراً ومستقبلاً بأن جعلوا للأمويين حظّاً في العمل الحكومي في عدّة من المرافق الهامّة في الدولة .

الثالث : الهاشميّون وأخصّاؤهم كعمار وسلمان وأبي ذر والمقداد رضوان الله عليهم ، وجماعات كثيرة من الناس الذين كانوا يرون البيت الهاشمي هو صاحب الحقّ الشرعي بالخلافة ، وهو الوارث الطبيعي لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بحكم نصّ الغدير ومناهج السياسة التي كانوا يألفونها .

ولم تكن لتنطلي عليهم الحجج الواهية التي طرحتها أطراف السقيفة ، فرأت فيهم تيارات تسعى للاستئثار بالحكم لإرضاء شهواتهم ونذيراً بانحراف التجربة الإسلامية من مسارها الصحيح .

نتائج السقيفة :

نجح أبو بكر وحزبه في مواجهة الأنصار والأمويين ، وكسب الموقف بأن أصبح خليفة للمسلمين ، ولكنّ هذا النجاح جرّه إلى تناقض سياسي واضح ، لأنّه لم يملك في السقيفة من رصيد إلاّ أن يجعلوا حجّتهم مبنيّة على أساس القرابة من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، ومن ثَمّ يقرّوا مذهب الوراثة للزعامة الدينية .

غير أنّ وجود بني هاشم كطرف معارض بدّل الوضع السياسي ، واحتجّت المعارضة على أبي بكر وحزبه بنفس حجّتهم على باقي الأطراف ، وهي إذا كانت قريش أولى برسول الله من سائر العرب فبنو هاشم أحقّ بالأمر من بقية قريش .

وهذا ما أعلنه الإمام عليّ عليه‌السلام حين قال : إذا احتجّ المهاجرون بالقُرب من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كانت الحجّة لنا على المهاجرين بذلك قائمة ، فإن فلجت حجّتهم كانت لنا دونهم ، وإلاّ فالأنصار على دعوتهم .

وأوضحه العباس في حديث له مع أبي بكر إذ قال له : وأمّا قولك نحن شجرة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فإنكم جيرانها ونحن أغصانها (1) .

فالإمام عليّ عليه‌السلام كان مصدر رعب ورهب في نفوس الفائزين في لعبة السقيفة وسدّاً منيعاً إزاء رغباتهم وطموحاتهم ، وكان بإمكانه أن يستغلّ النفعيّين ـ وما أكثرهم ! ـ والذين يميلون مع كلّ ريح وينعقون مع كلّ ناعق والذين يعرضون أصواتهم ومواقفهم رخيصة في الأسواق السياسية ، وأن يشبع نهمهم ممّا خلّفه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من الخمس وغلاّت أراضي المدينة ونتاج (فدك) التي كانت تدرّ بالخيرات ، إلاّ أنّه عليه‌السلام أبى عن كلّ ذلك لكمال شخصيّته وسموّ منزلته ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر كان بوسعه عليه‌السلام أن يتحرّك محتجّاً أمام أرباب السقيفة بمبدأ القرابة الذي يعدّ ورقة رابحة بيده حتى ألمح لذلك بقوله عليه‌السلام : (احتجوّا بالشجرة وأضاعوا الثمرة) . وكان السواد الأعظم من الناس يقدّسون أهل البيت ويحترمونهم لذلك السبب ، وبالتالي سيدفع السلطة الحاكمة إلى أزمة سياسية حرجة لا مخرج منها ، بيد أنّه عليه‌السلام كان أسمى من ذلك وأجلّ ، حيث قدّم عليه‌السلام المصلحة الإسلامية العليا على كلّ المصالح الخاصة .

ــــــــــــ

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : 6 / 5 .

ولتلافي احتمال تحرّك الإمام على هذا المسار تردّدت السلطة بين موقفين :

أوّلاً : أن لا تقرّ للقرابة بشأن في الخلافة ، وهذا معناه نزع الثوب الشرعي عن خلافة أبي بكر الذي تقمّصه يوم السقيفة .

ثانياً : أن تناقض السلطة الحاكمة نفسها وإصرارها على مبادئها التي أعلنتها في السقيفة مقابل بقيّة الأطراف ، فلا ترى أيّ حق للهاشميّين في السلطة وهم أقرب الناس إلى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، أو تراه لهم ، ولكن في غير ذلك الظرف الذي يكون معنى المعارضة مقابلة حكم قائم ووضع قد تعاقد عليه الناس .

وكان الخيار الثاني هو خيار السلطة (1) .

ــــــــــــ

(1) راجع تفصيل ذلك في ( فدك في التأريخ ) للشهيد الصدر ك 84 ـ 96 ، وتأريخ الطبري : 2 / 449 و 450 ( أحداث السقيفة ) .

الفصل الثاني: الإمام عليّ عليه‌السلام في عهد أبي بكر

خطوات السلطة لمواجهة المعارضة :

ما كانت الفئة المسيطرة لتتنازل عن السلطة بعد أن سعت وخطّطت للاستيلاء عليها ، فثبتت على آرائها التي روّجتها في السقيفة ودعمتها بشتّى الوسائل والسبل بغض النظر عن شرعيّتها أو صحّتها في المحافظة على سلامة الدعوة الإسلامية ، لذا فإنّنا نلاحظ بعض الظواهر والخطوات السياسية التي اتّبعتها هذه الفئة من أجل إبعاد آل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عن الحكم نهائياً والقضاء على الفكرة التي أمدّت الهاشميين بالقوة ، بل القضاء على كلّ معارضة محتملة مستقبلاً ، وهي:

1 ـ إنّ السلطة الجديدة أخذت على المعارضين أنّ مخالفتهم الخليفة الجديد ليس إلاّ إحداثاً للفتنة المحرّمة في شريعة الإسلام ، وكان يدعم إدانتهم للمعارضة هذه أنّ ظروف الدولة الإسلامية كانت غير مستقرّة بعد ، وكان الأعداء من خارج البلاد يهدّدون الدولة الإسلامية إضافة إلى أحداث الردّة التي حصلت بعد وفاة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم داخل حدود الدولة الإسلامية الفتيّة .

2 ـ أسلوب الشدّة والعنف الذي اتّبعه الخليفة وحزبه مع الإمام عليّ عليه‌السلام ومن معه بنفس الطريقة التي اتّبعوها مع سعد بن عبادة في السقيفة ، فقد بلغت الشدّة منهم أنّ عمر هدّد بحرق بيت الإمام عليّ عليه‌السلام وإن كانت فاطمة عليها‌السلام فيه (1) ، ومعنى هذا أنّ فاطمة وغيرها من آل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ليس لهم حرمة تمنعهم عن أن يتّخذ الجهاز الحاكم الطريقة نفسها معهم .

3 ـ إنّ أبا بكر ومن معه لم يشرك شخصاً من الهاشميّين في شأن من شؤون الحكم المهمّة خشية أن يصل الهاشميّون إلى الخلافة (2) ولا جعل منهم والياً على شبر من الدولة الإسلامية الواسعة .

4 ـ إعداد وتهيئة كتلة سياسية ضخمة تنافس آل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وتعاديهم ، لنيل الخلافة والمركز الأعلى في الحكم ، فإنّنا نلاحظ أنّ الأمويين ذوي الألوان والطموحات السياسية الواضحة قد احتلوا الصدارة في المناصب الإداريّة أيام أبي بكر وعمر ، وإضافة إلى ذلك أنّ مبدأ الشورى الذي ابتكره الخليفة الثاني سوف يجعل من عثمان بن عفّان المرشح الأوفر حظّاً من غيره من المنافسين .

هذه الكتلة السياسية من شأنها أن تطول وتتّسع لأنّها ليست متمثلة في شخص بل في بيت كبير ، وبالتالي سوف لن تكون الظروف مهيأة لصعود آل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى سدّة الخلافة بسهولة على أقلّ تقدير .

5 ـ عزل كلّ العناصر التي تميل إلى بني هاشم ، فقد روي أنّ أبا بكر عزل خالد بن سعيد بن العاص عن قيادة الجيش الذي وجّهه لفتح الشام بعد أن أسندها إليه لا لشيء إلاّ لأنّ عمر نبّهه إلى نزعته الهاشمية وميله إلى آل محمد ، وذكّره بموقفه المعارض لهم بعد وفاة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم (3) .

6 ـ إضعاف القدرة الاقتصادية للإمام عليّ عليه‌السلام خشية أن يستثمرها الإمام في الدعوة لاستعادة حقّه الشرعي في الخلافة ، فقام الخليفة بمصادرة فدك من الزهراء عليها‌السلام لعلمه أنّها عليها‌السلام كانت سنداً قوياً لقرينها في دعوته إلى نفسه ، هذا إذا علمنا أنّ أطرافاً سياسية باعت صوتها للحكومة ، فمن الممكن أن تفسخ المعاملة إذا عرض عليها ما ينتج ربحاً أكبر ، كما

ــــــــــــ

(1) بحار الأنوار : 43 / 197 ط دار الوفاء .

(2) تأريخ الطبري : 2 / 618 ، ومروج الذهب على هامش تأريخ ابن الأثير : 5 م 135 .

(3) تاريخ الطبري : 2 / 586 ط مؤسسة الأعلمي .

وأنّ الخليفة أبا بكر نفسه اتّخذ المال وسيلة من وسائل الإغراء وكسب الأصوات (1) .

وإذا أضفنا لذلك أنّ الزهراء كانت دليلاً يحتجّ به أنصار الإمام عليّ عليه‌السلام على أحقّيته بالخلافة نستوضح أنّ الخليفة كان موفَّقاً كلّ التوفيق في مسعاه السياسي لإظهار موقف الزهراء عليها‌السلام الداعم لأمير المؤمنين عليه‌السلام موقفاً محايداً ، وذلك بأسلوب لبق وغير مباشر لإفهام المسلمين أنّ فاطمة عليها‌السلام امرأة من النساء ولا يصحّ أن تؤخذ آراؤها ودعاويها دليلاً في مسألة بسيطة كفدك ، فضلاً عن موضوع مهم كالخلافة ، وأنّها إذا كانت تطلب أرضاً ليس لها بحقّ ؛ فمن الممكن أن تطلب (2) لقرينها الدولة الإسلامية كلّها ، وليس له فيها حقّ كما يدّعيه هؤلاء الصحابة الذين رشّحوا أنفسهم لخلافة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وسيطروا على زمام الأمر .

فقد روي أنّه لمّا استقرّ الأمر لأبي بكر ، بعث إلى وكيل الزهراء فأخرجه منها واستولى على فدك ، واحتجّ بحديث لم يروه غيره ، وهو أنّه سمع النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول : ( إنّا معاشرَ الأنبياء لا نورّث ، ما تركناه صدقة ) فالنبيّ لا يورث وإنّما ميراثه في المساكين وفقراء المسلمين (3) .

الاحتجاجات على خلافة السقيفة :

إنّ الصفوة الخيّرة من الصحابة الذين وقفوا مع الإمام عليّ عليه‌السلام في المطالبة بحقّه الشرعي في الخلافة احتجّوا بصلابة وثقة وعلانية وبحجّة واضحة دامغة وبدليل شرعيّ منصوص وبأسلوب يدلّ على الحرص على إصابة الحقّ وصيانة الحكم الإسلامي من الانحراف على الحكومة ، فقد وقفوا في مسجد الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فانبرى الصحابيّ الجليل خزيمة بن ثابت فقال : أيّها الناس ! ألستم تعلمون أنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قَبِل شهادتي وحدي ، ولم يرد معي غيري ؟ فقالوا : بلى ، قال : فأشهد أنّي سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول : (أهل بيتي يفرّقون بين الحقّ والباطل ، وهم الأئمّة الذين يقتدى بهم) ، وقد قلت ما علمت ، وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين .

ــــــــــــ

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد : 3 / 182 ، وشرح النهج لابن أبي الحديد : 1 / 133 .

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : 16 / 284 ط . المحققة / أبو الفضل إبراهيم وفيه جواب مدرس المدرسة الغربية علي بن الفارقي بهذا المعنى عندما سأله ابن أبي الحديد .

(3) راجع سنن البيهقي : 6 / 301 ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : 16 / 218 ـ 224 ، ودلائل الصدق للمظفر : 3 / 32 .

واحتجّ عمار بن ياسر فقال : يا معاشر قريش ويا معاشر المسلمين ! إن كنتم علمتم وإلاّ فاعلموا أنّ أهل بيت نبيّكم أولى به وأحقّ بإرثه وأقوم باُمور الدين وآمن على المؤمنين وأحفظ لملّته وأنصح لاُمّته ، فمروا صاحبكم فليردّ الحقّ إلى أهله قبل أن يضطرب حبلكم ويضعف أمركم ويظهر شقاقكم وتعظم الفتنة بكم .

ووقف سهل بن حنيف فقال : يا معشر قريش ! أشهد على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وقد رأيته في هذا المكان ـ يعني مسجد النبيّ ـ وقد أخذ بيد عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام وهو يقول : ( أيّها الناس ، هذا عليّ إمامكم من بعدي ووصيّي في حياتي وبعد وفاتي ، وقاضي ديني ، ومنجز وعدي ، وأوّل من يصافحني على حوضي ، وطوبى لمن تبعه ونصره ، والويل لمن تخلّف عنه وخذله ) .

ثمّ قام أبو الهيثم بن التيهان فقال : وأنا أشهد على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنّه أقام عليّاً يوم غدير خم ، فقالت الأنصار : ما أقامه إلاّ للخلافة ، وقال بعضهم : ما أقامه إلاّ ليعلم الناس أنّه مولى من كان رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مولاه ، وكثر الخوض في ذلك فبعثنا رجلاً منّا إلى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فسألوه عن ذلك ، فقال : ( هو وليّ المؤمنين بعدي وأنصح الناس لأمتي ) ، وأنا أشهد بما حضرني ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنّ يوم الفصل كان ميقاتاً .

ثمّ قام آخرون منهم أبو ذر وأبو أيوب الأنصاري وعتبة بن أبي لهب والنعمان بن عجلان وسلمان الفارسي فاحتجّوا على القوم (1) .

محاولة إرغام الإمام عليه‌السلام على البيعة :

كان لامتناع الإمام عن البيعة وقيام عدد من الصحابة الأجلاّء بالاحتجاج العلني ومطالبة السلطة بالتنحّي عنها وتسليمها إلى صاحبها الشرعي الأثر الفعّال في تحريك مشاعر المسلمين وتعبئتهم في صف أمير المؤمنين عليه‌السلام ، هذا بالإضافة إلى وجود بعض العشائر المؤمنة المحيطة بالمدينة مثل أسد وفزارة (2) وبني حنيفة وغيرهم ممن شاهد بيعة يوم الغدير (غدير خم) التي عقدها النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لعليّ عليه‌السلام بإمرة المؤمنين من بعده الذين رفضوا بيعة أبي بكر ، وامتنعوا عن أداء الزكاة للحكومة الجديدة باعتبارها غير شرعية ، وكانوا يقيمون الصلاة ويؤدّون جميع الشعائر ، كلّ هذا كان يشكّل خطراً على الحكم القائم ، فرأت السلطة الحاكمة أن تصنع حدّاً لهذا الخطر ، وذلك بإجبار رأس المعارضة وهو عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام على بيعة أبي بكر .

وذكر بعض المؤرّخين أنّ عمر أتى أبا بكر فقال له : ألا تأخذ هذا المتخلّف عنك بالبيعة ؟ يا هذا لم تصنع شيئاً ما لم يبايعك عليّ ! فابعث إليه حتى يبايعك .

فأجمعوا آراءَهم على إرغام الإمام عليه‌السلام وقسره على البيعة لأبي بكر ، فأرسلوا قوة عسكرية فأحاطت بداره فدخلوا داره بعنف (3) ، وأخرجوه منها بصورة لا تليق بمكانة شخص قال عنه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : ( أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي ) .

ــــــــــــ

(1) تأريخ أبي الفداء : 1 / 156 ، والخصال للصدوق : 432 ، والاحتجاج للطبرسي : 1 / 186 .

(2) تأريخ الطبري : 2 / 476 ط مؤسسة الأعلمي .

(3) الإمامة والسياسة : 30 ، وتأريخ الطبري : 2 / 443 .

وجيء به إلى أبي بكر ، فصاحوا به بعنف : بايع أبا بكر ، فأجابهم الإمام بمنطق الواثق الجريء الشجاع : ( أنا أحقّ بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي ، أخذتم الأمر من الأنصار ، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وتأخذونه منّا أهل البيت غصباً ! ألستم زعمتم للأنصار أنّكم أولى بهذا الأمر منهم لمّا كان محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم منكم فأعطوكم المقادة ، وسلّموا إليكم الإمارة ؟ وأنا أحتجّ عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار ، نحن أولى برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حيّاً وميّتاً ، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون وإلاّ فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون ) (1) .

وبهذا الموقف الصريح أوضح الإمام الحقيقة من الحجّة السياسية التي اتّخذوها ذريعة للوصول إلى الحكم ، فلم يكن لهم بدّ من التسليم أو الردّ بما تحويه أفكارهم وتضمره نفوسهم ، فثار ابن الخطّاب بعد أن أعوزته الحجّة في الردّ على الإمام ، فسلك طريق العنف قائلاً له : إنّك لست متروكاً حتى تبايع ، فزجره الإمام قائلاً : ( احلب حلباً لك شطره ، واشدد له اليوم يردده عليك غداً ، والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه ) (2) .

هنا كشف الإمام عليه‌السلام عن سرّ اندفاعات عمر وحماسه من أجل البيعة ، فإنّ موقفه هذا من أجل أن ترجع إليه الخلافة وشؤون الملك بعد أبي بكر .

وخاف أبو بكر من تطوّر الأحداث في غير ما يحب ، وخشي من عواقب غضب الإمام فقال له : إن لم تبايع فلا أكرهك ، ثمّ تكلّم أبو عبيدة بن الجرّاح محاولاً تهدئة الإمام عليّ عليه‌السلام وكسب ودّه ، فقال : يا ابن عم ! إنّك حديث السنّ وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلاّ أقوى على هذا الأمر منك وأشد احتمالاً

ــــــــــــ

(1) الإمامة والسياسة : 28 .

(2) أنساب الأشراف : 1 / 587 ، وشرح نهج البلاغة : 2 / 2 ـ 5.

واضطلاعاً به ، فسلّم لأبي بكر هذا الأمر ، فإنّك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق من فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك (1) .

إنّ هذه التصريحات السياسية غايتها تضليل الآراء وتسويف المواقف ، وهي لم تكن لتنطلي على وعي الإمام عليه‌السلام بل أثارت في نفسه الألم والاستياء من بوادر الانحراف ، فاندفع يخاطب القوم في محاولة لتنبيههم بخطئهم ، فقال : ( الله الله يا معشر المهاجرين ! لا تخرجوا سلطان محمّد في العرب عن داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم ، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقّه ، فو الله يا معشر المهاجرين لنحن أحقّ الناس به ، لأنّا أهل البيت ، ونحن أحقّ بهذا الأمر منكم ، ما كان فينا القارئ لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعيّة ، الدافع عنهم الاُمور السيّئة ، القاسم بينهم بالسويّة ، والله إنّه لفينا ، فلا تتّبعوا الهوى فتضلّوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحقّ بُعداً ) (2) .

وروي : أنّ الزهراء عليها‌السلام خرجت خلف أمير المؤمنين من أجل الدفاع عن الإمام عليه‌السلام لأنّها خشيت أن يكون القوم قد أعدّوا السوء لإيقاعه بالإمام ، وقد أخذت بيد ولديها الحسن والحسين عليهما‌السلام وما بقيت هاشمية إلاّ وخرجت معها ، فوصلت مسجد النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وهدّدت القوم بالدعاء عليهم إن لم يتركوا الإمام فقالت عليها‌السلام : ( خلّوا عن ابن عمّي ، خلّوا عن بعلي ، والله لأنشرنّ شعري ولأضعنّ قميص أبي على رأسي ولأدعونّ عليكم ، فما ناقة صالح بأكرم على الله منّي ، ولا فصيلها بأكرم على الله من ولدي ) (3) .

ــــــــــــ

(1) شرح نهج البلاغة : 2 / 2 ـ 5 و 1 / 134 .

(2) الإمامة والسياسة : 28 .

(3) الإحتجاج للطبرسي : 1 / 222 .

الإمام عليّ عليه‌السلام ومضاعفات السقيفة :

إذا كانت مواقف الإمام عليّ عليه‌السلام كلّها رائعة ؛ فموقفه من الخلافة بعد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من أكثرها روعةً ، فالعقيدة الإلهية تريد في كلّ زمان بَطَلاً يفتديها بنفسه ونفيسه ويعزّز به المبدأ ، وهذا هو الذي بعث بعليّ إلى فراش الموت ، وبالنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى مدينة النجاة يوم الهجرة ، ولم يكن ليتهيّأ للإمام عليه‌السلام في محنته بعد وفاة أخيه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن يضحّي لها كلا ولديه الحسن والحسين ؛ لأنه لو ضحّى بنفسه في سبيل توجيه الخلافة إلى مجراها الشرعي في رأيه ؛ لما بقي بعده من يمسك الخيط من طرفيه ، وسبطا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم طفلان لا يتهيّأ لهما من الأمر ما يريد .

إنّ عليّاً الذي كان على أتمّ استعداد لتقديم نفسه قرباناً للمبدأ في جميع أدوار حياته منذ ولد في الكعبة والى أن استُشْهِدَ في مسجد الكوفة ؛ قد ضحّى بموقعه الذي نصبه فيه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وتنازل عن القيادة السياسية الظاهرة في سبيل المصالح العليا التي جعله رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وصيّاً عليها وحارساً لها .

وقف عليّ عليه‌السلام عند مفترق طرق ، كلٌ منها حرج وكلٌ منها شديد على نفسه :

1 ـ أن يبايع أبا بكر دون ممانعة ، ويكون حاله مثل بقية المسلمين ، بل ويحافظ على وجوده ومنافعه الشخصية ومصالحه المستقبلية وينال المكانة والتكريم والاحترام لدى الجهاز الحاكم . وهذا غير ممكن ، لأنّه يعني إمضاءه عليه‌السلام لبيعة أبي بكر وولايته ، وهذا مخالف لأوامر رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ومؤدٍّ إلى انحراف الخلافة والولاية والإمامة عن مسارها الأصلي ومعناها الحقيقي إلى الأبد ، وتبدّد الجهود والتضحيات التي بذلها النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والإمام علي عليه‌السلام من أجل إرساء قواعد الإسلام وتحكيم أصول الخلافة الشرعية ، وبالتالي انحراف التجربة الإسلامية كلّها .

2 ـ أن يسكت وفي العين قذىً وفي الحلق شجا ، ويحاول أن يسلك سبيلاً معتدلاً يحفظ كيان الإسلام ويصون المسلمين ووجودهم وأن يجني ثماره متأخّراً .

3 ـ أن يعلن الثورة المسلّحة على خلافة أبي بكر ، ويدعو الناس إليها ويدفعهم نحوها .

ولكن ماذا كان يترقّب للثورة من نتائج ؟ هذا ما نريد أن نتبيّنه على ضوء الظروف التأريخية لتلك الساعة العصيبة .

ومن المألوف أن الحاكمين لم يكونوا ينزلون عن مراكزهم بأدنى معارضة تواجههم وهم من عرفناهم حرصاً وشدّةً في أمر الخلافة ، معنى هذا أنّهم سيقابلون ويدافعون عن سلطانهم الجديد ، ومن المعقول جدّاً حينئذٍ أن يغتنم سعد ابن عبادة الفرصة ليعلنها حرباً اُخرى لإشباع أهوائه السياسية ، لأنّنا نعلم أنّه هدّد الحزب المنتصر بالثورة عندما طلب منه البيعة وقال : (لا والله حتّى أرميكم بما في كنانتي وأُخضّب سنان رمحي وأضرب بسيفي وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني ولو اجتمع معكم الإنس والجنّ ما بايعتكم) (1) .

وأكبر الظنّ أنّه تهيّب الغقدام على الثورة ولم يجرؤ على أن يكون أوّل شاهر للسيف ضدّ الخلافة القائمة ، وإنّما اكتفى بالتهديد الشديد الذي كان بمثابة إعلان الحرب ، وأخذ يترقّب تضعضع الأوضاع ليشهر سيفه بين السيوف ، فكان حريّاً به أن تثور حماسته ويزول تهيّبه ويضعف الحزب القائم في نظره إذا رأى صوتاً قويّاً يجهر بالثورة فيعيدها جذعة محاولاً إجلاء المهاجرين من المدينة

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 2 / 459 ط مؤسسة الأعلمي .

بالسيف (1) ، كما أعلن ذلك المتكلّم عن لسانه في مجلس السقيفة .

ولا ننسى بعد ذلك الأمويين وتكتّلهم السياسي في سبيل الجاه والسلطان ، وما كان لهم من نفوذ في مكّة في سنواتها الجاهلية الأخيرة ، فقد كان أبو سفيان زعيمها في مقاومة الإسلام والحكومة النبويّة ، وكان عتاب بن أسيد بن أبي العاص ابن أُمية أميرها المطاع في تلك الساعة .

وإذا تأمّلنا ما جاء في تأريخ تلك الأيام (2) من أنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لمّا توفّي وبلغ خبره إلى مكّة وعامله عليها عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أُمية استخفى عتاب وارتجّت المدينة وكاد أهلها يرتدّون ، فقد لا نقتنع بما يعلّل به رجوعهم عن الارتداد من العقيدة والإيمان ، وليس مردّ ذلك التراجع إلى أنّهم رأوا في فوز أبي بكر فوزهم وانتصارهم على أهل المدينة كما ذهب إليه بعض الباحثين ؛ لأنّ خلافة أبي بكر كانت في اليوم الذي توفّي فيه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وأكبر الظنّ أنّ خبر الخلافة جاءهم مع خبر الوفاة ، بل تعليل القضية : أنّ الأمير الأموي عتاب بن أسيد شاء أن يعرف اللون السياسي الذي اتّخذته أسرته في تلك الساعة ، فاستخفى وأشاع بذلك الاضطراب حتّى إذا عرف أنّ أبا سفيان قد رضي بعد سخط وانتهى مع الحاكمين إلى نتائج تصبّ في صالح البيت الأموي ؛ (3) ظهر مرّة أخرى للناس وأعاد الأمور إلى مجاريها .

وعليه فالصلة السياسية بين رجالات الأمويين كانت قائمة في ذلك الحين ، وهذا ما يفسِّر لنا القوّة التي تكمن وراء أقوال أبي سفيان حينما كان ساخطاً على

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 2 / 459 ، قصة السقيفة ، قول الحبّاب بن المنذر : ( أمّا والله لئن شئتم لنعيدنّها جذعَة ... ) .

(2) الكامل في التأريخ / لابن الأثير : 3 / 123 وصلَ خبر وفاة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وكان عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أُمية أميراً على مكّة .

(3) تاريخ الطبري : 2 / 449 ، هدأت ثائرة أبي سفيان بعد أن ولّى الخليفة الأوّل ابنه معاوية ، فقال : وصلته رحم .

أبي بكر وأصحابه ، إذ قال : إنّي لأرى عجاجة لا يطفيها إلاّ الدمّ ، وقال عن عليّ والعبّاس : أما والذي نفسي بيده لأرفعنّ لهما من أعضادهما (1) .

فالأمويون كانوا متأهّبين للثورة والانقلاب ، وقد عرف عليّ عليه‌السلام منهم ذلك بوضوح حينما عرضوا عليه أن يتزعّم المعارضة ولكنّه عرف أنّهم ليسوا من الذين يعتمد على تأييدهم ، وإنّما يريدون الوصول إلى أغراضهم عن طريقه ، فرفض طلبهم ، وكان من المنتظر حينئذٍ أن يشقّوا عصا الطاعة إذا رأوا الأحزاب المسلّحة تتناحر ، ولم يطمئنّوا إلى قدرة الحاكمين على ضمان مصالحهم ، ومعنى انشقاقهم حينئذٍ إظهارهم للخروج عن الدين وفصل مكّة عن المدينة .

إذاً كانت الثورة العلويّة في تلك الظروف إعلاناً لمعارضة دموية تتبعها معارضات دموية ذات أهواء شتّى ، وكان فيها تهيئة لظرف قد يغتنمه المشاغبون ثمّ المنافقون .

ولم تكن ظروف المحنة تسمح لعليّ بأن يرفع صوته وحده في وجه الحكم القائم ، بل لتناحرت وتقاتلت مذاهب متعدّدة الأهداف والأغراض ، ويضيع بذلك الكيان الإسلامي في اللحظة الحرجة التي يجب أن يلتفّ المسلمون حول قيادة موحّدة ، ويركّزوا قواهم لصدّ ما كان يترقّب أن تتمخّض عنه الظروف الدقيقة من فتن وثورات (2) .

ومن هنا كان على الإمام عليّ أن يختار الطريق الوسط ليحقّق أكبر قدر ممكن من الأهداف الرسالية التي جعله الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وصيّاً عليها .

ومن هنا نعرف أن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كان قد أعدّ للإمام عليّ عليه‌السلام خطّتين أو خطّة واحدة ذات مرحلتين ، فالمرحلة الأولى هي نصبه إماماً شرعياً وخليفةً له بشكل رسمي بعد الإعلان الصريح وأخذ البيعة له من المسلمين وإتمام الحجّة على جميع من حضر وغاب عن مشهد يوم الغدير .

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 2 / 449 .

(2) فدك في التاريخ ، الشهيد السيد محمد الصدر : 102 ـ 105 .

وحين كان الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ذلك القائد السياسي المحنّك الذي أثبت للتأريخ ولمن عاصره جميعاً نفاذ بصيرته وبُعد نظره وشفقته على أمته وارتباطه المستمر بعالم الغيب والعلم الإلهي الذي شاء للشريعة الإسلامية أن تكون خاتمة الشرائع وعلى أساسها ينبغي أن تتحقّق أهداف الرسالات الإلهية جميعاً . فمن هنا ومن حيث علمه عليه‌السلام بمدى وعي الأُمة للرسالة الإسلامية في عصره ومدى اندماجها وذوبانها في قيم الرسالة ، وطبيعة المجتمع الذي أسلم أو استسلم لدولة الرسول بما كان يشتمل عليه من عصبيات وقيم جاهلية يصعب اجتثاثها بسرعة وبخطوات تربوية قصيرة . لكلّ هذا وغيره ممّا يمكن أن يدركه المتأمّل في الظروف المحيطة بالرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وبدولته ، يشعر المتأمّل بضرورة وجود تخطيط بعيد المدى يتكفّل تحقيق الأهداف الرسالية الكبرى على المدى البعيد بعد أن كان يستحيل أو يصعب اجتناء الثمار المرجوّة من حركة الرسالة في تلك الفترة وفي ذلك المجتمع على المدى القريب بعد ملاحظة منطق العمل التغييري بشكل خاص .

إذن كانت المرحلة الثانية بعد إعراض الأُمة أو عدم انقيادها للأطروحة النبويّة الإلهية هي الصبر والحزم والتخطيط العملي الواقعي لعمل تربوي جذري في ظلّ الدولة الإسلامية الفتيّة ، ريثما تُهيَّأ الظروف اللازمة لاستلام الحكم وتحقيق تلك الأطروحة ، لتتحقّق جميع الأهداف الممكنة لتطبيق هذه الشريعة الخالدة تطبيقاً صحيحاً رائعاً .

الإمام عليّ عليه‌السلام ومهمّة جمع القرآن :

اتّفقت كلّ الروايات الصحيحة على أنّ الإمام عليّاً عليه‌السلام ما أن انتهى من تجهيز النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ومواراته الثرى ؛ حتى اعتكف في داره منشغلاً بجمع آيات القرآن وترتيبها حسب نزولها بعد أن كانت مبعثرة في الألواح .

وروي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه‌السلام : أنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال لعليّ عليه‌السلام : يا عليّ ! القرآن خلف فراشي في المصحف والحرير والقراطيس فخذوه ، واجمعوه ، ولا تضيّعوه كما ضيّعت اليهود التوراة ، فانطلق عليّ عليه‌السلام فجمعه في ثوب أصفر (1) . وجاء أيضاً أنّ الإمام عليّاً عليه‌السلام رأى من الناس طيرة عند وفاة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فأقسم أنّه لا يضع على ظهره رداءه حتى يجمع القرآن ن فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمع القرآن (2) .

كما روي أنّ عليّاً عليه‌السلام انقطع عن الناس مدّةً حتى جمع القرآن ، ثمّ خرج إليهم في إزار يحمله وهم مجتمعون في المسجد ، فلمّا توسّطهم وضع الكتاب بينهم ثمّ قال : إنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال : ( إنّي مخلّف فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي ) وهذا كتاب الله وأنا العترة (3) ، وقال لهم : لئلاّ تقولوا غداً إنّا كنّا عن هذا غافلين .

ثمّ قال : لا تقولوا يوم القيامة إنّي لم أدعُكُمْ إلى نصرتي ولم أذكركم حقّي ولم أدعكم إلى كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته (4) .

فقال له عمر : إن يكن عندك قرآن فعندنا مثله فلا حاجة لنا فيكما .

ــــــــــــ

(1) المناقب لابن شهر آشوب : 2 / 41 ، وفتح الباري : 10 / 386، والإتقان للسيوطي : 1 / 51 .

(2) الفهرست لابن النديم : 30 .

(3) المناقب لابن شهر آشوب : 2 / 41 .

(4) كتاب سليم بن قيس : 32 ، ط . مؤسّسة البعثة .

ويبدو أنّ الإمام لم يكتف بجم الآيات القرآنية بل قام أيضاً بترتيبها حسب النزول ، وأشار إلى عامّه وخاصّه ومطلقه ومقيّده ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وعزائمه ورخصه وسننه وآدابه ، كما وأشار إلى أسباب النزول وأملى ستّين نوعاً من أنواع علوم القرآن ، وذكر لكلّ نوعٍ مثالاً يخصّه ، وبهذا العمل الكبير استطاع الإمام أن يحافظ على أهمّ أصل من أصول الإسلام ، وأن يوجّه العقل المسلم نحو البحث عن العلوم التي يزخر بها القرآن ، ليصبح المنبع الرئيسي للفكر والمصدر المباشر الذي تستمد منه الإنسانية ما تحتاجه في حياتها .

إنّ أمير المؤمنين كان جديراً بما فعل ، فإنّه قال : ما نزلت على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم آية من القرآن إلاّ أقرأنيها وأملاها عليَّ فكتبتها بخطّي ، وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها ، ودعا الله عزّ وجلّ أن يعلّمني فهمها ، فما نسيت آيةً من كتاب الله عزّ وجلّ ولا علماً أملاه عليّ فكتبته وما ترك شيئاً علّمه الله عز وجل من حلال وحرام ولا أمر ولا نهي وما كان أو يكون من طاعة أو معصية إلاّ علّمنيه وحفظته ، فلم أنس منه حرفاً واحداً (1) .

من مواقف الإمام عليه‌السلام في عهد أبي بكر :

قال الإمام عليه‌السلام : ( فو الله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر ببالي أنّ العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عن أهل بيته ، ولا أنّهم مُنَحّوهُ عنّي من بعده ، فما راعني إلاّ انثيال الناس إلى أبي بكر يبايعونه ، فأمسكت بيدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجت عن الإسلام ، يدعون إلى محق دين محمّد ، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به أعظم من فوت ولايتكم التي هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب أو كما يتقشّع السحاب ، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل

ــــــــــــ

(1) كفاية الطالب للكنجي : 199 ، والاتقان للسيوطي : 2 / 187 ، وبحار الأنوار : 92 / 99 .

وزهق واطمأن الدين وتنهنه ) (1) .

كلّ الأحداث التي جرت بعد وفاة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وما سادها من أجواء المشاحنات وما حفّها من ابتعاد عن الحقّ وانجراف في غير الطريق الذي كان على المسلمين سلوكه لم تَنس عليّاً أنّه الوصيّ على هذه الأُمة وعلى تطبيق الرسالة الإسلامية .

كانت بيعة أبي بكر قد استلبت حقّ الإمام في إدارة شؤون الأُمة مباشرة واضطرّته إلى أن يعتزل إلى حين فإنّ وصايا الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم له وعهده إليه بالتكليف الإلهي برعاية الأُمة ثمّ حرصه العميق على الرسالة الإسلامية والمجتمع من التمزّق والضياع جعل من أمير المؤمنين القدوة المُثلى للمدافعين عن الكيان الإسلامي في كل الميادين .

من هنا وقف علي عليه‌السلام ليدلي بآرائه الصائبة ، موضّحاً قواعد الدين الصحيحة في كلّ موقف يستعصي على الماسكين بزمام إدارة الدولة في زمن عصيب ، وفي اُمّة لم تترسّخ العقيدة الإلهية في نفوس أبنائها ، فكان عليّ عليه‌السلام ميزان القضاء والإفتاء في شؤون الحياة الإسلامية من قضاء واجتماع وإدارة في عهد أبي بكر وما تلاه من فترات حكم الخلفاء .

وقف علي عليه‌السلام ليدافع عن المدينة ويصدّ هجوم المرتدّين عن الإسلام ومعه الصفوة من الصحابة الذين ساندوه في محنته .

وصيّة أبي بكر إلى عمر :

لم يزل الإمام عليّ عليه‌السلام مظلوماً يدفع بحقّه بعيداً عنه ، يتألّم على الخلافة إذ تلكّأت وعلى الرسالة إذ ضمرت ، لا يجد سبيلاً إلاّ الصبر وهو الحليم ولا يجد إلاّ الأناة وهو البصير ، وقد عبّر عن أحزانه وآلامه في خطبته الشهيرة بالشقشقيّة إذ قال :

ــــــــــــ

(1) نهج البلاغة : الكتاب 62 .

( أما والله لقد تقمّصها ابن أبي قحافة ، وإنّه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى ، ينحدر عنّي السيل ولا يرقى إليّ الطير ، فسدلت دونها ثوباً ، وطويت عنها كشحاً ن وطفقت أرتئي بين أن أصول بيدٍ جذّاء أو أصبر على طخية عمياء ، يهرم فيها الكبير ، ويشيب فيها الصغير ، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربّه ، فرأيت أنّ الصبر على هاتا أحجى ، فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا ، أرى تُراثي نهباً ، حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده ، فيا عجباً بينا هو يستقيلها في حياته (1) إذ عقدها لآخر بعد وفاته لشدّ ما تشطّرا ضرعيها ، فصيّرها في حوزة خشناء ، يغلظ كلمها ، ويخشن مسها ، ويكثر العثار فيها والاعتذار منها ) (2) .

لم تطل أيّام أبي بكر فقد ألمّت به الأمراض وأشرف على الموت ، وقد صمّم على أن يولي عمر الخلافة من بعده ، فاعترض أكثر المهاجرين والأنصار ، وأعلنوا كراهيّتهم لهذا القرار لما علموا من خشونة أخلاق عمر وسوء تعامله مع الناس (3) .

لكنّ أبا بكر أصرّ على موقفه .

ثمّ إنّ أبا بكر أحضر عثمان بن عفّان لوحده ليكتب عهده لعمر ، فقال له : اُكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين ، أما بعد .. ثمّ أغمي على أبي بكر ، فكتب عثمان : فإنّي قد استخلفت عليكم عمر بن الخطّاب ولم آلكم خيراً ، ثمّ أفاق أبو بكر فقال : إقرأ عليّ ، فقرأ عليه فكبّر أبو بكر

ــــــــــــ

(1) إشارة إلى قول أبي بكر : أقيلوني فلست بخيركم ، راجع تذكره الخواص : 62 .

(2) نهج البلاغة : الخطبة 3 .

(3) الإمامة والسياسة : 36 ، وتأريخ الطبري : 2 / 618 و 619 ط مؤسسة الأعلمي ، والكامل في التأريخ : 2 / 425 .

وقال : أراك خِفتَ أن يختلف الناس إن مُتُّ في غشيتي ، قال : نعم ، قال : جزاك الله خيراً (1) .

مآخذ على وصية أبي بكر :

لم يكن عليّ عليه‌السلام راضياً بما فعله أبو بكر للأسباب التالية :

1 ـ إنّ أبا بكر لم يستشر أحداً من المسلمين في تقرير مصير الخلافة إلاّ عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفّان اللذين كانا على معرفة تامّة بميول أبي بكر لاستخلاف عمر من بعده ، خشية أن يدفعه أهل الرأي من الصحابة المخلصين على تغيير رأيه في اختيار عمر .

2 ـ الإصرار على إبعاد الإمام عليّ عليه‌السلام عن الساحة السياسية ومسألة تقرير مصير الخلافة فلم يستشره في أمر الخلافة ، في حين أنّ أبا بكر كان يفزع إلى الإمام في حلّ المشاكل المستعصية ، أو أنّ آراء الإمام ومواقفه في خلافة أبي بكر هي الناصحة والصائبة دون من عداها .

3 ـ إنّ أبا بكر فرض عمر فرضاً على المسلمين ، وكأنّ له الوصاية عليهم حيّاً وميّتاً وذلك بقوله : استخلفت عمر بن الخطاب عليكم فاسمعوا له وأطيعوا ، رغم أنّه رأى الغضب ظاهراً في وجوه الكثيرين من الصحابة .

4 ـ إنّه ناقض نفسه في دعواه بالسير على منهاج رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لأنّه كان يدّعي أنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم توفّي ولم يعهد لأحدٍ في شأن الخلافة ، في حين نجده يوصي لصاحبه عمر من بعده (2) .

ــــــــــــ

(1) الكامل في التأريخ : 2 / 425 .

(2) وهو من العجائب ؛ لأنّه لمّا أفاق من الإغماء واستمع إلى ما كتبه عثمان من تعيين الخليفة بعده ، قال : أراك خفت أن يختلف الناس إن متّ في غشيتي قال : نعم ؛ كيف هو وعثمان خافا من اختلاف الناس ؟! وأمّا الرسول الأعظم الحكيم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لم يخف من اختلاف أمته ؟! لأنهم يصرّحون بأن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مات ولم يعيّن أحداً . تباً لهم فما لهم كيف يحكمون ؟!

بل نلاحظ عمر يمنع الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من كتابة وصيّته في لحظاته الأخيرة بينما يجلس وبيده جريدة ومعه شديد مولى لأبي بكر معه الصحيفة التي فيها استخلاف عمر وعمر يقول : أيّها الناس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله إنه يقول غني لم آلكم نصحاً . راجع الطبري ط . أوربا 1 / 2138 أرأيت التناقض بين موقفيه ؟! وهل هناك من تفسير غير التآمر على تخطيط الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ؟!

5 ـ هيّأ الملك لبني أُمية ، الذي جلب الويلات للإسلام والمسلمين ، وذلك من خلال إثارة طمعهم في الخلافة وتشجيعهم عليها بقوله لعثمان : لو لا عمر ما عدوتك (1) .. وأبو بكر يعلم أنّ عثمان عاطفي ضعيف يميل لبني أُمية ، وأنّهم سيغلبونه على أمره ، وهذا ما حصل .

ــــــــــــ

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : 1 / 164 .

الفصل الثالث: الإمام علي عليه‌السلام في عهد عمر (\*)

مهّد أبو بكر كرسيّ الخلافة لعمر بن الخطاب فتولاّها بسهولة ويسر دون معارضة تذكر من أقطاب المهاجرين والأنصار ، وقد قبض على زمام الحكم بقوة وساس الأمة بشدّة ، حتى تحامى لقاءه أكابر الصحابة (1) . وحقّقت جاهلية قريش انتصاراً سياسياً آخر ومضت بخطّها على أن لا تعطي حقّاً لبني هاشم ، وأتقن عمر هذا السير أيّما إتقان .

أمّا أمير المؤمنين عليه‌السلام فلم يثأر لحقه المغتصب بعدما شاهد من سيرة السلطة الحاكمة وحركة الفئة غير الواعية في ركبها ، من تعنت وإصرار على الانحراف بالخلافة ، فوقف الإمام موقف الناصح الأمين للخليفة الجديد شعوراً منه بالمسؤولية الكبيرة ، فهو الأمين على سلامة الرسالة والأمة ، لقد ساهم أمير المؤمنين في الحياة العامّة ما وسعه من جهد ، وأدّى ما عليه من تكليف في تعليم وتفقيه وقضاء بصورة أوسع من دوره في عهد أبي بكر حيث اقتضت الضرورة ذلك ، فقد اتّسعت رقعة البلاد الإسلامية واستجدّت أحداث جديدة طارئة كان يعجز عنها الخليفة الجديد وكلّ من معه من الصحابة ، ولم يكن يجد لها حلولاً إلاّ

ــــــــــــ

(\*) استخلاف عمر بن الخطاب في جمادى الآخرة عام (13) هـ .

(1) تأريخ الطبري : 2 / 617 و 618 .

ممّن عصمه الله عن الذنب والخطأ ، ولذا كان عمر يقف متصاغراً أمام أمير المؤمنين ويحترم رأيه ويمضي حكمه وقراره حتى روي عنه لأكثر من مرّة وفي أكثر من موقف حرج قوله : لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن (1) .

فقد روي أنّ عمر أراد أن يرجم امرأةً مجنونةً اُتّهمت بالزنا ، فردّ الإمام عليّ عليه‌السلام قضاء عمر . وذكّره بحديث رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : (رفع القلم عن ثلاث : عن المجنون حتى يبرأ ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبيّ حتى يعقل) حينذاك قال عمر : لو لا عليّ لهلك عمر (2) .

ملامح من سيرة عمر (3) :

1 ـ الشدّة والقسوة في التعامل مع الناس ، وفرض السلطان بالعنف والقوة ، فخافه القريب والبعيد ، وكان من شدته أنّ امرأةً جاءت تسأله عن أمر وكانت حاملاً ولشدّة خوفها منه أجهضت حملها . وقصّته مع جبلّة وعنفه معه ممّا سبب ارتداد جبلّة وهروبه إلى بلاد الروم (4) .

2 ـ عدم مساواته في العطاء بين المسلمين ، فقد ميّز بينهم على أساس غير مشروع من النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ولا موجّه في القرآن ، بل على أساس عصبي (5) ، وكان من آثاره أن ظهرت الطبقية في العهود التي تلته ، فنشط النسّابون لتدوين الأنساب وتصنيف القبائل بحسب اُصولها ممّا أدّى إلى حنق الموالي على العرب وكراهيتهم لهم والتفتيش عم مثالبهم ، وقد خالف بذلك سيرة الرسول الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وسيرة صاحبه أبي بكر أيضاً .

ــــــــــــ

(1) اُسد الغابة 4 / 22 ، وتهذيب التهذيب : 7 / 296 ، وتاريخ دمشق : 3 / 39 حديث 1071 ، والرياض النضرة : 2 / 197 ، وكنز العمال : 5 / 832 .

(2) تذكرة الخواص : 87 ، وكفاية الطالب : 96 ، وفضائل الخمسة من الصحاح الستة : 2 / 309 .

(3) راجع النص والاجتهاد للسيد شرف الدين : 148 .

(4) الطبقات الكبرى : 3 / 285 ، وتأريخ الطبري : 3 / 291 ، والعقد الفريد : 2 / 56 .

(5) تأريخ الطبري : 3 / 291 و 292 .

وندم عمر على تصرّفه هذا في آخر فترة حكمه حينما رأى الثراء الفاحش عند كثير من الصحابة ، ولم تطب به نفسه ، وإنّما راح يقول : لو استقبلت من الأمر ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء (1) .

3 ـ عدم الدقّة والموضوعية في اختيار العمّال والولاة على أسس إسلاميّة تخدم مشروع الحكومة الإسلامية وتحافظ على كيان الأمة ، فإنّه استعمل مَنْ عُرف بالفساد وعدم الإخلاص للدين ، وأصرّ بموقفه هذا على إبعاد كلّ ما يمتّ إلى الخلافة بصلة ، عن الإمام عليّ عليه‌السلام والصحابة الأجلاّء الذين وقفوا معه (2) .

4 ـ استثناء معاوية من المحاسبة والمراقبة التي كان يشدّدها على ولاته ، وتركه على هواه يعمل ما يشاء لسنين طويلة ، ممّا أعان معاوية على طغيانه واستقلاله بالشام في عهد عثمان ، كما اُثر عنه قوله في توجيه تصرفات معاوية : إنه كسرى العرب (3) .

محنة الشورى :

إذا كانت السقيفة وبيعة أبي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرها ـ كما قال عمر ـ ؛ فإنّ الشورى أشدّ فتنةً وأكبر انحرافاً عن مسير الرسالة الإسلامية ، فقد امتُحن المسلمون فيها امتحاناً عسيراً ، وزرعت لهم الفتن والمصاعب وجلبت لهم الويلات والخطوب ، وألقتهم في شرّ عظيم ، إذ تبيّن التآمر علناً لإقصاء الإمام عليٍّ عن الحكم وتسليم زمام الأمة الإسلامية بيد المنحرفين من دون واعز من الضمير أو حرص على المصير .

ــــــــــــ

(1) شرح النهج : 9 م 29 .

(2) شيخ المضيرة أبو هريرة : 84 .

(3) المستدرك على الصحيحين : 4 / 479 ، وكنز العمال : 6/39.

فلمّا يئس عمر من حياته وأيقن برحيله عن الدنيا أثر الطعنات التي أصابته قيل له : استخلف علينا ، قال : والله لا أحملكم حيّاً وميّتاً ، ثمّ قال : إن أستخلف فقد استخلف من هو خير منّي ـ يعني أبا بكر ـ وإن اَدَع من هو خير منّي ـ يعني النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ـ (1) ، ثمّ أبدى أسفه وحسرته على بعض من شاركه مسيرته للخلافة فقال : لو كان أبو عبيدة حيّاً لاستخلفته لأنّه أمين هذه الأمة ، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيّاً لاستخلفته لأنّه شديد الحبّ لله ، فقيل له : يا أمير المؤمنين لو عهدت عهداً .

قال : قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أنظر فأُولّي رجلاً أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحقّ ـ وأشار إلى الإمام عليّ عليه‌السلام ـ ورهقتني غشية فرأيت رجلاً دخل جنّة قد غرسها ، فجعل يقطف كلّ غضّة ويانعة فيضمّه إليه ويصير تحته ، فعلمت أنّ الله غالب أمره ، ومتوفّ عمر ، فما أريد أن أتحمّلها حيّاً وميّتاً عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عنهم : إنّهم من أهل الجنّة ، وهم : عليّ وعثمان وعبد الرحمن وسعد والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، فليختاروا منهم رجلاً ، فإذا ولّوا والياً فأحسنوا مؤازرته وأعينوه (2) ، وأمرهم أن يحبس هؤلاء الستّة حتى يولّوا أحدهم خلال أيام ثلاثة وأن يضرب عنق المخالف لاتّفاق الأغلبية أو الجناح المخالف للذي فيه عبد الرحمن بن عوف ، وأن يصلّي صهيب بالناس ثلاثة أيام حتى تجتمع الأمة على خليفة ، وطلب أن يحضر شيوخ الأنصار وليس لهم من الأمر شيء (3) .

ــــــــــــ

(1) الإمامة والسياسة : 41 . قد عرفت سابقاً أنّ النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لم يدع ... وقد عيّن خليفته مراراً كيوم الإنذار لعشيرته الأقربين وغدير خم وغيرهما .

(2) تأريخ الطبري : 3 / 293 ط مؤسسة الأعلمي ، الكامل في التأريخ : 3 / 66 .

(3) تاريخ الطبري : 3 / 294 ط مؤسسة الأعلمي ، طبقات ابن سعد : 3 / 261 ، والإمامة والسياسة : 42 ، والكامل في التأريخ : 3 / 68.

وحين اجتمع أعضاء الشورى لدى عمر ، وجّه إليهم انتقادات لاذعة لا تدلّ على وضوح توجّه صحيح أو ارشاد إلى انتخاب يعين الأمة في أزمتها ، فقال : والله ما يمنعني أن استخلفك يا سعد إلاّ شدّتك وغلظتك مع أنّك رجل حرب ، وما يمنعني منك يا عبد الرحمن إلاّ أنّك فرعون هذه الأمة ، وما يمنعني منك يا زبير إلاّ أنّك مؤمن الرضا كافر الغضب . وما يمنعني من طلحة إلاّ نخوته وكبره (1) ، ولو وليها وضع خاتمه في إصبع امرأته . وما يمنعني منك يا عثمان إلاّ عصبيتك وحبّك قومك وأهلك . وما يمنعني منك يا عليّ إلاّ حرصك عليها ، وإنّك أحرى القوم إن وليتها أن تقيم على الحقّ المبين والصراط المستقيم (2) .

مؤاخذات على الشورى :

نظام الشورى الذي وضعه عمر كان عارياً عن الصحّة والصواب يحمل التناقض بين خطواته ، فإنّنا نلاحظ فيه أُموراً يبعده عن الدقّة والموضوعية :

1 ـ إنّ الأعضاء المقترحين للشورى لم يحصلوا على هذا الامتياز بالأفضلية وفق ضوابط الانتخاب حيث لم تشترك القواعد الشعبية في الترشيح والانتخاب ، وإطلاق كلمة الشورى على هذا النظام جزاف ، لأنّه لم يكن إلاّ ترشيح فرد لجماعة وفرضهم على الأمة ومن ثَمّ أمر باجتماعهم تحت التهديد بالقتل والسلاح حتى يختاروا أحدهم .

2 ـ عناصر الشورى متنافرة في تركيب شخصياتها وأفكارها ، ولا يمثّل كلّ فرد فيهم إلاّ رأيه الشخصي ، فكيف يمكن أن يعبّر عن رأي الأمة ؟ وقد نشب

ــــــــــــ

(1) كيف هم يدخلون الجنة ـ حسب نقل عمر عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ـ مع أنّ عبد الرحمن فرعون هذه الأمة وطلحة صاحب الكبر والنخوة والزبير مؤمن الرضا كافر الغضب ؟!

(2) الإمامة والسياسة : 43 .

الخلاف فيما بينهم من بعد الشورى ممّا فرّق شمل المسلمين (1) .

3 ـ الاستهانة بالأنصار ودورهم ، فقد طلب عمر حضورهم ولا شيء لهم بل ولا رأي ، فالأمر منحصر في الستّة فما معنى حضور الأنصار ؟ بل إنّ عمر استهان بالأمة كلّها حين تمنّى حياة سالم وأبي عبيدة .

4 ـ إنّ عمر ناقض نفسه في عمليّة اختيار العناصر ، ففي السقيفة كان يدّعي ويصرّ على أنّ الخلافة في قريش ، بينما نجده في هذا الموقف يتمنّى حياة سالم مولى أبي حذيفة ليوليه الأمر ، كما أنّه استدعى أصحاب الشورى دون غيرهم من الصحابة بدعوى أنّ الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مات وهو راضٍ عنهم أو أنّهم من أهل الجنّة ، ولكنّه نسب اليهم عيوباً لا تجتمع مع الرضا عنهم ويتنزّه عنها أهل الجنة . ثم إنّه أمر صهيباً أن يصلّي بالناس ثلاثة أيام ، لأنّ إمامة المصلّين لا ترتبط بالخلافة ولا تستلزمها ، وقد كان يناضل يوم السقيفة من أجل استخلاف أبي بكر ، وكات صلاته المزعومة دليله الأول على أهليّة أبي بكر للخلافة .

5 ـ إنّه أراد أن يستخلف عليّاً عليه‌السلام لأنّه سيحمل الأمة على النهج القويم والمحجّة البيضاء ، ولكنّه رأى في المنام ما رأى ، فأعرض عن الإمام عليه‌السلام وكأنّه أراد بذلك التشويش على مكانة الإمام وأهليّته .

6 ـ إنّ عمر قال : أكره أن أتحمّلها ـ يقصد الخلافة ـ حيّاً وميّتاً ، ولكنّه عاد فحدّد ستّة أشخاص من اُمّة كبيرة ، فأكّد بذلك نزعته في الاستعلاء على الأمة وقدراتها .

7 ـ اختيار العناصر الستّة يبدو مبيّتاً بحيث يصل الأمر إلى عثمان باحتمالية أكبر من وصولها إلى الإمام عليّ عليه‌السلام وهو العنصر المؤهّل من الله ورسوله لخلافة الأمة ، فترشيح طلحة هو إثارة وتأكيد لأحقاد تيم ، لأنّ الإمام نافس وعارض أبا بكر في خلافته وها هو الآن ينافس مرشّحها الجديد طلحة ، وترشيحه لعثمان تأكيد منه على أحقاد أمية وإثارة نزعة السلطان والوجاهة لديها ، وأمّا ترشيحه لعبد الرحمن وسعد فهو فتح جبهة سياسية جديدة منافسة للإمام عليّ عليه‌السلام فهما من بني زهرة ولهما نسب أيضاً مع بني أمية ، فسوف يكون ميلهما لصالح عثمان لو تنافس مع الإمام عليه‌السلام .

ــــــــــــ

(1) أنساب الأشراف : 5 / 57 ، وتذكرة الخواص : 57 ، والنص والاجتهاد : 168 .

8 ـ إنّه أمر بقتل أعضاء الشورى في حالة عدم التوصّل إلى اتّفاق أو إبداء معارضة وإصرار ، وكيف يمكن التوفيق بين هذا وبين قوله : إنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مات وهو راضٍ عنهم ؟ وهل تكون مخالفة رأي عمر موجبة لقتل الصحابة (1) ؟

حوار ابن عباس مع عمر حول الخلافة :

روي أنّ حواراً وقع بين عمر وابن عباس في شأن الخلافة .

قال عمر : أما والله ، إنّ صاحبك لأولى الناس بالأمر بعد رسول الله ، إلاّ أنّنا خفناه على اثنتين ، قال ابن عباس : فما هما يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : خفناه على حداثة سنّه ، وحبّه بني عبد المطلب .

وفي بعض مجالس عمر بن الخطاب وقد جلس إليه نفر منهم عبد الله بن عباس ، فقال له عمر : أتدري يا ابن عباس ما منع الناس منكم ؟ قال ابن عباس : لا يا أمير المؤمنين ، قال عمر : لكنّني أدري ، قال ابن عباس : فما هو ؟ قال عمر : كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة ، فتجحفوا الناس جحفاً فنظرت لأنفسها فاختارت ، ووفقت فأصابت .

فردّ عليه ابن عباس : أيميط أمير المؤمنين عنّي غضبه ؟ فأمّنه عمر قائلاً : قل ما تشاء .

ــــــــــــ

(1) تاريخ الطبري : 3 / 293 ط مؤسسة الأعلمي .

فقال ابن عباس : أمّا قولك : إنّ قريشاً كرهت ... فإنّ الله تعالى قال لقوم : (ذلِكَ بِأَنّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) (1) . وأمّا قولك : إنّا كنّا نجحف ... فلو جحفنا بالخلافة جحفنا بالقرابة ، ولكنّا قوم أخلاقنا من خلق رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الذي قال ربّه فيه : (وَإِنّكَ لَعَلَى‏ خُلُقٍ عَظِيمٍ) (2) وقال له : (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (3) . وأمّا قولك : إنّ قريشاً اختارت ... فإنّ الله تعالى يقول : (وَرَبّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) (4) ، وقد علمت يا أمير المؤمنين أنّ الله اختار من خلقه من اختار ، فلو نظرت قريش حيث نظر الله لوفّقت وأصابت .

فتفكّر عمر هُنيئة ثمّ قال (وقد آذاه من ابن عباس هذا الحديث الصريح) : على رسلك يا ابن عباس ، أبت قلوبكم يا بني هاشم إلاّ غشّاً في أمر قريش لا يزول ، وحقداً عليها لا يحول .

قال ابن عباس : مهلاً يا أمير المؤمنين ، لا تنسب قلوب بني هاشم إلى الغش ، فهي من قلب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الذي طهّره وزكّاه ، وإنّهم لأهل البيت الذين قال لهم الله : (إِنّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهّرَكُمْ تَطْهِيراً) (5) .

ثمّ قال ابن عباس : وأمّا الحقد فكيف لا يحقد من غُصب شيئه ويراه في يد غيره ؟ فغضب عمر وصاح ـ وقد حضره في هذه الآونة أمر كان يكتمه ـ ما أنت يا ابن عباس ! إنّي قد بلغني عنك كلام أكره أن أخبرك به فتزول منزلتك عندي .

قال ابن عباس : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ أخبرني به فإن يك باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه ، وإن يك حقّاً فإنّ منزلتي عندك لا تزول به .

قال عمر : بلغني أنّك لا تزال تقول : اُخذ هذا الأمر منّا حسداً وظلماً .

ــــــــــــ

(1) محمد (47) : 9 .

(2) القلم (68) : 4 .

(3) الشعراء (26) : 215 .

(4) القصص (28) : 68 .

(5) الأحزاب (33) : 33 .

فلم ينكص ابن عباس ولم يتزحزح عن مواطئ قدميه ، بل قال : نعم حسداً وقد حسد إبليس آدم فأخرجه من الجنة ، ونعم ظلماً وإنّك لتعلم يا أمير المؤمنين صاحب الحقّ من هو .. يا امير المؤمنين ، ألم تحتجّ العرب على العجم بحقّ رسول الله واحتجّت قريش على سائر العرب بحقّ رسول الله ؟ فنحن أحقّ برسول الله من سائر قريش وغيرها .

فقال عمر : إليك عنّي يا ابن عباس ، فلما رآه عمر قائماً يريد أن يبرح خشي أن يكون قد أساء إليه فأسرع يقول متلطّفاً به : أيّها المنصرف ! إنّي على ما كان منك لراعٍ حَقَّكَ .

فالتفت ابن عباس إليه وهو يقول ولم يزايله جدّه : إنّ لي عليك يا أمير المؤمنين وعلى كلّ المسلمين حقّاً برسول الله ، فمن حفظه فحقّ نفسه حفظ ، ومن أضاعه فحقّ نفسه أضاع (1) .

موقف الإمام عليه‌السلام من الشورى :

أَلمَّ الحزن والأسى بقلب الإمام عليّ عليه‌السلام ، وساورته الشكوك والمخاوف من موقف عمر وترشيحه ، فأيقن أنّ في الأمر مكيدةً دبّرت لإقصائه عن الخلافة وحرف الحكومة الإسلامية عن مسارها الصحيح ، وما إن خرج الإمام عليه‌السلام من عند عمر ؛ حتى تلقّاه عمّه العباس فبادره قائلاً :

يا عمّ ، لقد عُدِلَتْ عنّا ، فقال العباس : من أعلمك بذلك ، فقال عليّ عليه‌السلام : قُرن بي عثمان ، وقال عمر : كونوا مع الأكثر ، فإن رضي رجلان رجلاً ورجلان رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، فسعد لا يخالف ابن عمّه عبد

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 3 / 289 و 290 ط مؤسسة الأعلمي .

الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون ، فيوليها عبد الرحمن عثمان أو يوليها عثمان عبد الرحمن ، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني (1) .

وصدق تفرّس الإمام عليه‌السلام فقد آلت الخلافة إلى عثمان بتواطؤ عبد الرحمن ، فقد روي أنّ سعداً وهب حقّه في الشورى لابن عمّه عبد الرحمن ، ومال طلحة لعثمان فوهب له حقّه ، ولم يبق إلاّ الزبير فتنازل عن حقّ لصالح الإمام عليه‌السلام ، وهنا عرض عبد الرحمن أن يختار الإمام أو عثمان فقال عمار : إن أردت ألاّ يختلف المسلمون فبايع عليّاً ، فردّ عليه ابن أبي سرح : إن أردت ألاّ تختلف قريش فبايع عثمان . فتأكّد التوجّه غير السليم للخلافة وبدت أعراض الانحراف واضحة جلية تؤجّجها نار العصبية .

فعرض عبد الرحمن بيعته بشرط السير على كتاب الله وسنّة نبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وسيرة الشيخين ، فرفض الإمام سيرة الشيخين وقبلها عثمان فتمّت له البيعة ، فقال عليّ عليه‌السلام لعبد الرحمن : (حبوته حبو دهره ، ليس هذا أوّل يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) (2) . (والله ما فعلتها إلاّ لأنّك رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه ، دقَّ الله بينكما عطر منشم) (3) .

ثمّ التفت عليه‌السلام إلى الناس ليوضّح لهم خطأهم المتكرّر في الاستخلاف ورأيه في مصير الرسالة الإسلامية فقال :

(أيّها الناس ! لقد علمتم أنّي أحقّ بهذا الأمر من غيري ، أما وقد انتهى الأمر إلى ما

ــــــــــــ

(1) المصدر السابق : 5 / 226 .

(2) تاريخ الطبري : 3 / 297 ط مؤسسة الأعلمي .

 (3) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : 1 / 188 .

ترون ، فو الله لأُسالمنّ ما سَلِمَتْ أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور إلاّ عليّ خاصة ، التماساً لأجرِ ذلك وفضلِه ، وزهداً فيما تنافَسْتُموه من زُخرفه وزِبْرجه) (1) .

إنّ الإمام عليه‌السلام دخل مع الباقين في الشورى وهو يعلم بما ستؤول إليه ، محاولة منه لإظهار تناقض عمر ومن سار على نهجه عند وفاة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حين كان يرى أنّه لا تجتمع الخلافة والنبوّة في بيت واحد ، أمّا الآن فقد رشّح الإمام عليه‌السلام للخلافة .

روي عن أمير المؤمنين : (ولكنّي أدخل معهم في الشورى لأنّ عمر قد أهَّلني الآن للخلافة ، وكان قبل ذلك يقول : إنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال : إنَّ النبوّة والإمامة لا يجتمعان في بيت ، فأنا أدخل في ذلك لأظهر للناس مناقضة فعله لروايته) (2) .

وبايع الإمام عليه‌السلام عثمان بن عفّان سعياً منه أن يصلح الأُمة ويوجّهها ، وأن يحافظ على كيانها ، فلم يبخل على الأُمة بالنصيحة والهداية والتربية ، فإن أبعدت الخلافة عنه عليه‌السلام فإنّه لم يدّخر وسعاً إلاّ وبذله يوضّح الحقّ ويُرشد إليه ، ويهدي السبيل الصحيح ويُدلّ عليه ، ويعين الحاكم حين يعجز ، ويعلّمه إذ يجهل ، ويردعه إذ يطيش.

لماذا لم يوافق الإمام عليه‌السلام على شرط عبد الرحمن بن عوف ؟

لم يقف الإمام عليّ عليه‌السلام موقف المعارض للخليفتين لمصلحة خاصّة أو غاية شخصية ، إنّما لصالح الدين والأمة والعقيدة الإسلامية ، مبتعداً عن الأهواء والرغبات ، مستنداً على القرآن والسنّة في كلّ مواقفه ، حريصاً على الموضوعية والرسالية في كل قرار يتّخذه وهو الراعي لشؤون الرسالة والأمة في غياب الرّسول الأعظم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، لئلاّ يشوب الرسالة الإسلامية شيء يحيد بها عمّا نزلت من أجله .

وموقفه من رفض البيعة بشرط سيرة الشيخين نابع من هذا المنطلق ، فلا يوجد في أصل العقيدة شيء يصحّ أن يسمّى بسيرة الشيخين ، وإنّما هناك القرآن والسنّة النبوية ، فلو أنّ الإمام وافق بهذا الشرط ؛ لكان معناه إمضاء سيرة الشيخين كالسنّة النبويّة ، وإنّ في سيرة الشيخين أنواع التناقض والتفاوت فيما بينهما معاً ، بل فيما بينهما وبين القرآن والسنّة النبويّة الشريفة .

ــــــــــــ

(1) نهج البلاغة : الخطبة رقم 74 ، طبعة صبحي الصالح .

(2) شرح النهج لابن أبي الحديد : 1 / 186 .

ثمّ إنّ الإمام عليه‌السلام يرى أنّ دوره دور المربي بعد النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في هذه الأُمة ، فلم يكن من شأنه أن يوافق على أن يسير بسيرة الشيخين ثم يخالفها كما فعل عثمان حيث رضي بهذا الشرط ولكنّه لم يفِ به .

الفصل الرابع: الإمام علي عليه‌السلام في عهد عثمان (\*)

قال أمير المؤمنين عليّ عليه‌السلام واصفاً عهد عثمان :

(إلى أن قام ثالثُ القوم نافجاً حضنيه بين نَثيله ومعتلَفِه ، وقام معه بنو أبيه يخضَمون مال الله خِضْمَةَ الإبل نِبْتَةَ الربيع ، إلى أن انتكث عليه فتلُه ، وأجهز عليه عملُه ، وكبَتْ به بِطْنَتُهُ) (1) .

لم يكن عثمان كسابقيه سياسياً ماكراً يدير شؤونه بدقّة ، فما أن فرضه ابن عوف خليفة للمسلمين وجاءوا به يزفّونه إلى مسجد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ليعلن سياسة حكومته الجديدة وما أعدّ من مواقف لمستجدات الأمور ؛ صعد على المنبر فجلس في الموضع الذي كان يجلس فيه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، ولم يجلس فيه أبو بكر ولا عمر ، إذ كان أبو بكر يجلس دونه بمرقاة ، وعمر كان يجلس دونه أيضاً بمرقاة ، وتكلّم الناس في ذلك فقال بعضهم : اليوم ولد الشرّ (2) .

ولم يستطع أن يتكلّم ، فقال : أمّا بعد ، فإنّ أول مركب صعب ، وما كنا خطباء ، وسيعلم الله وإنّ أمراً ليس بينه وبين آدم إلاّ أب ميّت لموعوظ (3) .

ــــــــــــ

(\*) استخلاف عثمان بن عفان في ذي الحجّة سنة (23) هـ .

(1) نهج البلاغة : من الخطبة الشقشقية .

(2) تاريخ اليعقوبي : 2 / 163 ، والبداية والنهاية : 7 / 166 ن وتأريخ الخلفاء : 162 .

(3) راجع الموفقيات : 2 / 2 .

وقال اليعقوبي : فقام مليّاً لا يتكلّم ثم قال : إن أبا بكر وعمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالاً وأنتم إمام عادل أحوج منكم إلى إمام يشقّق الخطب وإن تعيشوا فسيأتيكم الخطْب ، ثم نزل (1) .

استهلّ عثمان أعماله بأمور جعلت عامّة المسلمين ينقمون عليه سوى أفراد عشيرته ـ بني أُمية ـ فقد جاهر بقبيلته وأظهر ميله لقوم معلناً أمويَّته ، فأخذ يسوّدهم ويرفعهم فوق رقاب الناس ، فوزّع مناصب الولاية على بني أُمية وسلّم إليهم مقاليد الأمور يعبثون بلا رادع لهم .

وقد تجاوز عثمان حدود سياسة سلطة العشير التي رسمها أبو بكر وعمر ، وحصر المناصب والمهامّ الرسمية ضمن دائرة ضيّقة هي بني أُمية .

ولم يعبأ بنصح وتحذير الصحابة وعلى رأسهم أمير المؤمنين عليه‌السلام ، فإنّ عثمان وصل إلى الحكم وقد استفحل التوجّه القبلي في مقابل النهج الصحيح للحكومة الإسلامية ، وقد ضعف دور العناصر الصالحة في تغيير سياسة الحاكم مباشرة ، فقد كان لسياسة أبي بكر وعمر من إبعاد أمير المؤمنين عليه‌السلام عن الحكم واعتمادهم على آرائهم الأثرُ الكبيرُ في انحراف خطّ السلطة الحاكمة وظهور التيار المعادي لخطّ أهل البيت عليهم‌السلام ، لذا فليس من السهل أن ينصاع الخليفة الجديد للنصح وحوله تيار المنافقين والطلقاء وذوو المصالح .

أبو سفيان بعد بيعة عثمان :

بعد أن تمّت بيعة عثمان ؛ أقبل أبو سفيان إلى دار عثمان بن عفان وقد غصّت بأهله وأعوانه تسودهم نشوة النصر والفوز بالحكم ، وقد بدت على ملامحه علامات الفرح والسرور ، تعلو شدقه بسمة حقود شامت ، ففي الأفق تلوح بوادر الاستعلاء بعدما أذلّ كبرياءَهم الإسلام ، فأدار وجهه يميناً وشمالاً قائلاً للحاضرين

ــــــــــــ

(1) تاريخ اليعقوبي : 2 / 163 .

المجتمعين في دار عثمان : أفيكم أحد من غيركم ؟ فأجابوه بالنفي فقال : يا بني أُمية ! تلقّفوها تلقّف الكرة ، فو الذي يحلف به أبو سفيان ما من جنّةٍ ولا نارٍ ، ولا حسابٍ ولا عقابٍ ... ولقد كنت أرجوها لكم ، ولتصيرنّ إلى صبيانكم وراثة (1) .

ثمّ سار إلى قبر سيّد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، فوقف على القبر وركله برجله وقال : يا أبا عمارة ! إنّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا يتلعّبون به (2) .

ملامح سلبيّة في حكم عثمان :

تعايش الإمام عليّ عليه‌السلام مع أبي بكر وعمر ، ولم يظهر معارضته العلنية لهما ، فقد كان الانحراف في مسيرة الحكومة الإسلامية مستتراً ، وكان الإمام عليه‌السلام يتدخّل في أحيان كثيرة لإصلاح موقف الخليفة الخاطئ فيستجيب له ، ولم يخشَ أبو بكر وعمر من الإمام عليه‌السلام إلاّ لكونه الممثّل الشرعي للأمة وصاحب الحقّ في الخلافة وقائداً لتيار المعارضة الذي يضمّ أجلاّء الصحابة ، ولكنّ الإمام تنازل عن حقّه في الخلافة فأمّن القوم من جانبه ، ولكنه لم يتنازل عن المبدأ الذي ورثه عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بكونه المراقب والمحافظ للعقيدة الإسلامية .

أمّا في فترة حكم عثمان فقد استشرى الفساد ودبَّ في أجهزة الدولة بصورة علنية مكشوفة ، وانتقلت العدوى إلى فئات المجتمع الإسلامي ، فوقف الإمام معلناً رفضه واستنكاره على عثمان بصورة علنية ، ووقف معه الصحابة الأجلاّء أمثال عمّار بن ياسر وأبي ذر ، بل حتّى الذين وقفوا موقف المعارض لخلافة أمير المؤمنين لم يرضوا على عثمان سوء إدارته وفساد حكومته ، ويمكن لنا أن نجمل طبيعة حكم عثمان وملامحه فيما يلي :

ــــــــــــ

(1) مروج الذهب : 1 / 440 .

(2) راجع الغدير : 8 / 278 ، والاستيعاب : 2 / 690 ، وتأريخ ابن عساكر : 6 / 407 ، والأغاني : 6 / 335 .

إن عثمان وصل إلى الحكم وقد تجاوز السبعين عاماً ، وكان وصولاً لأرحامه ولوعاً بحبّهم وإيثارهم ، فقد روي عنه قوله : لو أن بيدي مفاتيح الجنّة لأعطيتها بني أُمية حتى يدخلوا من عند آخرهم . كما أنّ عثمان عاش غنيّاً مترفاً قبل الإسلام ، وظلّ على غناه في الإسلام ، فلم يكن ليتحسّس معاناة الفقراء وآلام المحرومين ، فكانت شخصيته مزدوجة في التعامل مع الجماهير المحرومة التي تطالبه بالعدل والسوية ، فيعاملها بالشدّة والقسوة ، كما في تعامله مع عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وأبي ذر وغيرهم .

وأمّا من جهة أقربائه وقلّدهم الأمور ، فاستعمل الوليد بن عقبة ابن أبي معيط على الكوفة وهو ممّن أخبر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنّه من أهل النار ، وعبد الله ابن أبي سرح على مصر ، ومعاوية بن أبي سفيان على الشام ، وعبد الله بن عامر على البصرة ، وصرف الوليد بن عقبة عن الكوفة وولاّها سعيد بن العاص (1) .

وكان عثمان ضعيفاً أمام مروان بن الحكم ، يسمع كلامه وينفّذ رغباته ، حتى أنّه عندما تألّبت الأمصار على عثمان وتأزّمت الأوضاع ؛ تدخّل الإمام ليهدّئ الحالة ويرجع الثائرين ـ الذين جاءوا يطالبون بإصلاح السياسة الإدارية والمالية وتبديل الولاة ـ إلى بلدانهم ، وأخذ من عثمان شرطاً أن لا يطيع مروان بن الحكم وسعيد بن العاص .

ولكن بمجرد أن هدأت الأوضاع ؛ عاد مروان وحرّض عثمان على أن يخرج وينال من الثوار ، فخرج إليه الإمام عليّ عليه‌السلام مغضباً فقال : (أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلاّ بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الضعينة يُقاد

ــــــــــــ

(1) تأريخ اليعقوبي : 2 / 160 وتأريخ الطبري : 3 / 445 ط مؤسسة الأعلمي ، وأنساب الأشراف للبلاذري : 5 / 49 ، وحلية الأولياء : 1 / 156 ، وشيخ المضيرة أبو هريرة : 166 ، والغدير : 8 / 238 ـ 286 والنص والاجتهاد : 399 .

حيث يُسار به ، والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه) (1) ؟

وفي موقف آخر مع الوليد بن عقبة أنّ الخليفة عثمان غضب على الشهود الذين شهدوا على الوليد بشربه الخمر ودفعهم ، وهنا تدخّل الإمام وهدّد عثمان من عواقب الأمور ، فأمره الإمام عليه‌السلام باستدعاء الوليد ومحاكمته وإقامة الحد عليه ، وحين اُحضر الوليد وثبتت عليه شهادة الشهود ؛ أقام الإمام عليه‌السلام عليه الحدّ ممّا أغضب عثمان ، فقال للإمام : ليس لك أن تفعل به هذا ، فأجابه الإمام بمنطق الحقّ والشرع قائلاً : (بل وشرّ من هذا إذا فسق ومنع حقّ الله أن يؤخذ منه) (2) .

وأمّا سياسة عثمان المالية فقد كانت امتداداً لسياسة عمر من إيجاد الطبقية وتقديم بعض الناس على بعض في العطاء ، إلاّ أنّها أكثر فساداً من سياسة سابقه ، فقد أثرى بني أميّة ثراءً فاحشاً ، وحين اعترض عليه خازن بيت المال قال له : إنّما أنت خازن لنا ، فإذا أعطيناك فخذ وإذا سكتنا عنك فاسكت ، فقال : والله ما أنا لك بخازن ولا لأهل بيتك ، إنّما أنا خازن للمسلمين .. وجاء يوم الجمعة وعثمان يخطب فقال : أيّها الناس ! زعم عثمان أنّي خازن له ولأهل بيته ، وإنّما كنت خازناً للمسلمين ، وهذه مفاتيح بيت مالكم ، ورمى بها (3) .

موقف للإمام علي عليه‌السلام مع عثمان :

نقم المسلمون على عثمان ، وتصلّب خيار الصحابة في مواقفهم تجاه انحراف الخليفة وجهازه الحاكم ، وفي قبال ذلك أمعن عثمان بالتنكيل بالمعارضين والمندّدين بسياسته المنحرفة ، وبالغ في ذلك دون أن يرعوي لصحابة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، فمن ذلك أنّ أبا ذر الصحابيّ الجليل أكثَرَ من اعتراضه

ــــــــــــ

(1) الطبري : 3 / 397 ط مؤسسة الأعلمي .

(2) مروج الذهب : 2 / 225 .

(3) الطبقات لابن سعد : 5 / 388 ، وتاريخ اليعقوبي : 2 / 153 ، وأنساب الأشراف : 5 / 58 ، والمعارف لابن قتيبة : ص 84 ، وشيخ المضيرة أبو هريرة : 169 ، والغدير : 8 / 276 .

على مساوئ عثمان ، فسيّره إلى الشام ، ولم يطق معاوية وجوده فأرجعه إلى المدينة ، واستمرّ أبو ذر بجهاده وإنكاره السياسة الأموية ، فضاق عثمان به ذرعاً فقرّر نفيه إلى الربذة ومنع الناس من توديعه.

ولكنّ الإمام عليّاً عليه‌السلام خفّ لتوديعه ومعه الحسنان وعقيل وعبد الله بن جعفر ، فاعترضهم مروان بن الحكم ليردّهم ، فثار الإمام عليّ عليه‌السلام فحمل على مروان ، وضرب أذني دابته وصاح به : تنحَّ نحّاك الله إلى النار (1) ، ووقف الإمام عليّ عليه‌السلام مودّعاً أبا ذر فقال له : (يا أبا ذر ! إنّك غضبت لله فَارْجُ من غضبت له ، إنّ القوم خافوك على دنياهم ، وخفتهم على دينك ، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه ، واهرب بما خفتهم عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم ! وما أغناك عمّا منعوك ! وستعلم مَن الرابح غداً والأكثر حسداً !) (2) .

فلمّا رجع عليّ عليه‌السلام من توديع أبي ذر ؛ استقبله الناس فقالوا له : إنّ عثمان عليك غضبان ، فقال عليّ عليه‌السلام : (غضب الخيل على اللجم) .

الآثار السلبية لحكومة عثمان في الأُمة :

كانت حكومة عثمان استمراراً للخطّ السياسي الحاكم غير الواعي لمحتوى الرسالة سلوكاً ومعتقداً ، فتركت آثارها السيّئة على مسيرة الحكومة الإسلامية والأمة ككل ، وأضافت مثالب ومطاعن في وضوح الرسالة الإسلامية لدى الجماهير الإسلامية التي لم تعش مع القائد المعصوم ـ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ـ سوى عقد واحد رأته فيها حاكماً ومربيّاً ، واشتعلت نار الفتن في أطراف البلاد الإسلامية والتي جرّت على المسلمين الويلات والملمّات ، فإنّنا من خلال سبرنا أغوار التأريخ نستنتج ما يلي .

ــــــــــــ

(1) مروج الذهب : 2 / 350 .

(2) شرح النهج : 3 / 54 ، وذكر ذلك أبو بكر أحمد بن عبد العزيز في كتابه السقيفة ، وأعيان الشيعة : 3 / 336 .

1 ـ إنّ حكومة عثمان ابتعدت عن نهج الشريعة الإسلامية ، فعطّلت الحدود وأشاعت الفساد وتهاونت في محاسبة المسؤولين عن ذلك ، وهذا ما فسح المجال لشيوع الفوضى في السلوك الاجتماعي وبثّ روح التمرّد على القانون . وكان من مظاهر الفساد شيوع الاستهتار والاستخفاف بالقيم والأحكام الإسلامية ، فنجد أنّ بيوت الولاة والشخصيّات المتنفّذة تعجّ بحفلات الغناء ومجالس الخمرة (1) .

2 ـ ركّزت حكومة عثمان على روح العصبية القبلية التي شرّعها أبو بكر في نهجه السياسي القبلي ، فتوضّح في بروز سلطة بني أُمية كاُسرة لها سلطتها على جميع مرافق الدولة لا لشيء سوى أنّها ترى لنفسها السيادة الملطقة التي انتزعها الإسلام منها ، لأنّها ليس لها أساس شرعي، وأصبح بنو أُمية جبهة سياسية قويّة لها توجّهها المناوئ للإسلام وخصوصاً لخطّ آل البيت عليهم‌السلام فأصبحوا فيما بعد العقبة الرئيسة أمام حكم الإمام عليّ عليه‌السلام ، حيث تكتّلوا حول معاوية بن أبي سفيان في مواجهة الإمام عليّ عليه‌السلام .

3 ـ اعتبرت حكومة عثمان أنّ الحكم حقّ موهوب لهم ولا يحقّ لأحد انتزاعه ، واتخذوه وسيلةً لإرضاء رغباتهم المنحرفة وشهواتهم الشيطانية ، ولم تجعل من الحكم وسيلةً للإصلاح الاجتماعي ونشر الرّسالة الإسلامية في بقاع الأرض (2) ممّا شجّع الكثيرين في السعي للتسلّق إلى الحكم للتمتّع بالسلطة والجاه ، فعمرو بن العاص ومعاوية وطلحة والزبير لم يكونوا ينشدون من السعي للحكم أيّ هدف إنساني أو اجتماعي يعود بالنفع والمصلحة على الأُمة .

4 ـ خلقت حكومة عثمان طبقة كبيرة من الأثرياء (3) تتضرّر مصالحها مع الحكومة القائمة في مواجهةِ حكومة تطالب بتطبيق الحقّ والشرع ، ممّا أدّى إلى

ــــــــــــ

(1) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني : 7 / 179 .

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد : 3 / 64 ، وتأريخ الطبري : 5 / 341 ـ 346 .

(3) مروج الذهب : 2 / 342 .

تحرّك قطعات المسلمين الفقراء للمطالبة بالقوّة في إصلاح النظام المالي وتطوير الحياة الاقتصادية وتنظيم الدخل الفردي . وحركة أبي ذرّ تجاه الفساد المالي للحكومة خير شاهد ودليل على عمق تفشّي الفقر في أوساط الأُمة .

5 ـ إنّ استعمال العنف والقوّة والشدّة والقسوة في التعامل مع المعترضين وإهانتهم ولّد ردّة فعل معاكسة للثورة على النظام القائم عسكرياً ، وكان مقتل عثمان نقطة تحوّل في الصراعات الدائرة بين وجهات نظر المسلمين ، فعمل السيف عمله في أفراد الأُمة وأجّجه وزاد فيه تعنّت بني أمية ومن والاهم على تحدّي الحقّ ورغبة الأُمة في الإصلاح .

وهذا ما فسح المجال أمام النفعيّين في الوصول إلى الحكم بقوّة السيف بعد أن افترقت الأُمة الإسلامية في توجّهاتها السياسية ، كلّ فرقة تريد الحكم لنفسها .

6 ـ خلّف مقتل عثمان فتنةً يتأجّج أوارها كلّ حين ، وشعاراً يرفعه النفعيّون والخارجون على الطاعة والبيعة لإثارة المشاكل والحروب تجاه حكومة شرعية جماهيرية بزعامة الإمام عليّ عليه‌السلام ، وتكامل دور الفتنة والشقاق على يد معاوية فيما بعد ، فحارب الإمام عليه‌السلام وسالت دماء المسلمين كثيراً ، ثمّ حرّفوا التوجّه الديني الصحيح إلى ثقافة مشبوهة يحرّكون بها المجتمع لغرض إدامة سلطانهم الذي تحوّل إلى ملك متوارث ، يساعدهم على ذلك سعة الدولة الإسلامية الجديدة ووجود فئات واسعة من المجتمع الإسلامي لم تفهم العقيدة الإلهية بوعي وبصيرة .

7 ـ من نتائج الثورة على عثمان أن وجدت فئات مسلّحة من مختلف الأقطار الإسلامية لا زالت تحيط بالمدينة تنتظر مصير الحكومة ، كما أنّ الأحداث أثبتت وشجّعت على تحرّك الجماهير لتغيير الحكم بالقوّة ، وهذا يعتبر ورقةَ ضغطٍ قويّةً تؤثّر على الحكم الجديد .

الباب الرّابع فيه فصول :

الفصل الأوّل : الإمام عليّ عليه‌السلام بعد مقتل عثمان.

الفصل الثاني : الإمام عليّ عليه‌السلام مع الناكثين.

الفصل الثالث : الإمام عليّ عليه‌السلام مع القاسطين.

الفصل الرابع : الإمام عليّ عليه‌السلام مع المارقين.

الفصل الخامس : الإمام عليّ عليه‌السلام شهيد محراب.

الفصل السادس : تراث الإمام عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام.

الفصل الأول: الإمام عليّ عليه‌السلام بعد مقتل عثمان

بيعة المسلمين للإمام عليّ عليه‌السلام (\*) :

سادت الفوضى أرجاء المدينة بعد مقتل عثمان ؛ فاتّجهت الأنظار والآراء إلى الإمام عليّ عليه‌السلام لينقذ الأمة من محنتها وتخبّطها ، ولم يتجرّأ أحد أن يدّعي أحقيّته بالخلافة التي تكتنف طريقها المشاكل المستعصية ، كما أنّ الظرف السياسي لم يمهل عثمان أن يتّخذ قراراً بشأن الخلافة كما اتّخذ صاحباه من قبل ، ولم يكن المتبقّي من أصحاب الشورى يملك مؤهّلات الخلافة أصلاً ، فكيف وقد تعقّدت الأمور وتدهور وضع الدولة وكيانها ، ولابدّ أن يتزعّم الأمة قائدٌ يملك القدرة للنهوض بالأمة بعد انحطاطها وقيادتها لاجتياز الأزمة وصيانتها عن الضياع ، ولم يكن من شخص إلاّ الإمام عليّ عليه‌السلام راعيها وسيّدها .

تحرّكت جماهير المسلمين بإصرار نحو الإمام عليّ عليه‌السلام لتضغط عليه كي يقبل قيادتها ، ولكنّ الإمام عليه‌السلام استقبل الجماهير المندفعة بوجوم وتردّد ، فقد حُرِم منها وهو صاحبها وجاءته بعد أن امتلأت الساحة انحرافاً والأمة تردّياً ، وتجذّرت فيها مشاكل تستعصي دون النجاح في المسيرة ، فقال لهم : (لا حاجة لي

ــــــــــــ

(\*) تمّت بيعة الإمام عليّ عليه‌السلام في ذي الحجّة عام (35) هـ.

في أمركم أنا معكم فمن اخترتم رضيت به فاختاروا) (1) . وقال عليه‌السلام : (لا تفعلوا فإنّي أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً) (2) .

وأوضح لهم الإمام عليه‌السلام عمّا سيجري فقال : (أيّها الناس ! أنتم مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تقوم به القلوب ، ولا تثبت له العقول ...) (3) وأمام إصرار الجماهير على توليته الأمر قال لهم : (إنّي إن أجبتُكم ركبتُ بكم ما أعلم ... وإن تركتموني فإنّما أنا كأحدكم ، ألا وإني من أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم )(4) .. وتكاثرت جموع الناس نحو الإمام وقد وصف عليه‌السلام توجّههم نحوه مطالبين قبوله بالخلافة بقوله : (فما راعني إلاّ والناس كعرف الضبع ينثالون عليَّ من كلّ جانب حتى لقد وطئ الحسنان وشقّ عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم) (5) .

لم يكن الإمام حريضاً على السلطان ، بل كان حرصه أن ينقذ ما بقي من الأمة ، وأن يحافظ على الشريعة الإسلامية نقيّةً من الشوائب والبدع ، فَقبِلَ أن يتولّى أمر الخلافة ولكنّه أخَّر القبول إلى اليوم الثاني ، وأن تكون بيعة الجماهير علنيةً في المسجد ، رافضاً بذلك أسلوب بيعة السقيفة والتوصية والشورى ، وفي الوقت ذاته ليعطي الأمة فرصةً أخرى كي تمتحن عواطفها وقرارها في الخضوع له ، فقد ضَيَّعَتْ فيما سبق نصوص النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم على خلافته فانحرفت . ومن هنا قال عليه‌السلام : (والله ما تقدّمت عليها ـ أي الخلافة ـ إلاّ خوفاً من أن ينزو على الأمة تيسٌ علج من بني أمية فيلعب بكتاب الله عَزَّ وجَلَّ) (6) .

لقد كانت خطورة الموقف من نفوذ بني أمية في مراكز الدولة وطمعهم الشديد للسلطان في حالة من غياب الوعي الرسالي في المجتمع .

ــــــــــــ

(1) تاريخ الطبري : 3 / 450 ط مؤسسة الأعلمي .

(2) المصدر السابق .

(3) و (4) نهج البلاغة : الكلمة (92) .

(5) نهج البلاغة : الخطبة (3) المعروفة بالشقشقية .

(6) عن أنساب الأشراف 1 : ق 1 / 157 .

وما أن أقبل الصباح ؛ حتى حفّت الجماهير بالإمام عليه‌السلام تسير نحو المسجد ، فاعتلى المنبر وخاطب الجماهير : (يا أيّها الناس ! إنّ هذا أمركم ليس لأحدٍ فيه حقّ إلاّ من أمَّرْتُم ، وقد افترقنا بالأمس وكنت كارهاً لأمركم ، فأبيتم إلاّ أن أكون عليكم ، ألا وإنّه ليس لي أن آخذ درهماً دونكم ، فإن شئتم قعدت لكم ، وإلاّ فلا آخذ على أحد ...) .

فهتفت الجماهير بصوت واحد : نحن على ما فارقناك عليه بالأمس .. وقالوا : نبايعك على كتاب الله ، فقال عليه‌السلام : اللّهمّ اشهد عليهم (1) .

وتدافع الناس كالموج المتلاطم إلى البيعة ، فكان أوّل من بايع طلحة بيده الشلاّء والذي سرعان ما نكث بها عهد الله وميثاقه ، وجاء بعده الزبير فبايع ، ثمّ بايعه أهالي الأمصار وعامّة الناس من أهل بدر والمهاجرين والأنصار عامّة .

كانت بيعة الإمام عليّ عليه‌السلام أول حركة انتخاب جماهيرية ، ولم يحضَ أحد من الخلفاء بمثل هذه البيعة ، وبلغ سرور الناس ببيعتهم أقصاه ، فقد أطلّت عليهم حكومة الحقّ والعدل ، وتقلّد الخلافة صاحبها الشرعي ناصر السمتضعفين والمظلومين ، وفرحت الأمة بقبول الإمام للخلافة كما وصف الإمام عليه‌السلام ذلك بقوله : (وبلغ سرور الناس ببيعتهم إيّاي أن ابتهج بها الصغير ، وهَدَجَ اليها الكبير ، وتحامل نحوها العَليل ، وحَسَرَتْ إليها الكِعاب) (2) .

المتخلّفون عن بيعة الإمام عليه‌السلام :

إنّه لأمر طبيعيّ أن يقف ضد الحقّ أو يحايد من ساءت سريرته وضعف يقينه وأضمرت نفسه الحقد والحسد ، فرغم أنّ الإمام علياً عليه‌السلام هو الخليفة الشرعي كما نصّت على ذلك الأحاديث النبويّة الشريفة ، وأكدّها تأريخ الرسالة الإسلامية بأنّ خير من يصون الأمة والرسالة بعد غياب النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم هو الإمام

ــــــــــــ

(1) أنساب الأشراف : 5 / 22 .

(2) نهج البلاغة : الكلمة (229) .

عليّ عليه‌السلام لما له من قابليات ومؤهّلات لا تتوفر لغيره من المسلمين ، كما وأنّ الأمة هي التي فزعت إلى الإمام بكل شرائحها وفئاتها ترتجي منه قبول الخلافة ، لكنّنا نجد أنّ فئة قليلة اتّسمت بالانحراف عن الحقّ والجبن في مواجهته بدأت ترتدّ عن بيعتها .

لقد كان تخلّفهم خرقاً لإجماع الأمة وتحدّياً لبيعتها ، وبذلك فتحوا باباً جديدة في تأجيج الفتنة واستمرار الصراع الداخلي ، ومن هؤلاء المتخلّفين : سعد ابن أبي وقّاص ، وعبد الله بن عمر ، وكعب بن مالك ، ومسلمة بن مخلد ، وأبو سعيد الخدري ، ومحمد بن مسلمة ، والنعمان بن البشير ، ورافع بن خديج ، وعبد الله بن سلام ، وقدامة بن مظعون ، وأسامة بن زيد ، والمغيرة بن شعبة ، وصهيب بن سنان ، ومعاوية بن أبي سفيان (1) .

ولكنّ بعضهم ندم على تفريطه في أمر بيعة الإمام ، وأما موقف الإمام عليه‌السلام من هؤلاء فإنّه لم يتعرّض لأحد منهم بأيّ سوء ، وتركهم وحالهم في الأمة لهم ما للناس وعليهم ما على الناس .

عقبات في طريق حكومة الإمام عليه‌السلام :

وصل الإمام عليّ عليه‌السلام إلى الحكم بعد ربع قرن من عزله عن ممارسة الحكم الإسلامي وقيادة الأمة والدولة ، وهما يسيران في مسارات منحرفة للسلطات التي حكمت طيلة هذه الفترة ، فكان هذا عاملاً مؤثّراً في إضعاف موقف الإمام عليه‌السلام من الأحداث ، فطوال الفترة السابقة أَلِفَ الناس أن يروا الإمام محكوماً لا حاكماً ، محكوماً لأناس أقلّ كفاءةً وشأناً منه .. كما أنّ عدداً من الشخصيات تنامى لديها الشعور بالمنافسة وبلوغ قمّة السلطة لتحقيق أغراضهم الشخصية ، فالزبير في السقيفة كان يدافع عن حقّ الإمام عليه‌السلام مقابل الفئات المندفعة نحو السلطة ، ثمّ نجده اليوم ينازع الإمام على السلطة ، ومعاوية الطليق ابن الطليق أصبح بعد هذه المدّة مناوئاً قويّاً يهدّد كيان الدولة .

وأيضاً ممّا أعاق حركة الإمام أنّ العناصر التي وقفت ضدّه على الخطّ المنحرف كان أغلبهم ممّن له صحبة مع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وهذا ممّا انخدع به أعداد كبيرة من المسلمين ، وعقّد الأمر على نجاح حكومته عليه‌السلام واستمراره في الحكم .

ــــــــــــ

(1) تاريخ الطبري : 3 / 452 ط مؤسسة الأعلمي .

إضافة إلى أنّ الإمام عليه‌السلام استلم دولة مترامية الأطراف ، ففي زمن أبي بكر لم تكن تتجاوز الدولة الإسلامية حدود الجزيرة والعراق ، أمّا في عهد الإمام فإنّها تمتد إلى شمال أفريقيا وأواسط آسيا إضافةً إلى تمام الجزيرة والعراق والشام ، وقد دخل في الإسلام أقوام من غير العرب ، وهؤلاء المسلمون الجدد فتحوا عهدهم مع الإسلام في ظلّ حكومة غير معصومة ، بل منحرفة عن الخطّ الصحيح للرسالة الإسلامية ، وكان على حكومة الإمام القيام بمهامّ رئيسية في أقصر وقت مع وجود الصراع الداخلي فمنها :

1 ـ هدم الكيان الطبقي الذي أنشأه الخلفاء وذلك عبر :

أ ـ المساواة في العطاء بين المسلمين جميعاً ، متّبعاً في ذلك سنّة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم التي أهملها من كان قبله من الخلفاء ، وقد أوضح في خطبته سياسة التوزيع النابعة من حكم الله (إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ) فقال :

(ألا وأيّما رجلٍ استجاب لله وللرسول فصدّق ملّتنا ودخَل في ديننا واستقبل قبلتنا ؛ فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده ، فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يُقسّم بينكم بالسويّة ، لا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتّقين عند الله غداً أحسن الجزاء وأفضل الثواب) (1) .

ب ـ استرجاع الأموال المنهوبة من بيت المال في عهد عثمان ، فقد أعلن الإمام أنّ الأموال المأخوذة بغير حقّ ـ وما أكثرها في عهد عثمان ـ لابدّ أن ترجع

ــــــــــــ

(1) بحار الأنوار : 32 / 17 و 18 .

إلى بيت المال ، حيث كانت الأموال الطائلة عند طبقة محيطة بالخليفة أو أنّ عثمان كان يعطيها ليستميلها إليه . فقال عليه‌السلام : (ألا إنّ كلّ قطيعة أقطعها عثمان وكلّ مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال ، فإنّ الحقّ لا يبطله شيء ، ولو وجدته قد تُزوج به النساء ومُلك به الإماء وفرِّق في البلدان لرددته ، فإنّ في العدل سعةً ، ومن ضاق عليه العدل ، فالجور عليه أضيق) (1) .

هذه السياسة المالية لم ترق لقريش ، فقد كان العايد من أقطابها تنالهم قرارات الإمام وهم في أنفة الطغيان والتكبّر والاستعلاء ، مثل : مروان بن الحكم وطلحة والزبير ، فما أن استوثقوا الجدّ في عمل الإمام حتى بدأوا بإثارة الفتن والإحَن أمام حكومة الإمام ، حتى أن طلحة والزبير جاء إلى الإمام عليه‌السلام يعترضان على ذلك فقالا : إنّ لنا قرابةً من نبي الله وسابقةً وجهاداً ، وإنّك أعطيتنا بالسوية ولم يكن عمر ولا عثمان يعطوننا بالسوية ، كانوا يفضّلونا على غيرنا .

فقال عليه‌السلام : فهذا كتاب الله فانظروا ما لكم من حقٍّ فخذوه ، قالوا : فسابقتنا ! قال عليه‌السلام : أنتما أسبق منّي ؟ قالا : لا ، فقرابتنا من النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ! قال عليه‌السلام : أقرب من قرابتي ؟ قالا : لا ، فجهادنا ، قال عليه‌السلام : أعظم من جهادي ؟ قالا : لا ، قال عليه‌السلام : فو الله ما أنا في هذا المال وأجيري إلاّ بمنزلة سواء (2) .

ج ـ المساواة أمام حكم الله تعالى :لم يكن الإمام عليه‌السلام غافلاً عن تطبيق أحكام الشريعة في عهد من سبقه من الخلفاء ، فكان يحكم ويفصل بالحقّ والعدل ، إذ يعجز غيره ، وما أن استلم زمام أمور الدولة ؛ حتى ضرب أروع صنوف العدل وسلك أوضح سبل الحقّ مظهراً عدل الشريعة الإلهية وقدرة الإسلام على إقامة دولة تنعم بالحرية والأمان والعدل .

ومواقف الإمام عليه‌السلام كثيرة وما كان يتحرّج أن يجري القانون على نفسه وأهل

ــــــــــــ

(1) نهج البلاغة : الخطبة (15) .

(2) بحار الأنوار : 41 / 116 .

بيته وأصحابه ، فقد ترافع مع اليهودي إلى شريح القاضي ليفصل بينهم في درع افتقده عليه‌السلام (1) .

وقد كانت أحكام الإمام في فصل القضاء نابعة من عمق الشريعة وسعة علم الإمام بأمور الدين والدنيا ، وتدلّ على العصمة في الفكر والعمل .

2 ـ التنظيم الإداري وإعادة السيطرة المركزية للدولة :

فقد قام الإمام عليه‌السلام بإعفاء الولاة الذين عيّنهم عثمان من مناصبهم ، ونصب ولاة كانوا جديرين بهذه المهمّة ، وهم محلّ ثقة المسلمين ، فأرسل عثمان بن حنيف الأنصاري بدلاً عن عبد الله بن عامر إلى البصرة ، وعلى الكوفة أرسل عمارة بن شهاب بدلاً عن أبي موسى الأشعري ، وعلى اليمن عبيد الله بن عبّاس بدلاً عن يعلى بن منبه ، وعلى مصر قيس بن سعد بن عبادة بدلاً عن عبد الله بن سعد ، وعلى الشام سهل بن حنيف بدلاً من معاوية بن أبي سفيان ، كلّ هذا لسوء سيرة الولاة السابقين وفساد إداراتهم حتى آخر لحظة ، فقد استولى يعلى بن منبّه على بيت مال اليمن وهرب به ، وحرّك معاوية قوّة عسكرية لصدّ سهل بن حنيف عن ممارسة مهامّه الجديدة (2) .

وفي عملية اختيار الولاة الجدد كان الإمام عليه‌السلام دقيقاً وموضوعياً وحريصاً على تطبيق الشريعة الإسلامية بجهازه الإداري الجديد ، وقد أعاد الثقة للأنصار بأنفسهم ورفع معنويّاتهم ، إذ أشركهم في الحكم ، كما أنّ الإمام لم يكن مستعدّاً لقبول الحلول المنحرفة أو أنصاف الحلول ، فقد كان حازماً في اجتثاث الفساد ، فقد رفض عليه‌السلام اقتراح إبقاء معاوية على الشام حتّى يستقر حكم

ــــــــــــ

(1) السنن الكبرى : 10 / 136 ، وتأريخ دمشق : 3 / 196 ، وقد وردت مواقف الإمام هذه في عدّة مصادر منها : الأغاني : 16 / 36 ، والبداية والنهاية : 8 / 4 ، والكامل في التأريخ : 3 / 399 ، والصواعق المحرقة : 78 .

(2) تأريخ الطبري : 3 / 462 ط مؤسسة الأعلمي .

الإمام ثمّ تنحيته فيما بعد (1) .

حاول الإمام فرض سيطرة الخلافة المركزية على ولاية الشام بعد أن امتنع معاوية فيها عن البيعة ، فدفع الراية إلى ولده محمد بن الحنفية ، وولّى عبد الله بن عبّاس على ميمنته وعمر بن أبي سلمة على الميسرة ، ودعا أبا ليلى بن عمر بن الجرّاح فجعله على مقدّمة الجيش ، وخطب في أهل المدينة وحثّهم على القتال ، ولكن حال دون التحرّك وصول خبر خروج طلحة والزبير على حكم الإمام إلى البصرة بعد أن كانا قد استأذناه في الخروج للعمرة فأذن لهم ، وكان قد حذّرهم من نكث البيعة (2) .

محاور عمل الإمام عليه‌السلام في الأمة :

هناك دور مفروض في الشريعة الإسلامية لشخصيّة يرعى شؤون الرسالة الإسلامية وديمومتها في الحياة ومقاومتها في الصراع مع التيارات المختلفة بعد غياب النبيّ القائد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وقد نصّت الشريعة على أنّ الإمام عليّاً عليه‌السلام ومِن بعده أبناءه هم المعنيّون بذلك .

وممارسة دور الراعي والقائد لشؤون الرسالة تقتضي أن يتولّى الإمام المعصوم أعلى السلطات في الدولة ، ولكن بعد وفاة الرسول تدخّلت عناصر غير مؤهّلة لذلك في ظرف معقّد فاستولت على السلطة ، ولم يكن ذلك ليمنع الإمام عليه‌السلام عن ممارسة دوره ، ولكن طبيعة الصراع تقتضي تعدّد الدور وتنوّعه ، فعمل الإمام عليّ عليه‌السلام على محورين في محاولة منه لإصلاح انحراف الأمة والمحافظة على عقائدها ومقدّساتها :

المحور الأول : السعي لاستلام مقاليد الحكم وزمام التجربة ، والنهوض بالأمة

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 3 / 461 و 462 ط مؤسسة الأعلمي ، والبداية والنهاية : 7 / 255 .

(2) تأريخ الطبري : 3 / 469 .

في الاستمرار بمسيرتها نحو هدفها السماوي الذي فرضه الله سبحانه وتعالى . وقد عمل الإمام على هذا المحور بعد وفاة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مباشرة ، كما عبّر عن مسؤوليته تجاه هذا الأمر بقوله عليه‌السلام : (لو لا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم ؛ لألقيت حبلها على غاربها) (1) .

فحاول الإمام عليه‌السلام تعبئة الأمة ، ولكنّه لم يتمكّن أن يصل إلى حدّ إنجاح هذه المحاولة لأسباب منها :

1 ـ عدم وعي الأمة لرزيّة يوم السقيفة وما جرى فيها من مؤامرات سياسية وتوجّها خاطئة كانت خافية على شريحة كبيرة من الأمة .

2 ـ عدم فهم دور ومسؤولية الإمام والإمامة ، فقد تصوّروه مطلباً شخصياً وهدفاً فردياً ، ولكنّ الحقيقة أنّ دخول الإمام في مواجهة الحاكمين كان بوعي رسالي وإرادة صادقة لاستمرار الرّسالة الإسلامية نقيةً كما شرّعها الله بعيدةً عن الزيغ والانحراف ، ومضحّياً بكلّ شيء من أجل ذلك حتى لو كان ذلك تعدّياً على حقّ الشخصيّ ، فالمقياس هو سلامة الرسالة وديمومتها على أسس الحقّ والعدل الإلهي وهو القائل : (إعرف الحقّ تعرف أهله) (2) وقد قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : (عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ) (3) .

كما أنّ الإمام عليّاً عليه‌السلام عمل بشمولية وعلى جميع المستويات موفّقاً بين النظرية والتطبيق ، فربّى أصحابه على أنّهم أصحاب الأهداف الرسالية لا أصحاب الأشخاص يميلون مع هذا الطرف أو ذاك، ونجد أنّ الإمام رفض أن يستلم الحكم بشرط السير بسيرة من قبله ، إذ كانت تسيء إلى الرسالة والمجتمع .

3 ـ الرواسب الجاهلية المتأصّلة في فكر الأمة ، فالعهد قريب ولم تدرك الأمة عمق الرسالة والرسول ودور الإمام ، فتصوّروا أنّ عهد النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بالوصاية للإمام عليه‌السلام مجرّد عملية ترشيح لأحد أعضاء أسرته ، وإنّه قد يهدف لإحياء أمجاد أسرة متطلّعة للمجد والسلطان كما هو دأب غالب الحكّام قبل النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وبعده .

ــــــــــــ

(1) نهج البلاغة : الخطبة الشقشقية .

(2) بحار الأنوار : 6 / 179 ط الوفاء .

(3) راجع سنن الترمذي : 2 / 298 وتاريخ بغداد : 14 / 321 .

4 ـ دور المنافقين وأطماعهم في زعزعة الاستقرار الأمني والاجتماعي ، ومحاولة إثارة النوازع والأحقاد بين صفوف المسلمين ، وتغلغلهم في صفوف الجهاز الحاكم والدولة ويزدادون توغّلاً إذا كان الحاكم ضعيفاً أو منحرفاً .

5 ـ الأمراض النفسية لدى المتصدّين للزعامة ، فكان الشعور بالنقص لديهم تجاه الإمام عليّ عليه‌السلام بدرجة عالية ، حيث كان الإمام عليه‌السلام يمثّل تحدّياً بوجوده ، بصدقه ، بجهاده ، بصراحته ، باستبساله وشبابه . (كما ورد في كتاب معاوية لمحمد ابن أبي بكر) (1) .

المحور الثاني : وحين لم يفلح المحور الأوّل في بلوغ هدفه عمل الإمام عليه‌السلام بمنهجية أخرى ، ألا وهي تحصين الأمة ضد الانهيار التامّ وإعطاؤها من المقوّمات القدر الكافي كي تتمكّن من البقاء صامدة في مواجهة المحنة بعد استيلاء فئة غير كفوءة على السلطة وانحدار الأمة عن جادّة الحقّ والصواب بسببها .

فاجتهد الإمام عليه‌السلام في تعميق الرسالة فكرياً وروحياً وسياسياً في صفوف الأمة ، وتقديم الوجه الحقيقي للنظرية الإسلامية عبر أساليب منها :

1 ـ التدخّل الإيجابي في عمل الزعامة المنحرفة بعد أن كانوا لا يحسنون مواجهة ومعالجة القضايا الكثيرة البسيطة منها والمعقدة . وتوجيههم نحو المسار الصحيح لإنقاذ الأمة من مزيد الضياع ، فكان دور الإمام عليه‌السلام دور الرقيب الرسالي الذي يتدخّل لتقويم الأود.

ونجد الإمام يتدخّل للردّ على شبهات المنكرين للرسالة بعد أن عجز

ــــــــــــ

(1) وقعة صفّين : 119 .

المتصدّي للزعامة عن ذلك ، ونجده أيضاً يتدخّل ليعطي للخليفة نصائح عسكرية أو اقتصادية ، وما أكثر نصائحه ومعالجاته القضائية (1) !

2 ـ توجيه مسار سياسة الخليفة ومنعها من المزيد من الانحراف من خلال الوعظ والنصيحة ، وبدا هذا الأسلوب جليّاً في عهد عثمان بن عفان حيث كان لا يقبل التوجيه والنصيحة .

3 ـ تقديم المثل الأعلى للإسلام والصورة الحقيقية لطبيعة وشكل الحكم والمجتمع الإسلامي ، وقد ظهر هذا واضحاً في فترة حكومة الإمام عليه‌السلام ، وعلى هذا الأساس استند قبول الإمام للحكم بعد أن رفضه ، فقد مارس دور القائد السياسي المحنّك والحاكم العادل ونموذج الإنسان الذي صاغته الرسالة الإسلامية وكان مثالاً يُحتذى به لبلوغ هدف الرسالة ، فهو المعصوم عن الخطأ والزلل والدنس في الفكر والعمل والسيرة .

4 ـ تربية وبناء ثلّة صالحة من المسلمين تُعين الإمام عليه‌السلام في حركته الإصلاحية والتغييرية ، وذلك عبر تحرّكها في وسط الأمة لإنضاج أفكارها وتوسيع قاعدة الفئة الواعية الصالحة ، وتستمر في مسيرها عبر التأريخ لتتواصل الأجيال اللاحقة في العمل وفق النهج الإسلامي (2) .

5 ـ إحياء سنّة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والتنبيه عليها وتدوينها والاهتمام بالقرآن تلاوةً وحفظاً وتفسيراً وتدويناً ، إذ هما عماد الشريعة، ولابدّ أن تدرك الأمة حقائق القرآن والسنّة كما شُرّعت وكما أريد لها أن تفهمها .

الثقافة الإسلامية في حكم الخلفاء (\*) :

من أخطر المشاكل التي تواجهها الرسالات والعقائد هو تصدّي الفئات

ــــــــــــ

(1) تأريخ اليعقوبي : 2 / 133 ، 145 .

(2) أهل البيت تنوّع أدوار ووحدة هدف للشهيد السيد محمّد باقر الصدر : 59 ـ 69 .

(\*) للمزيد من التفصيل راجع معالم المدرستين للسيد مرتضى العسكري : 2 / 43 .

العاجزة والفارغة فكرياً للدفاع عنها أو تطبيقها ، وحين يتعرّض المتصدّون للزعامة للاختبار لمعرفة رأي الرسالة ومدى علمهم بها فإنّ سكوتهم أو اختلافهم سيزرع شكّاً لدى الجماهير ويزعزع ثقتهم بالرسالة ومقدرتها على مجاراة الحياة ، ومن ثَمّ يتحوّل الشكّ إلى حالة مرضية تجعل الأمة تتقاعس عن التفاعل مع الرسالة أو الدفاع عنها في معترك الصراعات وخضمّ الأزمات ، ومن هنا نجد تصدّي النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لكلّ قضيّة غامضة أو مجهولة تبدو هنا أو هناك في حياة الأمة حيث يعطي الموقف الواضح للرسالة منها ، كما ترى ذلك جليّاً في سيرة الإمام عليّ عليه‌السلام من بعده خلال حكم الخلفاء الثلاثة حين كان يظهر للناس عجزهم وقصورهم العلمي والعملي ، إذ فسح عليه‌السلام المجال إلى أقصاه للبحث والسؤال عندما تسلّم زمام الحكم.

وحين أدركت الفئة الحاكمة أنّها ليست المؤهّلة للحكم وأنّها قاصرة علمياً ؛ اتّخذت عدّة إجراءات لمعالجة هذه المثالب منها :

1 ـ منع نشر أحاديث رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لما فيها من التوجيه العلمي والبعث نحو الوعي والفاعلية في الحياة ، إضافةً إلى أنّ أحاديث الرسول تعلن بوضوح أنّ أهل البيت هم المعنيّون بالخلافة وشؤون الرسالة دون من عداهم ، ومن هنا نعلم السرّ في رفع شعار (حسبنا كتاب الله) الذي تحدّى قائله به رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في مرضه عندما أراد أن يدوّن كتاباً لن تضلّ الأمة من بعده .

ويبدو أنّ ظاهرة تحديد أو منع نشر أحاديث النبيّ بدأت قبل هذا التأريخ ، وذلك عندما منعت قريش عبد الله بن عمرو بن العاص بن كتابة الأحاديث (1) ، كما قامت السلطة الحاكمة بحرق الكتب التي تضمّنت نصوصاً من أحاديث الرسول (2) .

ــــــــــــ

(1) سنن الدارمي : 1 / 125 ، وسنن أبي داود : 2 / 262 ، ومسند أحمد : 2 / 162 وتذكرة الحفّاظ : 1 / 2 .

(2) طبقات ابن سعد : 5/ 140 ط ، بيروت .

2 ـ إنّ ظاهرة النهي عن السؤال عمّا لا يُعلم من معاني الآيات القرآنية تعني تجريد الأمة من سلاح البحث والتحقيق والتعلّم للقرآن نفسه بعد عزل السنّة عن القرآن ، والاهتمام بظواهر القرآن من دون فسح المجال للتدبّر والتفقّه في آياته وأحكامه حتى أوصى عمر عمّاله قائلاً : (جرّدوا القرآن وأقلّوا الرواية عن محمّد وأنا شريككم) . بل إنّه عاقب كلّ من يسأل عن تفسير آيات القرآن (1) .

3 ـ فتح باب الاجتهاد في مقابل النصّ ، فقد اجتهد أبو بكر في جملة من الأحكام من دون أن يستند إلى نصّ قرآني أو حديث عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، ومن ذلك مصادرة تركة النبيّ ومنع أهل البيت من حقّهم في الخمس ، وإحراقه الفجاءة السلمي (2) وفتواه في مسألة الكلالة (3) وفتواه في إرث الجدّة (4) ، كما اجتهد عمر بن الخطّاب في التمييز في العطاء خلافاً لسنّة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم (5) واجتهد في منع متعتي الحجّ والنساء وغيرها ممّا تجده في كتاب (النصّ والاجتهاد) (6) ، وقد اجتهد عثمان بن عفّان في إسقاط القود عن عبيد الله بن عمر (7) وتأوّل في جملة من الأحكام الصريحة خلافاً لما قرّره رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حتى ثار عليه المسلمون كما عرفت .

كلّ هذه الأمور وغيرها أثارت للدولة الإسلامية وللأمة المسلمة الكثير من المصاعب والمصائب التي كانت السبب الرئيس في انحراف المسيرة المقرّرة للرسالة الإسلامية ووقوع الكثيرين في شِباك الفتن والضلالة حتى قال الإمام عليّ عليه‌السلام عن ذلك :

ــــــــــــ

(1) تاريخ ابن كثير : 8 / 107 ، وسنن الدارمي : 1 / 54 ، وتفسير الطبري : 3 / 38 والإتقان للسيوطي : 1 / 115.

(2) تأريخ الطبري : 2 / 448 ط مؤسسة الأعلمي .

(3) سنن الدارمي : 2 / 365 ، والسنن الكبرى للبيهقي : 6 / 223 .

(4) سنن الدارمي : 2 / 359 ، واُسد الغابة : 3 / 299 .

(5) فتوح البلدان : ص 55 ، وتأريخ الخلفاء للسيوطي : 136 .

(6) كنز العمال : 16 / 519 الحديث 45715 ، وزاد المعاد لابن القيم : 2 / 205 ز

(7) راجع منهاج السنّة لابن تيمية : 3 / 193 ، وهناك اجتهادات كثيرة للخلفاء تذكرها كتب التأريخ .

(إنّما بدء وقوع الفتن أهواء تتّبع وأحكام تبتدع ، يخالف فيها كتاب الله ، ويتولّى عليها رجالٌ رجالاً على غير دين الله ، فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحقّ ؛ لم يخف على المرتادين ، ولو أنّ الحقّ خلص من لبس الباطل ، انقطعت عنه ألسن المعاندين ، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه ، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى) (1) .

جهود الإمام عليه‌السلام في إحياء الشريعة الإسلامية :

كان الإمام عليّ عليه‌السلام يرى أن من أوليّات مهامّه بعد غياب الرسول الأعظم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم هو صيانة الشريعة المقدسة من الزيغ والانحراف ورعاية شؤون الدّولة الإسلامية حتى تستمر من دون تلكؤ أو توقّف ، وقد بذل جهده في ذلك أثناء حكم الخلفاء متغاضياً بمرارة وألم عن حقّه في إدارة شؤون الأمة مباشرة ، وما أن أمسك زمام الحكم ؛ حتى خطا خطوات عظيمة في إحياء سنّة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وفي الدعوة إلى الحياة في ظلّها ، واهتم اهتماماً كبيراً بالقرآن الكريم وتفسيره وتربية الأمة وإصلاح الفساد أَينما وجد ، ويمكننا أن نلحظ الخطوات التي قام بها الإمام عليّ عليه‌السلام كما يلي :

1 ـ فتح باب الحوار والسؤال عن القرآن والسنّة وكلّ ما يتعلّق بالشريعة المقدّسة أمام الجماهير المسلمة وبصورة علنية وعامّة من دون أن يتردّد حتى في جواب مخالفيه وأعدائه الحاقدين عليه .

2 ـ الاهتمام بالقرّاء مراعياً لشؤونهم ومتّبعاً فيهم سنّة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في التعليم ، فكان تعليم قراءة القرآن مقروناً بتعلّم ومعرفة ما فيه من العلم والعمل والتفقّه في أحكام الدين .

ــــــــــــ

(1) نهج البلاغة : الخطبة (50) .

3 ـ الاهتمام بقراءة المسلمين من غير العرب ، أو من الذين لا يحسنون اللغة العربية بصورة صحيحة ، فوضع علم النحو لتقويم اللسان عن اللحن في الكلام (1) .

4 ـ دعا الإمام عليه‌السلام إلى رواية السنّة النبوية وتدوينها ومدارستها ، فكان يقول : (قيّدوا العلم بالكتابة) (2) وأمر عليه‌السلام بالبحث في علوم السنّة فيقول : (تزاوروا وتدارسوا الحديث ولا تتركوه يدرس) (3) .

5 ـ ركّز الإمام على مصدرية القرآن والسنّة في التشريع والأحكام ، وأدان المصادر الأخرى كالاستحسان والقياس وغيرهما ممّا لا يكون مصدراً شرعياً للأحكام الإلهية (4) .

كما أنّ الإمام عليه‌السلام أحيى سنّة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في سيرته العبادية والأخلاقية ، فعالج البدع التي طرأت على الشريعة نتيجة اجتهاد وإبداع من سبقه من الخلفاء (5) .

6 ـ استطاع الإمام أن يبني ثلّةً صالحةً من المؤمنين تتحرّك في المجتمع الإسلامي للمساهمة في قيادة التجربة الإسلامية والمحافظة على المجتمع الإسلامي .

ويبدو أنّ الإمام عليّاً عليه‌السلام بدأ عملياً في هذا المسار منذ حياة الرسول الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وبأمر منه ، فنجد أن النبيّ كان يُوكل مهمّة تعهّد ورعاية من يجد فيهم الرغبة والوعي في التحرك الإسلامي إلى الإمام علي عليه‌السلام ، وكان صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يحثّ على التمسّك في العمل بخط عليّ حتى تكوّنت جماعة عرفت بشيعة عليّ في حياة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مثل : عمار بن ياسر ، وسلمان الفارسي ، وأبي ذر ، وجابر بن عبد الله الأنصاري ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن عباس ، ممّن ثبتوا على هذا الخطّ رغم كلّ الظروف الصعبة التي مرّت بها التجربة الإسلامية بعد وفاة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم .

وحين استلم أمير المؤمنين عليه‌السلام الخلافة ؛ احتفّت به جماعة من المؤمنين الأوفياء الأشدّاء ، فازداد الإمام عليه‌السلام اعتناءً بهم وأعدّهم إعداداً رسالياً خاصاً ، وأودعهم علوماً شتّى في مختلف نواحي الحياة ،

ــــــــــــ

(1) الأغاني : 12 / 13 ، الفهرست لابن النديم : 59 ، وفيات الأعيان ك 2 / 216 ، والبداية والنهاية ك 8 / 312 .

(2) الطبقات الكبرى : 6 / 186 ، وتدوين السنّة الشريفة للسيد الجلالي : 137 .

(3) كنز العمال ك 10 حديث 29522 .

(4) نهج البلاغة : الخطبة (125) .

(5) صحيح مسلم : كتاب صلاة التراويح ، ومسند أحمد : 5 / 406 ، وصحيح البخاري : كتاب الخمس : باب 5 / حديث 2944 ، وسنن أبي داود : 2 / حديث 1622 .

وقام هؤلاء الصحابة الأجلاّء بدورهم في دعم الرسالة الإسلامية ومساندة الإمامة والمحافظة على الشريعة من الزيغ والانحراف والاندثار ، فكانت مواقفهم رائعة وبطولية مقابل الحكّام الطواغيت والمتسلّطين بغير حقّ على أمور المسلمين ، ومن هؤلاء : مالك الأشتر ، كميل بن زياد النخعي ، محمد بن أبي بكر ، حجر بن عدي ، عمرو بن الحمق الخزاعي ، صعصعة بن صوحان العبدي ، رشيد الهجري ، هاشم المرقال ، قنبر ، سهل بن حُنيف وغيرهم .

الفصل الثاني: الإمام علي عليه‌السلام مع الناكثين (\*)

مثيروا الفتن :

كانت بيعة الناس لأمير المؤمنين عليه‌السلام بمنزلة صاعقة حلّت بقريش وكلّ من يكنّ العداء للإسلام ، فحكومة الإمام هي امتداد لحكومة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم التي أذلّت الظلم والعدوان والبغي ، وجاءت بالعدل والمساواة والحقّ والفضيلة ، وحطّمت المصالح الاقتصادية القائمة على الربا والاحتكار والاستغلال ، فعزّ على كثير من كبار قريش أن يكونوا على قدم المساواة مع أيّ مواطن آخر من أيّ فئة كانت في حكومة الإمام عليّ عليه‌السلام الذي طالت إصلاحاته ولاة عثمان .

وقد كان كلّ من طلحة والزبير يرى نفسه قريناً لأمير المؤمنين عليه‌السلام ، بعدما رشّحهما عمر للخلافة فكان يتوقّع كلّ منهما أن يلي حكومة جزء كبير من البلاد الإسلامية على أقلّ تقدير ، وكان لعائشة المقام المرموق لدى الخلفاء السابقين حيث كانت تتحدّث كما تشاء ، وهي الآن تعلم أن لا مجال لها في حكومة تعتمد القرآن والسنّة مصدراً ودستوراً للتشريع والتنفيذ .

وكان معاوية يتصرّف في الشام تصرّف الحاكم المطلق المتفرّد والمطامع في السيادة الإسلامية العظمى جادّاً في تولّي أمور الأمة الإسلامية بصورة تامّة ، فكانت المفاجأة لجميع هؤلاء بقرارات الإمام وتخطيطه للإصلاح الشامل إضافةً إلى تضرّر مجموعة أو مجموعات كانت تستغل مناصبها في عهد عثمان وهي الآن قد فقدت مصدر ثرواتها ، فإنّ وجود الإمام في قمّة السلطة كان يُعدّ تهديداً صارخاً للخطّ القبلي المنحرف الذي سارت عليه قريش . لأنّ الإمام عليّاً عليه‌السلام قد عرف بأنّه القادر على رفع راية الإسلام الحق من دون أن تأخذه في الله لومة لائم ، ولهذا فهو سيكشف زيف الخطّ المنحرف دون تردّد .

ــــــــــــ

(\*) وقعت معركة الجمل في جمادي الآخرة عام (36) هـ.

من هنا اجتمعت آراؤهم وأهواؤهم على إثارة الفتن للحيلولة دون استقرار الحكم الجديد ، ولم يكن تقلّب الوضع السياسي ووجود العناصر المعادية للاتّجاه الصحيح لمسيرة الحكومة الإسلامية غريباً على الإمام عليّ عليه‌السلام ؛ فقد أخبره النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بتمرّد بعض الفئات على حكمه ، وعهد إليه بقتالهم كما أنّه قد سمّاهم له بالناكثين والقاسطين والمارقين (1) .

عائشة تعلن التمرّد :

كان موقف السيّدة عائشة من عثمان غريباً متناقضاً لا يليق بمقام امرأة تعدّ من نساء النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، فكانت تردّد قولها : (اقتلوا نعثلاً) ، وتحرّض الناس على التمرّد عليه وعلى قتله (2) ، وقد خرجت من المدينة إلى مكّة أثناء محاصرة عثمان من قبل الثوار وهي تتوقّع النهاية السريعة لعثمان ، ومن ثمَّ فوز قريبها طلحة بالخلافة ، والاستيلاء على الحكم .

وحين فوجئت بأنّ الأمر قد استقرّ ـ بعد بيعة الناس إلى الإمام عليّ عليه‌السلام ، كرّت راجعة نحو مكّة بعد أن كانت قد عزمت على الرجوع إلى المدينة (3) ، وأعلنت حزنها وتظلّمها على عثمان ، فقيل لها : أنتِ التي حرّضت على قتله

ــــــــــــ

(1) مستدرك الحاكم : 3 / 139 ، وتأريخ بغداد : 8 / 340 ، ومجمع الزوائد : 9 / 235 ، وكنز العمال : 6 / 82 .

(2) شرح ابن أبي الحديد : 6 م 215 ، وكشف الغمة ك 3 / 323 .

(3) الكامل في التأريخ : 3 / 206 .

فاختلقت عذراً واهياً ، فقالت : إنّهم استتابوه ثمّ قتلوه (1) . وكأنّها كانت حاضرة تشهد مقتله .

وأعلنت السيدة عائشة حربها ضدّ الإمام عليّ عليه‌السلام في خطابها الذي ألقته في مكّة محرّضة أتباعها على الحرب (2) .

وطمعت السيدة عائشة في توسيع جبهتها ضدّ الإمام عليّ عليه‌السلام فحاولت مخادعة أزواج النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم للخروج معهنّ ضدّ الإمام ، فامتنعن من ذلك ، وحاولت أم سلمة أن تنصحها عسى أن ترجع عن غيّها ، وتجنّب الأمة البلاء والدماء ، فقالت لها : إنّك كنت بالأمس تحرّضين على عثمان وتقولين فيه أخبث القول وما كان اسمه عندك إلا نعثلاً ، وإنّك لتعرفين منزلة عليّ بن أبي طالب عند رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، أفأذكِّرك ؟ قالت أم سلمة : أتذكرين يوم أقبل عليه‌السلام ونحن معه حتى إذا هبط من قديد ذات الشمال خلا بعليّ يناجيه ، فأطال فأردت أن تهجمين عليهما فنهيتك فعصيتِني فهجمتِ عليهما ، فما لبثتِ أن رجعت باكية ، فقلتُ : ما شأنك ؟ فقلتِ : إنّي هجمت عليهما وهما يتناجيان ، فقلتُ لعليّ : ليس لي من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلاّ يوم من تسعة أيام أفما تدعني يا ابن أبي طالب ويومي ؟ فأقبل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عليَّ وهو غضبان محمرّ الوجه ، فقال : (ارجعي وراءك والله لا يبغضه أحدٌ من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلاّ وهو خارج من الإيمان) ، فرجعتِ نادمة ساخطة ، قالت عائشة : نعم أذكر ذلك ، قالت أم سلمة : أيّ خروج تخرجين بعد هذا ؟ فقالت عائشة : إنّما أخرج للإصلاح بين الناس ، وأرجو فيه الأجر إن شاء الله ، فقالت أم سلمة : أنتِ ورأيكِ ، فانصرفت عائشة عنها (3) .

وروي : أنّ نساء النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم خرجن مع عائشة إلى منطقة (ذات عرق)

ــــــــــــ

(1) الكافي في التأريخ : 3 / 206 .

(2) تأريخ الطبري : 3 / 474 .

(3) شرح النهج لابن أبي الحديد : 6 / 217 ، وبحار الأنوار ك 32 / 149 .

ويبدو أنّهنّ حاولن إرجاع عائشة إلى المدينة والحيلولة دون وقوع الفتنة ، فلم يتوصّلن إلى حلّ فبكين على الإسلام وبكى الناس معهنّ ، وسمّي ذلك اليوم بـ (يوم النحيب) (1) .

مكر معاوية ونكث الزبير وطلحة للبيعة :

كان معاوية يتمتّع بسيطرة إدارية على شؤون الشام ، ولديه أجهزة يستطيع بها أن يحرّكها وفق رغباته وأهوائه ، وما كانت لديه مشكلة مع جماهير الشام لأنّ بلاد الشام منذ عرفت الإسلام عرفت آل أبي سفيان ولاة عليها من قبل الخليفة ، فقبله كان أخوه يزيد والياً عليها ، كما أنّ بلاد الشام بعيدة عن عاصمة الخلافة ممّا أعطاه قدراً كافياً من الاستقرار والقوّة . وبدأ معاوية تحرّكه السياسي لتأجيج الفتنة المشتعلة بسبب مقتل عثمان ، ومن ثَمَّ ليستثمرها لصالحه ، فخاطب الزبير وطلحة بصيغة تحرّك فيهما الأطماع والرغبات للدخول في الصراع الجديّ ضدّ الإمام عليه‌السلام فتزداد الفتنة في العاصمة المركزية . فكتب رسالة إلى الزبير جاء فيها :

لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان .. سلام عليك ، أمّا بعد ، فإنّي قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الجلب ، فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليها ابن أبي طالب ، فإنّه لا شيء بعد هذين المصرين ، وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك فأظهر الطلب بدم عثمان وادعوا الناس إلى ذلك ، وليكن منكما الجدّ والتشمير ، أظفركما الله وخذل مناوئكما (2) .

ولمّا وصلت رسالة معاوية إلى الزبير ؛ خفّ لها طرباً واطمأنّ إلى صدق نيّة معاوية ، واتفق هو وطلحة على نكث بيعة الإمام والخروج عليه ، فأظهر الحسرة

ــــــــــــ

(1) الكامل في التاريخ: 209/3.

(2) شرح النهج لابن أبي الحديد: 231/1.

والتأسف على بيعتهما للإمام مردّدين : بايعنا مكرهين ، وما أن وصلت إلى أسماعهما صيحة السيدة عائشة محرّضة على الإمام ؛ حتى اجتهدا في إيجاد الحيلة للخروج إليها . وروي أنّهما جاءا يطلبان من الإمام المشاركة في الحكم فلم يتوصّلا إلى شيء ، فقرّرا الالتحاق بعائشة ثمّ عادا ثانية إلى الإمام عليه‌السلام ليستأذناه للخروج للعمرة ، فقال لهما الإمام عليه‌السلام : نعم، والله ما العمرة تريدان وإنّما تريدان أن تمضيا لشأنكما (1) . وروي أنّه عليه‌السلام قال لهما : بل تريدان الغدرة (2) .

لقد أجمع رأي الخارجين على بيعة الإمام عليه‌السلام في بيت عائشة في مكّة بعد أن كانوا متنافرين متحاربين في عهد عثمان ، فضمّ الاجتماع الزبير وطلحة ومروان بن الحكم على أن يتّخذوا من دم عثمان شعاراً لتعبئة الناس لمحاربة الإمام عليّ عليه‌السلام ، فرفعوا قميص عثمان كشعار للتمرّد والعصيان ، وأنّ الإمام عليّاً عليه‌السلام هو المسؤول عن إراقة دم عثمان ، لأنه آوى قتلته ولم يقتصّ منهم ، وقرّروا أن يكون زحفهم نحو البصرة واحتلالها واتّخاذها مركزاً للتحرّك ومنطلقاً للحرب ، حيث أنّ معاوية يسيطر على الشام ، والمدينة لا زالت تعيش حالة الاضطراب (3) .

حركة عائشة ومسيرها نحو البصرة :

مضت عائشة في خطّتها لإثارة الفتنة والدخول في المواجهة المسلّحة مع الإمام عليّ عليه‌السلام الخليفة الشرعي ، فحشدت أعداداً من الناس يدفعهم الحقد والكراهية للإسلام وللإمام عليّ عليه‌السلام ويحدوهم الطمع بالدنيا ونيل السلطان ، وجهّزهم يعلى بن منية بمستلزمات الحرب من السيوف والإبل التي سرقها من اليمن عندما عزله الإمام عنها ، وقدم عليهم عبد الله بن عامر بمال كثير من البصرة

ــــــــــــ

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة : 70 .

(2) شرح النهج : 1 / 232 .

(3) تأريخ الطبري : 3 / 471 ط مؤسسة الأعلمي .

سرقه أيضاً (1) . وجهّزوا لعائشة جملها المسمّى (عسكر) وقد احتفّ بها بنو أمية وهي تتقدّم أمام الحشد الزاخر متوجّهين نحو البصرة ، تسبقهم كتبهم التي أرسلوها إلى عدد من وجوه البصرة ، يدعونهم فيها للخروج على بيعة الإمام عليه‌السلام بدعوى المطالبة بدم عثمان (2).

وبدرت سمة المكر والخداع ـ التي تكاد تكون ملازمة لكلّ من ناوأ الإمام عليّاً عليه‌السلام ـ من زعماء الفتنة ، فلمّا خرجوا من مكّة أذّن مروان بن الحكم للصلاة ، ثمّ جاء حتّى وقف على طلحة والزبير محاولاً إثارة الوقيعة بين الرجلين وغرس فتنة ليستغلّها إن تمكّن من الأمر ، فقال : على أيّكما أُسلِّم بالإمرة وأُؤذَّن بالصلاة ، فتنافس أتباع الرجلين كلّ يريد تقديم صاحبه ، فأحسّت عائشة بوقوع التفرقة فأرسلت أن يصلّي بالناس ابن أختها عبد الله بن الزبير .

وحين وصل جيش عائشة إلى منطقة (أوطاس) ؛ لقيهم سعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة ، وحين علم سعيد بدعوى عائشة (الطلب بدم عثمان) استهزأ ضاحكاً وقال : فهؤلاء قتلة عثمان معك يا أم المؤمنين (3) ! .

وروي : أنّ سعيداً قال : أين تذهبون وتتركون ثأركم وراءكم على أعجاز الإبل (4) ؟! ، يقصد بذلك طلحة والزبير وعائشة ، ووصل الجيش إلى مكان يقال له : (الحوأب) فتلقّتهم كلاب الحيّ بنباح وعواء ، فذعرت عائشة وسألت محمد بن طلحة عن المكان فقالت : أيّ ماء هذا ؟ فأجابها : ماء الحوأب يا أم المؤمنين .. فهلعت وصرخت : ما أراني إلاّ راجعة ، قال : لِمَ ، قالت : سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول لنسائه : كأنّي بإحداكنّ قد نبحها كلاب الحوأب وإيّاك أن تكوني يا

ــــــــــــ

(1) الإمامة والسياسة : 79 ، والكامل في التأريخ : 3 / 207 .

(2) الإمامة والسياسة : 80 ، الكامل في التأريخ : 3 / 210 .

(3) الإمامة والسياسة : 82 .

(4) الكامل في التأريخ : 3 / 209 .

حميراء (1) . ثمّ ضربت عضد بعيرها فأناخته وقالت : ردّوني ، أنا والله صاحبة ماء الحوأب ، فأناخوا حولها يوماً وليلة ، وجاءها عبد الله بن الزبير فحلف لها بالله انه ليس ماء الحوأب ، وأتاها ببيّنة زور من الأعراب فشهدوا بذلك (2) . فكانت أوّل شهادة زور في الإسلام .

مناوشات على مشارف البصرة :

حين شارف جيش عائشة مدينة البصرة ؛ قام عثمان بن حنيف والي الإمام عليه‌السلام على البصرة موضّحاً أمر الجيش المتقدم إليهم ، ومحذّراً الناس من الفتنة وبطلان وضلالة موقف زعماء الجيش ، وأعلن المخلصون للإسلام وللإمام عليه‌السلام استعدادهم للدفاع عن الحقّ والشريعة المقدّسة وصدّ الناكثين عن الاستيلاء على البصرة (3).

وفي محاولة من عثمان بن حنيف ـ الذي يتأسّى بأخلاق الإسلام ويطيع إمامه عليه‌السلام ـ سعى أن يثني عائشة ومَن معها من غيّهم لتجنّب وقوع القتال ، فأرسل إليهم عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلي ليحاججوا عائشة ومن معها ببطلان موقفهم ، ولكن محاولات الرجلين باءت بالفشل ، فقد كانت عائشة ومعها طلحة والزبير مصرّين على نيّتهم في إثارة الفتنة وإعلان الحرب (4) .

وأقبلت عائشة ومن معها حتى انتهوا إلى (المربد) فدخلوا من أعلاه وخرج إليهم عثمان بن حنيف ومن معه من أهل البصرة ، فتكلّم طلحة والزبير وعائشة يحرّضون الناس على الخروج على بيعة الإمام عليه‌السلام بدعوى الثأر لعثمان ، فاختلف الناس بين معارض ومؤيّد .

ــــــــــــ

(1) الإمامة والسياسة : 82 ، وأخرج الحديث أحمد في مسنده : 6 / 521 ، وشرح النهج لابن أبي الحديد : 2 / 497 .

(2) الإمامة والسياسة : 82 ، مروج الذهب : 2 / 395 .

(3) الإمامة والسياسة : 83 .

(4) تاريخ الطبري : 3 / 479 ط مؤسسة الأعلمي ، والكامل في التأريخ : 3 / 211 .

وأقبل جارية بن قدامة السعدي لينصح عائشة عسى أن يردّها عن تأجيج الفتنة ، فقال : يا أم المؤمنين ! والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون ، عرضة للسلاح ، إنّه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكتِ سترك وأبحت حرمتك ، إنّه من رأى قتالك ؛ فإنّه يرى قتلك ، لئن كنت أتيتنا طائعةً فارجعي إلى منزلك، وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعيني بالناس (1) .

الاقتتال ـ الهدنة ـ الغدر :

افتتن الناس بقدوم عائشة على البصرة ، فبين منكر ومؤيّد ومصدّق ومكذّب افترقت جماهير البصرة ، وتأزّم الموقف ، فاصطدم الناس واقتتلوا على فم السكّة ، ولم يحجز بينهم إلاّ الليل ، وكان عثمان بن حنيف لا يريد إراقة الدماء ويجنح للسلم وينتظر قدوم الإمام عليّ عليه‌السلام إلى البصرة ، فلمّا عضّت الحرب الطرفين ؛ تنادوا للصلح ، فكتبوا كتاباً لعقد هدنة مؤقّتة على أن يبعثوا رسولاً إلى المدينة يسأل أهلها ، فإن كان طلحة والزبير اُكرها على البيعة ؛ خرج ابن حنيف عن البصرة ، وإلاّ خرج عنها طلحة والزبير (2) .

وعاد كعب بن مسور رسول الطرفين إلى المدينة بادّعاء أسامة بن زيد أنّ طلحة والزبير بايعا مكرهين ومخالفة أهل المدينة لرأي أسامة فاستغلّها زعماء جيش عائشة ، فهجموا في ليلة ذات رياح ومطر على قصر الإمارة حيث يتواجد عثمان بن حنيف فقتلوا أصحابه وأسروا ونتفوا لحيته ورأسه وحاجبيه ، ولكنّهم خافوا من قتله لأنّ أخاه سهل بن حنيف والي الإمام على المدينة (3) .

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 3 / 482 ط مؤسسة الأعلمي ، والكامل في التأريخ : 3 / 213 .

(2) الإمامة والسياسة : 87 ، والطبري : 3 / 483 ط مؤسسة الأعلمي ، وراجع الكامل في التأريخ : 3 / 215 .

(3) الإمامة والسياسة : 89 ، وتأريخ الطبري : 3 / 484 ط مؤسسة الأعلمي ، ومروج الذهب للمسعودي : 2 / 367 .

حركة الإمام عليه‌السلام للقضاء على التمرّد (1) :

حين استلم الإمام عليّ عليه‌السلام زمام الحكم كانت هناك عقبة أمام استقرار الأمن وسيطرة الحكومة الشرعية المركزية ، وهي إعلان معاوية بن أبي سفيان تمرّده على خلافة الإمام ، فشرع عليه‌السلام بالاستعداد العسكري والسياسي لإيقاف التمزّق في كيان الأمة ومنع سفك الدماء .

وما أن اُحيط الإمام عليه‌السلام علماً بحركة عائشة وطلحة والزبير نحو البصرة وإعلانهم العصيان عدل عمّا كان يخطّط لمعالجة موقف معاوية والشام ، فاتّجه عليه‌السلام نحو البصرة بجيش يضمّ وجوه المهاجرين والأنصار .

وصل الإمام عليه‌السلام إلى منطقة (الربذة) فكتب إلى الأمصار يستمدّ العون ويوضّح الأمر ، كي يتوصّل إلى إخماد نار الفتنة وحصرها في أضيق نطاق ، فأرسل إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر ، فأبى أبو موسى الأشعري الاستجابة للإمام ومارس دور المثبّط عن مناصرة الإمام عليه‌السلام في موقفه ، ثمّ أرسل عبد الله بن عباس ولم يتمكّن من إقناع أبي موسى بالانصياع والكفّ عن تثبيط الناس عن نصرة الإمام ، فأرسل عليه‌السلام ولده الحسن وعمار بن ياسر ثمّ تبعهم مالك الأشتر فعزلوا أبا موسى ، وتحرّكت الكوفة بكلّ ثقلها تنصر أمير المؤمنين عليه‌السلام ، فلحقت به في (ذي قار) .

وفي هذا الأثناء لم يتوقّف الإمام عليه‌السلام في مراسلة طلحة والزبير وإيفاد الرسل إليهم ، عسى أن يعودوا لرشدهم ويدركوا خطورة فتنتهم فيجنّبوا الأمة المصائب والبلايا وسفك الدماء ، فأوفد إلى عائشة زيد بن صوحان وعبد الله بن عباس وغيرهما ، فحاوروهم بالحجّة والدليل والعقل حتى أنّ عائشة قالت لابن

ــــــــــــ

(1) الإمامة والسياسة : 74 ، وتأريخ الطبري : 5 / 507 .

عباس : لا طاقة لي بحجج عليّ ، فقال ابن عباس : لا طاقة لك بحجج المخلوق فكيف طاقتك بحجج الخالق (1) ؟!

آخر النصائح :

أكثر الإمام عليه‌السلام من مراسلة طلحة والزبير بعد أن شارفت قواته على أبواب البصرة ، فخشيت عائشة ومن معها من اقتناع قادتها وجموع الناس معها بحجج الإمام عليه‌السلام فخرجوا لملاقاته ، فلمّا توقّفوا للقتال أمر الإمام عليه‌السلام منادياً ينادي في أصحابه : لا يرمينّ أحد سهماً ولا حجراً ولا يطعن برمح حتى أُعذر القوم فأتّخذ عليهم الحجّة البالغة (2) .

فلم يجد الإمام عليه‌السلام منهم إلاّ الإصرار على الحرب ، ثمّ خرج الإمام عليه‌السلام إلى الزبير وطلحة فوقفوا ما بين الصفّين ، فقال الإمام عليه‌السلام لهما : لعمري لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً ، إن كنتما أعددتما عند الله عذراً فاتّقيا الله ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، أَلم أكن أخاكما في دينكما ؟ تحرّماني دمي وأُحرّم دمكما فهل من حدث أحلّ لكما دمي ؟

ثمّ قال عليه‌السلام لطلحة : أجئت بعرس رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم تقاتل بها وخبّأت عرسك في البيت ؟! أما بايعتني ؟ ثمّ قال عليه‌السلام للزبير : قد كنا نعدّك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء عبد الله ففرّق بيننا ، ثمّ قال عليه‌السلام : أتذكر يا زبير يوم مررت مع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في بني غنم ، فنظر إليّ فضحك وضحكت إليه فقلتَ له : لا يدع ابن أبي طالب زهوه ، فقال لك رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : ليس بِمُزهٍ ـ أي : ليس به زهو ـ لتقاتله وأنت له ظالم ؟! قال الزبير : اللَّهُم نعم .

وروي : أنّ الزبير اعتزل الحرب وقتل بعيداً عن ساحة الحرب بعد أن

ــــــــــــ

(1) الإمامة والسياسة ك 90 ، وبحار الانوار : 32 / 122 .

(2) الإمامة والسياسة : 91 ، ومروج الذهب : 2 / 270 .

استعرت الفتنة (1) . كما أنّ طلحة قتله مروان بن الحكم في ساحة المعركة (2) .

نشوب المعركة :

كان الإمام عليه‌السلام طامحاً حتى آخر لحظة قبل نشوب القتال أن يرتدع الناكثون عن غيّهم ، فلم يأذن بالقتال رغم ما شاهد من إصرار زعماء الفتنة على المضي في الحرب ، فقال عليه‌السلام لأصحابه : (لا يرمينّ رجل منكم بسهم ، ولا يطعن أحدكم فيهم برمح حتى اُحدث إليكم ، وحتى يبدؤوكم بالقتال والقتل) (3) .

وشرع أصحاب الجمل بالرمي فقتل رجل من أصحاب الإمام ، ثمّ قتل ثانٍ وثالث ، عندها أَذِنَ عليه‌السلام (4) بالردّ عليهم والدفاع عن الحقّ والعدل .

التحم الجيشان يقتتلان قتالاً رهيباً ، فتساقطت الرؤوس وتقطّعت الأيادي وأثخنت الجراحات في الفريقين ، ووقف أمير المؤمنين ليشرف على ساحة المعركة فرأى أصحاب الجمل يستبسلون في الدفاع عن جملهم فنادى بأعلى صوته : (ويلكم اعقروا الجمل فإنّه شيطان ...) .

فهجم الإمام عليه‌السلام وأصحابه حتى وصلوا الجمل فعقروه ، ففرّ من بقي من أصحاب الجمل من ساحة المعركة فأمر عليه‌السلام بعد ذلك بحرق الجمل وتذريّة رماده في الهواء لئلاّ تبقى منه بقية يفتتن بها السذّج والبسطاء ، ثمّ قال الإمام عليه‌السلام : لعنه الله من دابّة ، فما أشبهه بعجل بني إسرائيل .

ومدّ بصره نحو الرماد الذي تناثر في الهواء فتلا قوله تعالى : (... وَانظُرْ إِلَى‏ إِلهِكَ الّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لّنُحَرّقَنّهُ ثُمّ لَنَنسِفَنّهُ فِي الْيَمّ نَسْفاً) (5) .

ــــــــــــ

(1) الإمامة والسياسة : 91 ، ومروج الذهب 2 / 270 .

(2) الطبقات الكبرى : 3 / 158 ، والإمامة والسياسة : 97 .

(3) شرح النهج : 9 / 111 .

(4) الإمامة والسياسة : 95 .

(5) طه (20) : 97 .

مواقف الإمام بعد المعركة :

كتب الله النصر لأمير المؤمنين عليه‌السلام على مخالفيه ، ووضعت الحرب أوزارها ، وانقشع غبار المعركة ، ونادى منادي الإمام عليه‌السلام يعلن العفو العام : ألا لا يجهز على جريح ولا يتبع مول ولا يطعن في وجه مدبر ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، وأن لا يؤخذ شيء من أموال أصحاب الجمل إلاّ ما وجد في عسكرهم من سلاح أو غيره ممّا استخدم في القتال ، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم (1) .

وأمر الإمام عليّ عليه‌السلام محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر أن يحملوا هودج عائشة من بين القتلى وسط ساحة المعركة وينحّوه جانباً ، وأن يتعهّد محمد أمر أخته عائشة ، فلمّا كان من آخر الليل أدخلها محمد البصرة فأنزلها في دار عبد الله ابن خلف الخزاعي .

وطاف الإمام عليه‌السلام في القتلى من أصحاب الجمل ، وكان يخاطب كلاًّ منهم ويكرّر القول : قد وجدتُ ما وعدني ربّي حقاً فهل وجدتَ ما وعدك ربّك حقاً .

وقال أيضاً : ما ألوم اليوم من كفّ عنّا وعن غيرنا ولكنّ المليم الذي يقاتلنا (2) .

وأقام الإمام عليه‌السلام في ظاهر البصرة ولم يدخلها ، وأذن للناس في دفن موتاهم فخرجوا إليهم فدفنوهم (3) ، ثمّ دخل عليه‌السلام مدينة البصرة معقل الناكثين ، فانتهى إلى المسجد فصلّى فيه ثمّ خطب في الناس وذكّرهم بمواقفهم ومواقف الناكثين لبيعته ، فناشدوه الصفح والعفو عنهم ، فقال عليه‌السلام : (قد عفوت عنكم ، فإيّاكم والفتنة ، فإنّكم أوّل الرعيّة نكث البيعة ، وشقّ عصا هذه الأمة) . ثمّ أقبلت الجماهير

ــــــــــــ

(1) تأريخ اليعقوبي : 2 / 172 ، ومروج الذهب : 2 / 371 .

(2) الإرشاد للمفيد : 1 / 256 ط مؤسسة آل البيت عليهم‌السلام .

(3) الكامل في التأريخ : 3 / 255 .

ووجوه الناس لمبايعة الإمام عليه‌السلام (1) .

وبعد ذلك دخل أمير المؤمنين بيت المال في البصرة ، فلمّا رأى كثرة المال قال : (غُرّي غيري ..) وكرّرها مراراً ، وأمر أن يقسّم المال بين الناس بالسوية ، فنال كلّ فرد منهم خمسمائة درهم ، وأخذ هو كأحدهم ، ولم يبقَ شيء من المال فجاءه رجل لم يحضر الوقعة يطالب بحصّته ، فدفع إليه الإمام ما أخذه لنفسه ولم يصب شيئاً (2) .

ثمّ أمر أمير المؤمنين بتجهيز عائشة وتسريحها إلى المدينة ، وأرسل معها أخاها وعدداً من النساء ألبسهنّ العمائم وقلّدهن السيوف لرعاية شؤونها وأوصلنها إلى المدينة ، ولكنّ عائشة لم تحسن الظنّ بأمير المؤمنين وتصوّرت أنّ الإمام لم يرعَ حرمتها ، وما أن علمت أنّ الإمام عليه‌السلام بعث معها النساء ، أعلنت ندمها على خروجها وفشلها وإثارتها للفتنة ، فكانت تكثر من البكاء (3) .

نتائج حرب الجمل :

خلّفت حرب الجمل نتائج سلبيّة على واقع المجتمع الإسلامي منها :

1 ـ توسّعت مسألة قتل عثمان بن عفّان حتى أصبحت قضية سياسية كبيرة جرّت من ورائها ظهور تيارات مناوئة فعلاً وقولاً لمسيرة الرسالة الإسلامية ، فأطلّ معاوية بن أبي سفيان ليكمل مسيرة الانحراف الدموي في الجمل .

2 ـ شاعت الأحقاد بين المسلمين ، وفتحت باب الحرب والاقتتال فيما بينهم ، فكانت الفرقة بين أهل البصرة أنفسهم وبين باقي الأمصار الإسلامية ، فكانت العداوة لمطالبة بعضهم البعض الآخر بدماء أبنائهم في حين كان المسلمون

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 3 / 544 ، والإرشاد للشيخ المفيد : 137 .

(2) شرح النهج : 1 / 250 .

(3) الإمامة والسياسة : 98 ، ومروج الذهب للمسعودي : 2 / 379 ، والمناقب للخوارزمي : 115 ، والتذكرة للسبط ابن الجوزي : 80 .

يتحرّجون من إراقة دمائهم .

3 ـ توسّعت جبهة الانحراف الداخلي في المجتمع الإسلامي ، وازدادت العراقيل أمام حكومة الإمام عليّ عليه‌السلام فبعد أن كان تمرّد معاوية في الشام فقط انفتحت جبهة أُخرى ممّا أدّى إلى انحسار التوسّع الخارجي ، وكذلك انحسار الأعمال الإصلاحية والحضارية التي كان يمكن أن تنمو في المجتمع الإسلامي .

4 ـ إنّ الأحقاد والانحراف فتحا الطريق على المخالفين في المعتقد السياسي للّجوء فوراً إلى حمل السلاح والقتال .

الكوفة عاصمة الخلافة :

بعد أن هدأت الاُمور تماماً تحرّك الإمام عليّ عليه‌السلام نحو الكوفة ليتّخذها مقرّاً بعد أن بعث إليهم برسالة أوضح فيها بإيجاز تفاصيل الأحداث (1) ، كما أنّ الإمام أمّر عبد الله بن عباس على البصرة وشرح له كيفية التعامل مع سكّانها بعد الذي وقع بينهم (2) .

وكان لاختيار الإمام عليه‌السلام الكوفة عاصمةً جديدةً للدولة الإسلامية أسباب عديدة منها :

1 ـ توسّع رقعة العالم الإسلامي ، ولابدّ أن تكون العاصمة الإدارية والسياسية للدولة في موقع يُعين الحكومة في التحرّك نحو جميع نقاط الدولة .

2 ـ إنّ الثقل الأكبر الذي وقف مع الإمام عليه‌السلام في القضاء على فتنة أصحاب الجمل هم كبار شخصيّات العراق ووجهاء الكوفة وجماهيرها .

3 ـ الظروف السياسية والتوتّرات الناجمة عن مقتل عثمان وحرب أصحاب الجمل كلّ ذلك جعل الإمام عليه‌السلام أن يستقرّ في الكوفة، ليعيد الأمن والاستقرار للمنطقة .

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 3 / 545 و 546 .

(2) تاريخ الطبري : 3 / 546 ط مؤسسة الأعلمي .

الفصل الثالث: الإمام علي عليه‌السلام مع القاسطين (\*)

استعدادات معاوية لمحاربة الإمام عليه‌السلام :

ساورت المخاوف معاوية من استقرار الإمام في الكوفة ومضيّه عليه‌السلام في خطّته لتوحيد الدولة وبناء الحضارة الإسلامية على منهج القرآن والسنّة النبويّة ، فسارع معاوية إلى الاستعانة بعمرو بن العاص لما يتمتّع به من حيلة وغدر ، وتوافق معه في العداء للإسلام وللإمام عليه‌السلام ، ولم يتردّد عمرو طويلاً أمام رسالة معاوية ، ولم يكن ليختار على طمعه في الدنيا شيئاً حتى لو كان دينه الذي يُدخله الجنّة (1) .

وما أن وصل عمرو إلى الشام حتى جعل يبكي ويولول كالنساء (2) مبتدئاً خطّته في التضليل وخداع الجماهير ، وبعد مراوغة ومكايدة بين معاوية وعمرو تمّت المساومة على أن تكون حصّة عمرو ولاية مصر مقابل مواجهة الإمام عليه‌السلام ومحاربته ، وكتب معاوية كتاباً بذلك (3) .

وشرعاً يخطّطان لمواجهة الإمام والوضع القائم ، فكان الاتّفاق على المضيّ

ــــــــــــ

(\*) وقعت معركة صفّين في صفر من عام (37) هـ ، وكانت المناوشات بين الطرفين بدأت في ذي الحجّة عام (36) هـ .

(1) وقعة صفّين : 34 ، والإمامة والسياسة : 116 ، والكامل في التأريخ : 3 / 275 .

(2) الكامل في التأريخ : 3 / 274 .

(3) وقعة صفّين : 40 ، والإمامة والسياسة : 117 .

في هذا المسار العدائي المشوب بالظلم والغدر والبغي ، إذ لا سبيل للوصول إلى أهدافهم وغاياتهم إلاّ مواجهة الإمام عليه‌السلام وهو الوريث الشرعيّ للنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وحامل راية الحقّ والعدل، واصطدم الرجلان إذ كلاهما خذلا عثمان فكانت خطّتهم تتطلب التشبّث بقميص عثمان كشعار لتحريك مشاعر وعقول الجماهير غير الواعية ، فرفعاه على المنبر بعد أن قَدِم به عليهما النعمان بن بشير ، فكان الناس يضجّون بالبكاء حتى سرت فيهم روح الحقد والكراهية والعمى عن هدى الحقّ (1) .

ولتحريك جماهير الشام لمؤازرة معاوية وحشدهم للحرب اقترح عمرو أن يكون شرحبيل بن السمط الكندي المحرّك الأول ، لما عرف عنه من عبادة ووجاهة في قبائل الشام وكراهية لجرير مبعوث الإمام عليه‌السلام إلى معاوية ، كما أنّ شرحبيل ممّن لا يتقصّى الحقائق من مصادرها ، وتمّت مخادعة شرحبيل الذي انطلق مطالباً معاوية بالأخذ بثأر عثمان بن عفان ، ويتحرّك بنفسه لحشد الناس للحرب (2) .

السيطرة على الفرات :

بعد تعبئة الشام للحرب ؛ أخذ معاوية منهم البيعة وكتب بالحرب كتاباً أرسله مع جرير (3) الذي أبطأ كثيراً على الإمام عليه‌السلام ، ثمّ سارع معاوية بتحريك قوّاته نحو أعالي الفرات في وادي صفّين لاحتلالها ومنع تقدّم قوات الإمام عليه‌السلام وحبس الماء عنهم ، وتصوّر معاوية أنّ هذا أوّل نصر يحقّقه على الإمام عليه‌السلام . وطلب الإمام عليه‌السلام من معاوية أن يسمح لجيشه بالاستقاء بعد أن وصلوا متأخرين إلى صفّين ، وأبى معاوية وجيشه ذلك ، وأضرّ الظمأ كثيراً بأهل العراق وازداد الضغط على الإمام عليه‌السلام لكسر الحصار ، فأذن لهم بالهجوم على شاطئ الفرات ، وتمّ إزاحة قوّات معاوية عن ضفّة النهر.

ــــــــــــ

(1) وقعة صفّين : 37 ، الكامل في التأريخ : 3 / 277 .

(2) المصدر السابق : 46 .

(3) المصدر السابق : 56 .

ولكنّ الإمام عليه‌السلام لم يقابل أهل الشام بالمثل ، ففسح لهم المجال لأخذ الماء دون معارضة (1) .

محاولة سلمية :

رغم أنّ الإمام عليه‌السلام أكثر من مراسلة معاوية وفتح عدّة قنوات للحوار محاولاً كسبه وإدخاله في بيعته لكنّ ردّ معاوية كان هو الحرب والسعي للقضاء على الإمام وجيشه بكلّ وسيلة ، وبيد أنّ الإمام عليه‌السلام كان يأمل في محاولة سلمية أُخرى بعد أن استقرّ وجيشه ضفّة الفرات ، فسادت هدنة مؤقّتة بعث خلالها الإمام عليه‌السلام مندوبين عنه إلى معاوية وهم بشير بن محصن الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي ، فقال عليه‌السلام لهم : (إئتوا هذا الرجل ـ أي معاوية ـ وادعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة) .

وما كان جواب معاوية إلاّ السيف والحرب ، فقال للمندوبين : انصرفوا من عندي فليس بيني وبينكم إلاّ السيف (2) .

الحرب بعد الهدنة :

جرت مناوشات بين الجيشين ولم تستعر الحرب بعدُ ، فكانت خرج فرقة منكلا الطرفين فيقتتلان ، وما أن حلّ شهر محرّم من عام (37 هـ) حتى حصلت موادعة بين الطرفين ، حاول من خلالها الإمام عليه‌السلام التوصّل إلى الصلح ، وكانت طروحاته عليه‌السلام هي الدعوة إلى السلم وجمع الكلمة وحقن الدماء ، ودعوات

ــــــــــــ

(1) مروج الذهب : 2 / 384 ، وشرح النهج لابن أبي الحديد : 3 / 320 ، والكامل في التأريخ : 3 / 283 .

(2) تأريخ الطبري : 3 / 569 ، والكامل في التأريخ : 3 / 284 .

معاوية وأهل الشام رفض بيعة الإمام عليه‌السلام والطلب بدم عثمان بن عفان (1) .

واستمرّت الهدنة مدّة شهرٍ واحدٍ ، ولمّا طالت فترة المناوشات ؛ سئم الفريقان من ذلك فعبّأ الإمام عليه‌السلام جيشه تعبئة عامة ، وكذلك فعل معاوية ، والتحم الجيشان في معركة رهيبة ، وكان الإمام يوصي جنوده دائماً فيقول : (لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم فأنتم بحمد الله عزّ وجلّ على حجّة) ثمّ قال : (فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثّلوا بقتيل) (2) .

واستمرت الحرب بين كرٍّ وفرّ حتى سقط خلالها أعداد كبيرة من المسلمين صرعى وجرحى بلغت عشرات الألوف .

مقتل عمار بن ياسر :

روي : أنّ عمار بن ياسر خرج بين الصفوف فقال : إنّي لأرى وجوه قوم لا يزالون يقاتلون حتى يرتاب المبطلون ، والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر ؛ لكنّا على الحقّ وكانوا على الباطل . ثمّ تقدّم نحو جيش معاوية وهو يرتجز :

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| نحن ضربناكم على تنزيله  |  | واليوم نضربكم على تأويله  |
| ضرباً يزيل الهام عن مقيله  |  | ويذهل الخليل عن خليله  |

أو يرجع الحقّ إلى سبيله

فتوسّط فيهم ببسالته التي قاتل بها مع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم صادقاً مخلصاً ، فاشتبكت عليه الرماح فطعنه أبو العادية وابن جون السكسكي ، وروي أنّهما اختصما في رأس عمار إلى معاوية وعبد الله بن عمرو بن العاص جالس فقال لهم ك ليطب به أحدكما نفساً لصاحبه، فإنّي سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول له : (يا عمّار تقتلك الفئة الباغية) (3) .

ــــــــــــ

(1) وقعة صفّين : 195 ، وتأريخ الطبري : 3 / 570 .

(2) وقعة صفّين : 202 ، وتأريخ الطبري : 4 / 6 .

(3) وقعة صفّين : 340 ، وتأريخ الطبري : 4 م 27 ط مؤسسة الأعلمي ، والعقد الفريد : 4 / 341 .

وكان الإمام قلقاً لا يقرّ له قرار حين برز عمار للقتال في ذلك اليوم ، وأكثر من السؤال عليه حتى جاءه خبر استشهاده ، فأسرع إلى مصرعه كئيباً حزيناً تفيض عيناه دمعاً ، فقد غاب عنه الناصر الناصح والأخ الأمين ، ثمّ صلَّى عليه الإمام عليه‌السلام ودفنه .

وسرى خبر استشهاد عمار بين الجيشين فوقعت الفتنة بين صفوف جيش معاوية ، لما يعلمون من مكانة عمار وحديث الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم له ... ولكنّ المكر والحيلة كانا بالمرصاد لكلّ ساذج جاهل ، فأشاع معاوية أنّ الذي قتل عماراً من جاء به . وأذعن بسطاء أهل الشام لهذه الضلالة (1) .

وروي : أنّ ذلك بلغ الإمام علياً عليه‌السلام فقال : ونحن قتلنا حمزة لأنّا أخرجناه إلى أُحد؟ (2)

خدعة رفع المصاحف :

استمرّ القتال أياماً أظهر خلالها أصحاب الإمام صبرهم وتفانيهم من أجل انتصار الحقّ ، ثمّ إنّ الإمام عليه‌السلام قام خطيباً يحثّ على الجهاد فقال : (أيّها الناس ! قد بلغ بكم الأمر وبعدوّكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلاّ آخر نفس ، وإنّ الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأوّلها .. وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا ، منهم ما بلغنا وأنا غادٍ عليهم بالغداة أحاكمهم إلى الله عزّ وجلّ) (3) .

فبلغ ذلك معاوية وقد بدت الهزيمة على أهل الشام فاستدعى عمرو بن العاص يستشيره ، وقال له : إنّما هي الليلة حتى يغدو عليّ علينا بالفيصل فما ترى ؟

قال عمرو : أرى أنّ رجالك لا يقومون لرجاله ولست مثله ، وهو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره ، أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء ، وأهل العراق

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 5 / 653 .

(2) العقد الفريد : 4 / 343 ، وتذكرة الخواص : 90 .

(3) كتاب سليم بن قيس : 176 ، والكامل في التأريخ : 3 / 310 .

يخافون منك إن ظفرت بهم وأهل الشام لا يخافون عليّاً إن ظفر بهم ، ولكن ألقِ إليهم أمراً إن قبلوه اختلفوا وإن ردّوه اختلفوا ،أُدعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم (1) .

فأمر معاوية في الحال أن ترفع المصاحف على الرماح ، ونادى أهل الشام : يا أهل العراق ! هذا كتاب الله بيننا وبينكم من فاتحته إلى خاتمته من لثغور أهل الشام من بعد أهل الشام ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق ؟

وكانت هذه الدعوى المضلّلة كالصاعقة على رؤوس جيش الإمام ، فهاج الناس وكثر اللغط بينهم ، وقالوا : نجيب إلى كتاب الله وننيب إليه، وكان أشدّ الناس في ذلك أحد كبار قادة جيش الإمام عليّ الأشعث بن قيس .

فقال لهم الإمام عليه‌السلام : (عباد الله ! امضوا على حقّكم وصدقكم وقتال عدوّكم ، فإنّ معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن أبي مسلمة وابن أبي سرح والضحّاك ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، أنا أعرف بهم منكم ، قد صحبتهم أطفالاً ثمّ رجالاً فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال ، وَيْحَكُم ! والله ما رفعوها إلاّ خديعةً ووهناً ومكيدةً ، إنّها كلمة حقّ يراد بها باطل) .

فخاطبوا أمير المؤمنين باسمه الصريح قائلين : يا عليّ ، أجب إلى كتاب الله عزّ وجلّ إذ دعيت إليه وإلاّ ندفعك برمّتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفّان .

ولم يجد الإمام عليه‌السلام مع المخدوعين سبيلاً فقال : فإن تطيعوني فقاتلوا وإن تعصوني فاصنعوا ما شئتم (2) .

وكان في ساحة المعركة مالك الأشتر يقاتل ببسالة ويقين حتى كاد أن يصل إلى معاوية فقالوا لأمير المؤمنين : ابعث إلى الأشتر ليأتينّك .. ولكنّ الأشتر لم ينثنِ عن عزمه في القتال ، لأنه يعلم أنّ الأمر خدعة فهدّدوه بقتل الإمام عليه‌السلام ، فعاد الأشتر يؤنّبهم فقال لهم : خُدعتم والله فانخدعتم ودُعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم ، يا أصحاب الجباه السود كنّا نظن أنّ صلاتكم زهادة إلى الدنيا وشوق إلى لقاء الله ، فلا أرى فراركم إلاّ إلى الدنيا من الموت.

ــــــــــــ

(1) وقعة صفّين : 347 ، وتأريخ الطبري : 4 / 34 .

(2) وقعة صفّين : 481 ، وتأريخ الطبري : 4 / 34 و 35 ط مؤسسة الأعلمي .

وأقبل الناس يقولون قد رضي أمير المؤمنين ، والإمام عليه‌السلام ساكت لا يفيض بكلمة مطرق الرأس حزيناً ، فقد انطلت على جيشه فتمرّد عليه ، ولم يعد باستطاعته أن يفعل شيئاً ، وقد أدلى عليه‌السلام بما مني به بقوله : (لقد كنت أمسِ أميراً فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت بالأمسِ ناهياً فأصبحت اليوم منهيّاً) (1) .

التحكيم وصحيفة الموادعة :

لم تتوقّف محنة الإمام عليه‌السلام بتخاذل الجيش ، وكان بالإمكان أن يحقّق مكسباً سياسياً عن طريق المفاوضات التي دُعي إليها لو أطاعه المتمرّدون في اختيار الممثّلين عنه إلى التحكيم ، فأراد الإمام عليه‌السلام ترشيح عبد الله بن عباس أو مالك الأشتر لما يعلم عنهما من إخلاص ووعي ، وأصرّ المخدوعون على ترشيح أبي موسى الأشعري، فقال الإمام عليه‌السلام : (إنّكم قد عصيتموني في أوّل الأمر فلا تعصوني الآن ، إنّي لا أرى أن أولِّي أبا موسى فإنّه ليس بثقة ، قد فارقني وخذّل الناس عنّي ـ بالكوفة عند الذهاب لحرب الجمل ـ ثمّ هرب منّي حتى أمّنته بعد أشهر) (2) .

وتمكّن معاوية وابن العاص من مأربهم في تفتيت جيش الإمام عليه‌السلام ، يساعدهم في ذلك الأشعث بن قيس من داخل قوّات الإمام .

حضر عمرو بن العاص ممثّلاً عن أهل الشام بدون معارضة من أحد لتسطير بنود الاتّفاق مع أبي موسى الأشعري ، ولم يقبل عمرو كتابة اسم (أمير المؤمنين) في الصحيفة ، فقال الإمام عليه‌السلام : إنّ هذا اليوم كيوم الحديبية إذ قال سهيل ابن عمر للنبي : لست رسول الله ، ثمّ قال عليه‌السلام : فقال لي رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : أما

ــــــــــــ

(1) نهج البلاغة الخطبة 208 ط مؤسسة النشر الإسلامي .

(2) وقعة صفّين : 499 ، وتأريخ الطبري : 4 / 36 ، والكامل في التأريخ : 3 / 319 .

إنّ لك مثلها ستعطيها وأنت مضطهد (1) .

وأهمّ ما جاء في الصحيفة هو إعلان الهدنة ووقف القتال ، وأن يلجأ الطرفان إلى كتاب الله وسنّة نبيّه لحلّ قضاياهم ، وأُجّل البتّ في قرار الحكمين إلى رمضان (37 هـ) ، حيث كتبت الصحيفة في صفر من العام نفسه . والغريب أنّ مسألة الأخذ بثأر عثمان لم ترد ولو بإشارة بسيطة في كتاب الموادعة مع أنّها أس الفتنة التي تحرّك فيها معاوية وحزبه من أبناء الطلقاء (2) ، واتّفقوا على أن يكون موضع اجتماع الحكمين في (دومة الجندل) .

موقف واع وتقييم :

روي : أنّه طلب من الأشتر أن يشهد في الصحيفة ، فقال : لا صبّحتني يميني ولا نفعتني بعدها شمالي إن خُطّ لي في هذه الصحيفة اسم أوَلست على بيّنة من ربّي من خلال عدوّي ؟ أو لستم قد رأيتم الظفر (3) ؟

وقيل لأمير المؤمنين : إنّ الأشتر لا يقرّ بما في الصحيفة ولا يرى إلاّ قتال القوم .

فقال عليه‌السلام : (وأنا والله ما رضيت ولا أحببت أن ترضوا) .. ثمّ قال عليه‌السلام : (يا ليت فيكم مثله اثنين ، يا ليت فيكم مثله واحداً يرى في عدوّي ما أرى ، إذاً لخفّت عليّ مؤنتكم ، ورجوت أن يستقيم لي بعض أودكم وقد نهيتكم فعصيتموني ، والله لقد فعلتم فِعلة ضعضعت قوّة وأسقطت مُنّة وأورثت وهناً وذلّة) (4) .

رجوع الإمام عليه‌السلام واعتزال الخوارج :

قفل أمير المؤمنين راجعاً إلى الكوفة مثقلاً بالهموم والآلام ، يرى باطل معاوية قد استحكم ، وأمره أوشك أن يتمّ ، وينظر إلى جيشه وقد فتّته التمرّد لا يستجيب لأَمره .

ــــــــــــ

(1) وقعة صفّين : 508 ، وشرح نهج البلاغة : 2 / 232 .

(2) تأريخ الطبري : 4 / 40 .

(3) وقعة صفّين : 511 ، والكامل في التأريخ : 3 / 321 .

(4) وقعة صفّين : 521 ، وتأريخ الطبري : 4 / 42 و 43 ، والكامل في التأريخ : 3 / 322 .

ودخل الإمام عليه‌السلام الكوفة فرأى لوعة وبكاء ، قد سادت جميع أرجائها حزناً على من قتل في صفّين ، واعتزلت فرقة تناهز اثني عشر ألف مقاتل عن جيش الإمام ، ولم يدخلوا الكوفة فلحقوا بحروراء ، وجعلوا أميرهم على القتال شبث بن ربعي ، وعلى الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري ، وخلعوا بيعة الإمام عليه‌السلام يدعون إلى جعل الأمر شورى بين المسلمين .. وكان أمر هؤلاء قد بدأ منذ كتابة صحيفة الموادعة ، إذ لم يعجبهم الأمر فاعترضوا وقالوا : لا نرضى لا حكم إلاّ لله ، واتّخذوه شعاراً لهم رغم أنّهم هم الذين أصرّوا على الإمام عليه‌السلام لقبول التحكيم .

وسعى أمير المؤمنين لمعالجة موقفهم بالحكمة والنصيحة ، فأرسل إليهم عبد الله بن عباس وأمره أن لا يعجل في الخوض معهم في جدال وخصومة ، ولحقه الإمام عليه‌السلام فكلّمهم وحاججهم وفنّد كلّ دعاويهم ، فاستجابوا له ودخلوا معه إلى الكوفة (1) .

اجتماع الحكمين :

حان الأجل الذي ضرب الحكمين ، فأرسل الإمام عليه‌السلام أربعمائة رجل عليهم شريح بن هاني ، وبعث معهم عبد الله بن عباس ليصلّي بهم ويلي أمورهم وأبو موسى الأشعري معهم ، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة رجل من أهل الشام حتى توافوا في دومة الجندل .

وقد سارع عدد من أهل الرأي والحكمة ممّن أخلصوا للإمام عليه‌السلام بتقديم النصح والتحذير لأبي موسى ، باذلين جهدهم في حمله على التبصرة والرويّة في

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 4 / 54 ، والكامل في التأريخ : 3 / 426 .

اتّخاذ القرار ، وخشية منهم من مكر عمرو وخداعه (1) .

قرار التحكيم :

اجتمع الحكمان : أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص ، والأوّل يحمل الغباء السياسي وضعف الانتماء العقائدي وقلّة الولاء لإمامه عليّ عليه‌السلام والثاني هو الماكر المخادع ذو السجيّة الغادرة والطامع إلى إقصاء خطّ أهل البيت عليهم‌السلام تماماً عن الميدان السياسي ، يدفعه لذلك طمعه للملك وشركته مع الطليق ابن الطليق معاوية .

ولم يطل الاجتماع طويلاً حتى تمكّن ابن العاص من معرفة نقاط الضعف في شخصية الأشعري والسيطرة عليه وتوجيهه نحو ما يريد ، واتفق الإثنان في اجتماع مغلق على خلع الإمام عليّ عليه‌السلام ومعاوية عن ولاية أمر المسلمين ، واختيار عبد الله بن عمر بن الخطاب ليكون الخليفة المقترح .

وبادر ابن عباس محذّراً الأشعري من أن ينساق في لعبة ابن العاص ، فقال له : ويحك ، والله إنّي لأظنّه قد خدعك إن اتّفقتما على أمر ، فقدّمه فليتكلّم بذلك الأمر قبلك ثمّ تكلّم أنت بعده ، فإنّ عَمْراً رجل غادر لا آمن من أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ، فإذا قمت في الناس خالفك .

فقام الأشعري فخطب وخلع الإمام عليّاً عليه‌السلام ، ثمّ انبرى عمرو فخطب وأكّد خلع الإمام وثبّت معاوية لولاية الأمر (2) .

وبتلك الغدرة ظفر معاوية بالنصر ، وعاد إليه أهل الشام يسلّمون عليه بإمرة المؤمنين ، وأمّا أهل العراق فغرقوا في الفتنة وأيقنوا بضلال ما أقدموا عليه ، وهرب أبو موسى إلى مكّة ، ورجع ابن عباس وشريح إلى الإمام عليّ عليه‌السلام .

ــــــــــــ

(1) وقعة صفّين : 534 ، وشرح نهج البلاغة : 2 / 246 . ط دار إحياء التراث العربي .

(2) تأريخ الطبري : 4 / 52 ، ومروج الذهب : 2 / 411 ، والكامل في التأريخ : 3 / 322 .

الفصل الرابع: الإمام علي عليه‌السلام مع المارقين

بمكن أن نقول : إن ظهور الخوارج إفراز طبيعي للصراع الدموي في الجمل وصفّين ، كما أنّنا لا يمكننا أن نعزل انحرافهم بمعزل عن انحراف الخلافة عن خطّ أهل البيت عليهم‌السلام ، لقد كان من أهمّ صفات الخوارج هو التحجّر والتمسّك بالظواهر والتعصّب والخشونة وعدم التمييز بين الحقّ والباطل ، وأنّهم سريعو التأثّر بالشائعات ، فيتردّدون عند أدنى شكّ .

ونجد أنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أخبر عن صفتهم ، إذ روي عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : (يخرج في هذه الأمة ـ ولم يقل منها ـ قوم تحقّرون صلاتكم مع صلاتهم ، يقرءون القرآن ولا يجاوز حلوقهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية) (1) .

ولم يتمكّن الإمام عليه‌السلام من معالجة أمراضهم وانحرافاتهم ، فقد عاجلته الحروب والتمرّدات في الجمل وصفّين في فترة قصيرة جدّاً ، ويمكن أن نعزو ظهور الخوارج إلى :

1 ـ الإحباط النفسي والفشل في تحقيق النصر ، وخصوصاً أنّ معارك الإمام عليه‌السلام ضد متمرّدين هم مسلمون في الظاهر ، فلم يتمكّن الخوارج من فهم

ــــــــــــ

(1) انظر البداية والنهاية : 7 / 321 ـ 337 وصحيح البخاري : 9 / 21 ـ 22 باب ترك قتال الخوارج ، وصحيح مسلم :2 / 744 الحديث 1064 ، ومسند أحمد : 3 / 56 دار صادر .

معالجة الإمام للمتمرّدين ، ولم يتمكّنوا من تحمّل نتيجة التحكيم ، في حين هم الذين أجبروه على قبول التحكيم ، ولم يواجهوا أنفسهم بمواقفهم المنحرفة ، فسعوا إلى تعليق أخطائهم وتحميل أوزارها إلى طرف آخر غيرهم ولم يكن إلاّ الإمام عليّ عليه‌السلام (1) .

2 ـ استغلالهم الحرية الفكرية التي فتحها الإمام عليه‌السلام لكي تمارس الأمة وعيها الرسالي ، فقد روي أنّهم كانوا يعترضون على الإمام حتى أثناء خطبته بدعوى لا حكم إلاّ لله ، وما كان الإمام يجيبهم إلاّ بـ (كلمة حقّ يراد بها باطل) . وقال الإمام عليه‌السلام لهم : (لكم عندنا ثلاث خصال : لا نمنعكم مساجد الله أن تصلّوا فيها ، ولا نمنعكم الفيء ما كانت أيديكم في أيدينا ن ولا نبدؤكم للحرب حتى تبدؤونا) (2) فتحوّلت حركتهم من حالة فردية إلى حالة جماعية .

ردّ الإمام عليه‌السلام على قرار الحكمين :

ولمّا بلغ خبر التحكيم إلى الإمام عليه‌السلام تألّم كثيراً ن وخطب في الناس يحثّهم ويدلّهم على إصلاح الخطأ الذي تورّطوا فيه وذكّرهم بنصحه لهم ، فقال عليه‌السلام : (إنّ مخالفة الناصح الشفيق المجرّب تورث الحسرة وتعقب الندامة ، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري، ونخلت لكم مخزون رأيي لو كان يطاع لقصير أمر فأبيتم عليَّ إباء المخالفين الجفاة المنابذين العصاة حتى ارتاب الناصح بنصحه وضّنَّ الزند بقدحه ، فكنت وإيّاكم كما قال أخو هوازن :

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أمرتكم أمري بمنعرج اللوى  |  | فلم تستبينوا النصح إلاّ ضحى الغد  |

ألا إنّ هذين الرجلين ـ أبا موسى الأشعري وابن العاص ـ اللّذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما ، وأحييا ما أمات القرآن ، واتّبع كلّ واحد منهما

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 4 / 53 ـ 58 .

(2) تأريخ الطبري : 4 / 54 ، والكامل في التأريخ : 3 / 334 ، ومستدرك وسائل الشيعة : 2 / 254 .

هواه بغير هدىً من الله ، فحكما بغير حجّة بيّنة ولا سنّة ماضية ، واختلفا في حكمهما وكلاهما لم يرشد ، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين ، استعدوا وتأهّبوا للمسير إلى الشام ، وأصبحوا في معسكركم إن شاء الله (1) .

وكتب الإمام إلى عبد الله بن عباس أن يعبّئ أهل البصرة للالتحاق بالإمام عليه‌السلام لقتال معاوية ، فالتحقت جموع البصرة بالكوفة ، ولكن عبث الخوارج الذين تجمّعوا من البصرة والكوفة متّجهين نحو النهروان وفسادهم في الأرض أقلق أصحاب الإمام عليه‌السلام من تركهم خلفهم لو توجّهوا إلى الشام فطلبوا من الإمام أن يقضي على الخوارج أوّلاً (2) .

وكان من عيث الخوارج أنّهم قبضوا على عبد الله بن خباب وزوجته فقتلوه ، وبقروا بطن امرأته ، وألقوا ما فيها من دون مبرّر ، وكذلك قتلوا الحارث بن مرّة العبدي رسول الإمام عليه‌السلام إليهم (3) .

المواجهة مع الخوارج :

تجمّعت قوات المارقين عن الدين قرب النهروان بعد أن التحقت بهم مجاميع من البصرة وغيرها ، وحاول الإمام عليه‌السلام مراراً أن يقنعهم بالتخلي عن فكرتهم وتمرّدهم وسعيهم للحرب ، ولم يجد فيهم إلاّ الفساد والجهل والإصرار ، فعبّأ جيشه ونصحهم بأخلاق الإسلام في كيفية التعامل في مثل هذه الظروف كما هو شأنه في كلّ معركة ولمّا انتهى الإمام عليه‌السلام ؛ إليهم بعث لهم رسولاً يطلب منهم قتلة عبد الله بن خباب وقتلة رسوله الحارث بن مرّة ، فردّوا عليه مجمعين : كلّنا قتلناهم وكلّنا مستحلّ لدمائكم ودمائهم .

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 4 / 57 .

(2) تأريخ الطبري : 4 / 57 و 58 ، والبداية والنهاية : 7 / 286 .

(3) تأريخ الطبري : 4 / 61 ، والبداية والنهاية : 7 / 286 ، والفصول المهمة لابن الصبّاغ : 108 .

وبعث الإمام عليه‌السلام قيس بن سعد وأبا أيوب الأنصاري لينصحوا القوم عساهم أن يفهموا واقع الأحداث ، ويجنّبوا الأمة مزيداً من الدماء، ثمّ أتاهم الإمام عليه‌السلام فقال لهم :

(أيّتها العصابة التي أخرجها عداوة المراء واللجاجة ، وصدّها عن الحقّ الهوى ، وطمع بها النزق ، وأصبحت في الخطب العظيم ! إنّي نذير لكم أن تصبحوا تلعنكم الأمة غداً صرعى بأثناء هذا الوادي ، وبأهضام هذا الغائط بغير بيّنة من ربّكم ولا برهان مبين) ثمّ بيّن لهم عليه‌السلام أنّه كره التحكيم وعارضه ، وشرح سبب معارضته بوضوح لهم ، ولكنّهم أنفسهم أجبروا الإمام على قبول التحكيم ، وأنّ الحكمين لم يحكما بالقرآن والسنّة ، وها هو الإمام يعدّ العدّة لملاقاة معاوية ثانية ، فلا معنى لخروج المارقين ، ولم يرعِو المارقون لقول الإمام وطالبوه بتكفير نفسه وإعلان توبته ، فقال عليه‌السلام :

(أصابكم حاصب ولا بقي منكم آثر أبعد إيماني برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وهجرتي معه وجهادي في سبيل الله أشهد على نفسي بالكفر، لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين) ثمّ انصرف عنهم ، وتقدّم الخوارج فاصطفّوا للقتال .. وعبّأ الإمام عليه‌السلام جيشه لملاقاتهم ، وفي محاولة أخيرة أمر الإمام أبا أيوب الأنصاري أن يرفع راية أمان للخوارج ، ويقول لهم : (من جاء إلى هذه الراية فهو آمن ومن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن إنّه لا حاجة لنا فيكم إلاّ فيمن قتل إخواننا) .

فانصرفت منهم مجاميع كثيرة ، وقال الإمام عليه‌السلام لأصحابه : كفّوا عنهم حتّى يبدؤوكم بقتال .

وهجم الخوارج وهم يتصايحون : لا حكم إلاّ لله ... الرواح الرواح إلى الجنّة ، ولم تمضِ إلاّ ساعة حتى أبيد أكثرهم ، ولم ينجُ منهم إلاّ أقلّ من عشرة ، ولم يُقتل من أصحاب الإمام إلاّ أقلّ من عشرة أشخاص (1) .

ــــــــــــ

(1) نهج البلاغة الخطبة 59 ط مؤسسة النشر الإسلامي ، ومروج الذهب : 2 / 385 ، والبداية والنهاية : 7 / 319 .

وبعد أن سكنت أوار المعركة ؛ أمر الإمام عليه‌السلام بطلب (ذي الثُّدية) ـ أحد قادة الخوارج ـ وألحَّ في ذلك لأنّ في ذلك مصداقاً لوصايا الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بمقاتلة المارقين عن الدين الذين فيهم ذو الثدية (1) . ولمّا وجدوه أخبروا الإمام عليه‌السلام فقال : (الله أكبر ما كذبت ولا كذّبت ، لو لا أن تنكلوا عن العمل ؛ لأخبرتكم بما قصّ الله على لسان نبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لمن قاتلهم مستبصراً في قتالهم ، عارفاً للحقّ الذي نحن عليه) وسجد عليه‌السلام شكراً لله (2) .

احتلال مصر :

بعد مقتل عثمان بن عفان ولّى أمير المؤمنين قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ولاية مصر ، ثمّ كلّف محمد بن أبي بكر ليقوم مقام قيس بن سعد لرأي رآه عليه‌السلام ، وبقيت مصر الجناح الآخر الذي يقلق معاوية ، فما أن ساد الاضطراب والتخاذل في المجتمع الإسلامي بعد المعارك ونتائجها ؛ تحرّك معاوية وعمرو بن العاص لاحتلال مصر التي كانت ثمناً لجهود عمرو بن العاص لتخريب حكومة الإمام وتهديم الدين ، وحاول عليه‌السلام أن يمدّ محمد بن أبي بكر بالعِدّة والعُدّة عند سماعه بزحف معاوية نحو مصر ، فلم يلبث إلاّ قليلاً حتى أتت الأخبار باحتلال مصر واستشهاد محمد بن أبي بكر ، وحزن الإمام عليه‌السلام على محمد (3) ، ثمّ كان قد كلّف عليه‌السلام مالك الأشتر بولاية مصر وكتب إليه عهده المشهور في إدارة الحكم وسياسة الناس ، ولكن معاوية وما يملك من وسائل الشيطان والخداع تمكّن من دسّ السم لمالك (4) .

ــــــــــــ

(1) صحيح مسلم : كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم والتحريض على قتالهم .

(2) تأريخ الطبري : 4 / 66 ، وشرح نهج البلاغة : 2 / 266 ، والبداية والنهاية : 297 .

(3) شرح النهج لابن أبي الحديد : 6 / 88 .

(4) تأريخ الطبري : 4 / 72 .

انهيار الأمة وتفكّكها :

بدأت بوضوح ملموس ملامح وآثار الانحراف الذي حصل يوم السقيفة في نهاية أيّام حكم الإمام عليه‌السلام حيث بدأ معاوية ومن اقتفى أثره في محاربة الإسلام من داخل الإسلام بتفكيك ما بقي من أواصر تماسك المجتمع الإسلامي وتخريبه وبناء مجتمع ينسجم وفق رغباتهم وأهوائهم، ويمكننا أن نلحظ حال الأمة بعد خوض الإمام عليه‌السلام ثلاث معارك فيصلية لاجتثاث الفساد فيما يلي :

1 ـ مُني الإمام عليه‌السلام والأمة بفقد خيار الصحابة الواعين والمؤثِّرين في المجتمع وحركة الرسالة الإسلامية الذين كان يمكن من خلالهم بناء الأمة الصالحة وفق نهج القرآن والسنّة بإشراف الإمام عليه‌السلام ، وقد بلغ الحزن في نفس الإمام مبلغاً عظيماً نجده في نعيه لهم بقوله :

(ما ضرّ إخواننا الذين سفكت دماؤهم بصفّين أن لا يكونوا اليوم أحياءً يسيغون الغصص ويشربون الرنق ، قد والله لقوا الله فوفّاهم أجورهم وأحلّهم دار الأمن بعد خوفهم .. أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحقّ ؟ أين عمار ؟ وأين ابن التيهان ؟ وأين ذو الشهادتين ؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على النيّة واُبرد برؤوسهم إلى الفجرة ؟) .

ثمّ وضع يده على كريمته فأطال البكاء ثمّ قال : (أَوِّه على إخواني الذين قرءوا القرآن فأحكموه وتدابروا الفرض فأقاموه ، أحيوا السنّة وأماتوا البدعة ، دعوا للجهاد فأجابوا ، ووثقوا بالقائد فاتّبعوه) (1) .

2 ـ تمرّد الجيش وتفكّكه وظهور الضعف والسأم من الحرب لكثرة مَن قتل من أهل العراق الذين يشكّلون العمود الفقري لفرق جيش الإمام عليه‌السلام ، ولم

ــــــــــــ

(1) شرح النهج لابن أبي الحديد : 10 / 99 .

يتمكن عليه‌السلام بما يملك من قدرة خطابية رائعة وحجّة بالغة أن يبعث الاندفاع والحزم في قاعدته الشعبية لمواصلة الحرب ، وممّا زاد من تفتيت الجيش عدم توقّف معاوية من مخاطبة زعماء القبائل والعناصر التي يبدو منها حبّ الدنيا ، فمنّاهم بالأموال والهبات والمناصب إذا قاموا بكلّ ما يؤدي إلى إضعاف قوّة الإمام عليه‌السلام وجماهيره المؤيدة ، حتى أنّ الإمام عليه‌السلام لم يستطع أن يعبّئ في معسكر النخيلة بعد معركة النهروان استعداداً لقتال معاوية ن فقد تسلّل أغلب أفراد الجيش إلى داخل الكوفة ممّا أدّى بالإمام عليه‌السلام أن يلغي المعسكر ويؤجّل الحرب (1) .

3 ـ لقد أتاح الظرف الذي مرّ به الإمام عليه‌السلام والاُمّة الإسلامية لمعاوية أن يقوم بشنّ غارات على أطراف البلاد الإسلامية ، فمارس القتل والسبي والإرهاب ، فبدأ بالهجوم على أطراف العراق فأرسل النعمان بن بشير الأنصاري للإغارة على منطقة (عين التمر) ، ووجّه سفيان بن عوف للإغارة على منطقة (هيت) ثم على (الأنبار والمدائن) ، وإلى (واقصة) وجّه معاوية الضحّاك بن قيس الفهري .. وفي كلّ مرّة يحاول الإمام عليه‌السلام دعوة الجماهير لمقاومة غارات معاوية فلم يلق الاستجابة السريعة ، وأدرك معاوية ضعف قوة حكومة الإمام عليه‌السلام وتزايد قوّته (2) .

وبعث معاوية بسر بن أُرطاة للغارة على الحجاز واليمن ، فعاث في الأرض فساداً وقتلاً للأبرياء (3) وبلغ الأسى والأسف في نفس الإمام عليه‌السلام مبلغاً عظيماً ممّا يفعل المجرمون ومن تخاذل الناس عنه، فكان يصرّح بضجره من تخاذلهم وتقاعسهم فقال : (اللّهمّ إنّي قد مللتهم وملّوني وسئمتهم وسئموني فأبدلني بهم خيراً منهم

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 4 / 67 .

(2) الغارات للثقفي : 476 ، وتأريخ الطبري : 4 / 102 و 103 .

(3) الغارات للثقفي : 476 ، وتأريخ الطبري : 4 / 106 ط مؤسسة الأعلمي .

وأبدلهم بي شراً منّي) (1) .

وقد أنذر الإمام عليه‌السلام الأمة الإسلامية بمستقبل مظلم وآلام كثيرة تحلّ بها نتيجة لما آلت إليها من تقاعس وتخاذل عن نصرة الحقّ ، فقال عليه‌السلام : (أما إنّكم ستلقون بعدي ذلاًّ شاملاً ، وسيفاً قاطعاً ، وأثرةً يتّخذها الظالمون فيكم سنّة ، فيفرّق جماعتكم ، ويبكي عيونكم ، ويدخل الفقر بيوتكم ، وتتمنّون عن قليل أنّكم رأيتموني فنصرتموني ، فستعلمون حقّ ما أقول لكم) (2) .

آخر محاولات الإمام عليه‌السلام :

بعد الاضطرابات المتعدّدة وتمكّن معاوية من فساد ونشر الرعب في أطراف الدولة الإسلامية ؛ عزم الإمام عليه‌السلام أن يقوم بحملة واسعة يستنهض فيها الاُمّة ، فخاطب الجماهير وهدّدهم فقال :

(أما إنّي قد سئمت من عتابكم وخطابكم ، فبيّنوا لي ما أنتم فاعلون ، فإن كنتم شاخصين معي إلى عدوّي فهو ما أطلب وما أحب ، وإن كنتم غير فاعلين فاكشفوه لي عن أمركم ، فو الله لئن لم تخرجوا معي بأجمعكم إلى عدوّكم فتقاتلوه حتى يحكم الله بيننا وبينه وهو خير الحاكمين لأدعوّن الله عليكم ثمّ لأسيرنّ إلى عدوّكم ولو لم يكن معي إلاّ عشرة) (3) .

وأيقظ هذا التهديد الحازم نفوس الناس ، وأيقنوا أنّ الإمام عليه‌السلام سيخرج بنفسه وأهله وخاصّته إلى معاوية وإن لم ينصروه ، فسيلحق العار والذلّ بهم إلى يوم القيامة ، فتحرّك وجهاء الناس للاستعداد لملاقاة معاوية والقضاء على الفساد ، وخرج الناس إلى معسكراتهم في منطقة (النخيلة) خارج الكوفة ، وتحرّكت بعض قطعات الجيش تسبق البقيّة مع الإمام عليه‌السلام الذي بقي ينتظر انقضاء شهر رمضان .

ــــــــــــ

(1) نهج البلاغة : الخطبة (25) .

(2) أنساب الأشراف : 1 / 200 ، نهج البلاغة : الكلمة (58) .

(3) سيرة الأئمة الإثني عشر : 1 / 451 عن البلاذري في أنساب الأشراف .

الفصل الخامس: الإمام علي عليه‌السلام شهيد المحراب (1)

تواطأت زمر الشرّ على أن لا تبقي للحقّ راية تخفق أو يداً تطول فتصلح أو صوتاً يدوّي فيكشف زيغ وفساد الظالمين والمنحرفين ، فبالأمس كان أبو سفيان يمكر ويغدر ويفجر ويخطّط لقتل النبيّ الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لوأد الرسالة الإلهية في مهدها ، ولكنّ الله أبى إلاّ أن يتمّ نوره .

وها هو معاوية بن أبي سفيان يستفيد من نتائج انحراف السقيفة ، ويتمّم ما بدأه أبوه سعياص للقضاء على الرسالة الإسلامية ، تعينه في ذلك قوى الجهل والضلالة والعمى ، فخطّطوا لقتل ضمير الأمة الحيّ وصوت الحقّ والعدل وحامل لواء الإسلام الخالد ومحيي الشريعة المحمديّة السمحاء .

واجتمعت ضلالتهم على أن يطفئوا نور الهدى ليبقى الظلام يلفّ انحرافهم وفسادهم ، فامتدّت يد الشيطان لتصافح ابن ملجم في عتمة الليل، وفي ختلة وغدرة هوت بالسيف على هامة طالما استدبرت الدنيا واستقبلت بيت الله وهي ساجدة ، وغادرتها منها في تلك الحال .

لقد اجتمعت عصابة ضالّة على قتل أمير المؤمنين عليه‌السلام لا يبعد أن كان محرّكها معاوية ، واتفقوا أن يداهموا الإمام عند ذهابه لصلاة الفجر ، فما كان أحد يجرؤ على مواجهة الإمام عليه‌السلام .

ــــــــــــ

(1) استشهد أمير المؤمنين في شهر رمضان عام (40) هـ .

ولمّا كانت ليلة تسع عشرة من شهر رمضان ؛ كان الإمام عليه‌السلام يكثر التأمل في السماء وهو يردّد : (ما كذبت ولا كذّبت إنّها الليلة التي وعدت بها) (1) وأمضى عليه‌السلام ليلته بالدعاء والمناجاة ، ثمّ خرج إلى بيت الله لصلاة الصبح فجعل يوقظ الناس على عادته إلى عبادة الله فينادي : الصلاة ... الصلاة .

ثمّ شرع عليه‌السلام في صلاته ، وبينما هو منشغل يناجي ربّه إذ هوى المجرم اللعين عبد الرحمن بن ملجم وهو يصرخ بشعار الخوارج (الحكم لله لا لك) ووقع السيف على رأسه المبارك فقدّ منه فهتف الإمام عليه‌السلام : (فزت وربّ الكعبة) (2) .

ولمّا علت الضجّة في المسجد ؛ أقبل الناس مسرعين فوجدوا الإمام عليه‌السلام طريحاً في محرابه ، فحملوه إلى داره وهو معصّب الرأس والناس يضجّون بالبكاء والعويل ، واُلقي القبض على المجرم ابن ملجم ، وأوصى الإمام عليه‌السلام ولده الحسن وبنيه وأهل بيته أن يحسنوا إلى أسيرهم وقال : (النفس بالنفس ، فإن أنا مُتّ فاقتلوه كما قتلني ، وإن أنا عشت رأيت فيه رأيي) (3) .

وصيّة الإمام عليه‌السلام :

أوصى الإمام عليه‌السلام ولديه الحسن والحسين عليهما‌السلام وجميع أهل البيت بوصايا عامّة فقال :

(أوصيكما بتقوى الله ، وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما ، وقولا بالحقّ واعملا للأجر ، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً ، واعملا بما في

ــــــــــــ

(1) الصواعق المحرقة : 80 ، وبحار الأنوار : 42 / 230 .

(2) الإمامة والسياسة : 180 أو : 135 ط بيروت و 159 ط مصر ، وتأريخ دمشق : 3 / 367 ترجمة الإمام عليّ عليه‌السلام .

(3) مقاتل الطالبيين : 22 ، شرح النهج لابن أبي الحديد : 6 م 118 ، وبحار الأنوار : 42 / 231 .

الكتاب ، ولا تأخذكما في الله لومة لائم) (1) .

ولم يمهل الجرح أمير المؤمنين طويلاً لشدّته وعظيم وقعته ، فقد دنا الأجل المحتوم ، وكان آخر ما نطق به قوله تعالى : (لِمِثْلِ هذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) ثمّ فاضت روحه الطاهرة إلى جنّة المأوى .

دفن وتأبين الإمام عليه‌السلام :

نهض الإمامان الحسن والحسين عليهما‌السلام بتجهيز أمير المؤمنين وما يترتّب عليهما من إجراءات الدفن من غسل وتكفين ، ثمّ صلى الإمام الحسن عليه‌السلام على أبيه ومعه ثلّة من أهل بيته وأصحابه ، ثمّ حملوا الجثمان الطاهر إلى مثواه الأخير ، فدفن في النجف قريباً من الكوفة ، وتمّت كلّ الإجراءات ليلاً (2) .

ثمّ وقف صعصعة بن صوحان يؤبّن الإمام عليه‌السلام فقال :

هنيئاً لك يا أبا الحسن ! فلقد طاب مولدك ، وقوي صبرك ، وعظم جهادك ، وظفرت برأيك ، وربحت تجارتك ، وقدمتَ على خالقك فتلقّاك الله ببشارته وحفّتك ملائكته ، واستقررتَ في جوار المصطفى فأكرمك الله بجواره ، ولحقتَ بدرجة أخيك المصطفى ، وشربت بكأسه الأوفى ، فأسأل الله أن يمنَّ علينا باقتفائنا أثرك ، والعمل بسيرتك ، والموالاة لأوليائك ، والمعاداة لأعدائك ، وأن يحشرنا في زمرة أوليائك ، فقد نلتَ ما لم ينله أحد ، وأدركت ما لم يُدركه أحد ، وجاهدت في سبيل ربّك بين يدي أخيك المصطفى حقّ جهاده ، وقمت بدين الله حقّ القيام ، حتى أقمتَ السنن وأبرت الفتن واستقام الإسلام وانتظم الإيمان ، فعليك منّي أفضل الصلاة والسلام .

ــــــــــــ

(1) تأريخ الطبري : 4 / 114 ط مؤسسة الأعلمي ، راجع أيضاً نهج البلاغة : باب الكتب 47 طبعة صبحي الصالح .

(2) بحار الأنوار ك 42 / 290 .

ثمّ قال : لقد شرّف الله مقامك ن وكنت أقرب الناس إلى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم نسباً ، وأوّلهم إسلاماً ، وأوفاهم يقيناً ، وأشدّهم قلباً ، وأبذلهم لنفسه مجاهداً ، وأعظمهم في الخير نصيباً ، فلا حرمنا أجرك ، ولا أذلّنا بعدك ، فو الله لقد كانت حياتك مفاتح الخير ومغالق الشر ، وإنّ يومك هذا مفتاح كلّ شر ومغلاق كلّ خير ، ولو أنّ الناس قبلوا منك ؛ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولكنّهم آثروا الدنيا على الآخرة (1) .

\* \* \*

ــــــــــــ

(1) بحار الأنوار : 42 / 295 .

الفصل السادس: تراث الإمام المرتضى علي بن أبي طالب عليه‌السلام

إنّ أوّل عمل اهتمّ به الإمام عليه‌السلام بعد وفاة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ـ وقد كان بوصية منه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ـ هو جمعه للقرآن الكريم ، وامتاز بترتيبه حسب النزول وتضمّن معلومات فريدة عن شأن النزول والتفسير والتأويل الذي تحتاجه اُمّة محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وقد عرضه على الخليفة الأوّل فقال : لا حاجة لنا به ، فأشار عليه‌السلام إلى أنّهم سوف لا يحصلون عليه بعد ذلك اليوم ، وهكذا كان ، والمعروف أنّه يتوارثه الأئمّة من أبنائه عليهم‌السلام .

واُثر عن الإمام ما سمّي بالصحيفة التي تضمّنت أحكام الدّيات ، وقد روى عنها البخاري ومسلم وابن حنبل ، كما اُثر عه ما سمّي بالجامعة التي تضمّنت أو جمعت كلّ ما يحتاج إليه الناس من حلال و حرام ، ووصفها الإمام الصادق بأنّ طولها سبعون ذراعاً ، وليس من قضية إلاّ وهي فيها حتى أرش الخدش .

وتضمّن كتاب الجفر ما يرتبط بحوادث المستقبل وصحف الأنبياء السابقين ، وقد يشبهه مصحف فاطمة وهو ما أملته عليه فاطمة الزهراء عليها‌السلام بعد وفاة أبيها ممّا كانت تُلهم به من مفاهيم (1) . وكلّ هذه الكتب تعتبر من مواريث الإمامة التي يتناقلها الأئمّة عليهم‌السلام إماماً بعد إمام .

ــــــــــــ

(1) أصول الكافي : الجزء الأول باب ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة . وراجع : سيرة الأئمّة الاثني عشر : 1 / 96 ـ 99 و 274 ـ 294 .

وقد تصدّى جمع من علماء الأمة إلى جمع ما اُثر عن الإمام عليه‌السلام من خطب ورسائل وكلمات ، وسمّيت بأسماء تتناسب مع أغراض جامعيها ، وأوّلها وأشهرها ما سمّي بـ (نهج البلاغة) للشريف الرضي المتوفى (404 هـ) ، وقد انطوى على روائع فكر الإمام في شتى المجالات العقائدية والأخلاقية وأنظمة الحكم والإدارة والتأريخ والاجتماع وعلم النفس والدعاء والعبادة وسائر العلوم الطبيعية والإنسانية ، وهو ما اختاره الشريف الرضي من خطبه ورسائله ووصاياه وكلماته البليغة . ومن هنا فقد تصدّى علماء آخرون لجمع ما لم يجمعه الشريف الرضي وسمّي بمستدرك نهج البلاغة .

وجمع النسائي المتوفى (303 هـ) ما رواه الإمام علي عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وسمَّاه بـ (مسند الإمام عليّ عليه‌السلام) .

وجمع الآمدي (المتوفّى بين 520 و 550 هـ) قصار كلماته الحكمية وسمّاها بـ (غررالحكم ودرر الكلم) .

وجمع أبو إسحاق الوطواط (المتوفّى بين 553 و 583 هـ) من كلامه ما سمّاه بـ (مطلوب كلّ طالب من كلام عليّ بن أبي طالب) . وأثرت عن الجاحظ المتوفى (255 هـ) (مائة كلمة) للإمام عليّ عليه‌السلام و (نثر اللئالي) جمع الطبرسي صاحب مجمع البيان ، وكتاب صفّين لنصر بن مزاحم اشتمل على مجموعة من خطبه وكتبه . و(الصحيفة العلوية) وهي مجموعة من الأدعية التي أثرت عنه عليه‌السلام.

في رحاب نهج البلاغة :

إذا كان (القرآن الكريم) هو معجزة النبوة ؛ فإنّ (نهج البلاغة) معجزة الإمامة ... فليست هذه العقلية العظيمة المتجلّية بذلك الأسلوب العلوي الواضحة في كلّ فقرة من فقرات (النهج) وفي كلّ شذرة من تلك الشذور إلاّ غرس ذلك النبيّ العظيم المستمدّ من وحي الله تعالى ، فما من موضوع يطرقه الإمام إلاّ وترى نور الله

يشعّ أمامه وهدي الرسول ينير له الطريق) (1) .

وقال الشريف الرضي قدس‌سره : كان أمير المؤمنين عليه‌السلام مشرّع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولّدها ، ومنه عليه‌السلام ظهر مكنونها وعنه أخذت قوانينها ، وعلى أمثلته حذا كلّ قائل خطيب ، وبكلامه استعان كلّ واعظ بليغ ، ومع ذلك فقد سبق وقصّروا ، وقد تقدّم وأخّروا ، لأنّ كلامه عليه‌السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي ، وفيه عبقة من الكلام النبويّ .

في رحاب العقل والعلم والمعرفة :

1 ـ لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهل ، والعقل ينبوع الخير وأشرف مزيّة ، وأجمل زينة .

2 ـ العقل رسول الحقّ . العقل أقوى أساس . والإنسان بعقله . وبالعقل صلاح كلّ أمر .

3 ـ العلم غطاء وساتر والعقل حسام قاطع ، فاستُر خلل خُلقك بحلمك، وقاتل هواك بعقلك . والفكر مرآة صافية .

4 ـ العقل صاحب جيش الرحمن ، والهوى قائد جيش الشيطان ، والنفس متجاذبة بينهما فأيّهما غلب كانت في حيّزه .

5 ـ أفضل حظّ الرجل عقله ، إن ذلّ أعزّه ، وإن سقط رفعه ، وإن ضلّ أرشده ، وإن تكلّم سدّده .

6 ـ إنّ أفضل الناس عند الله من أحيا عقله وأمات شهوته وأتعب نفسه لإصلاح آخرته .

7 ـ على قدر العقل يكون الدين . ما آمن المؤمن حتى عقل . قيمة كلّ امرئ عقله .

8 ـ وعرّف العقل بما يلي :

أ ـ إنّما العقل التجنّب من الإثم والنظر في العواقب والأخذ بالحزم .

ب ـ العقل أصل العلم وداعية الفهم .

ــــــــــــ

(1) حياة أمير المؤمنين في عهد النبي : 402 ، تأليف : محمد صادق الصدر .

ج ـ العقل غريزة تزيد بالعلم وبالتجارب .

د ـ للقلوب خواطر سوء والعقول تزجر عنها .

هـ غريزة العقل تأبى ذميم الفعل .

و ـ العاقل من يعرف خير الشرّين .

في رحاب القرآن الكريم والسنّة النبويّة المباركة :

1 ـ قال عليه‌السلام : وأنزل عليكم الكتاب تبياناً لكلّ شيء وعَمَّر فيكم نبيّه أزماناً حتى أكمل له ولكم ـ فيما أنزل من كتابه ـ دينه الذي رضي لنفسه .

2 ـ ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق ، ولكن أخبركم عنه ، ألا إنّ فيه علم ما يأتي ، والحديث عن الماضي ، ودواء دائكم ، ونظم ما بينكم ، وينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض ، ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله ، ولا يَعوَجُّ فيقام ولا يزيغ فيستعتب ... ولا تخلقه كثرة الردّ وولوج السمع ... لا تفنى عجائبه ، ولا تنقضي غرائبه ن ولا تكشف الظلمات إلاّ به .

وفيه ربيع القلب ... وما للقلب جلاء غيره .. فهو معدن الإيمان وبحبوحته ، وينابيع العلم وبحوره ورياض العدل وغدرانه ، وأثافيّ الإسلام وبنيانه ، وأودية الحق وغيطانه ، وبحر لا ينزفه المستنزفون ، وعيون لا ينضبها الماتحون ، ومناهل لا يغيضها الواردون .. جعله الله ريّاً لعطش العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء ، ومحاجَّ لطرق الصلحاء ... وعلماً لمن وعى ، وحديثاً لمن روى ، وحكماً لمن قضى .. وشفاءً لا تخشى أسقامه .. ودواءً ليس بعده داء ... فاستشفوه من أدوائكم ، واستعينوا به على لأوائكم ؛ فإنّ فيه شفاءً من أكبر الداء . وهو الكفر والنفاق والغيّ والضلال (1) .

وأما سُنَّةُ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقد دعا الإمام إلى العمل بها، وبيَّن موقع الأئمّة وموقفهم المشرّف في إيصال السنّة الصحيحة إلى الأمة وإحياء ما أماته المبطلون من سنّة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وأسباب انحراف من انحرف عن مدار السُّنة .

ــــــــــــ

(1) راجع الخطبة 176 من نهج البلاغة ، طبعة صبحي الصالح .

قال عليه‌السلام: اقتدوا بهدي نبيّكم فإنّه أفضل الهدي ، واستنّوا بسنّته فإنّها أهدى السنن .

وقال عليه‌السلام : أحبّ العباد إلى الله المتأسّي بنبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والمقتصّ أثره . وقال عليه‌السلام : إرض بمحمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم رائداً والى النجاة قائداً .

وقال عليه‌السلام : إنّ في أيدي الناس حقّاً وباطلاً وصدقاً وكذباً وناسخاً ومنسوخاً وعامّاً وخاصّاً ومحكماً ومتشابهاً وحفظاً ووهماً ، ولقد كذب على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم على عهده حتى قام خطيباً فقال : من كذّب عليّ متعمّداً ؛ فليتبوأ مقعده من النار .

وقال عليه‌السلام : لا يُقاس بآل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من هذه الأمة أحد .. هم عيش العلم وموت الجهل .. لا يخالفون الحقّ ولا يختلفون فيه .. هم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام ، بهم عاد الحقّ في نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، وانقطع لسانه عن منبته . عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية . هم موضع سرّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وحماة أمره وعيبة علمه وموئل حكمه وكهوف كتبه وجبال دينه ، هم مصابيح الظلم وينابيع الحِكمَ ومعادن العلم ومواطن الحلم .

وقال عليه‌السلام : وإنّي لعلى بيّنة من ربّي ومنهاج من نبيّي ، وإنّي لعلى الطريق الواضح ألفظه لفظاً (1) .

في رحاب التوحيد والعدل والمعاد :

قال عليه‌السلام في مجال إثبات وجوده تعالى : الحمد لله الدالّ على وجوده بخلقه وبمحدث خلقه على أزليته وباشتباههم على أن لا شبه له . وقال : عجبت لمن شكّ في الله وهو يرى خلق الله .. بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التدبير المتقن والقضاء المبرم .

وحين سُئل عليه‌السلام : هل رأيت ربّك ؟ أجاب : وكيف أعبد ربّاً لم أره ؟ ثمّ قال : لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان .. عظم عن أن تثبت ربوبيّته بإحاطة قلب أو بَصَر .

وجاء في دعائه المعروف بدعاء الصباح : يا من دلّ على ذاته بذاته ، وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته ، وجلّ عن ملائمة كيفياته . يا من قرب من خطرات الظنون وبَعُد عن لحظات العيون ، وعلم بما كان قبل أن يكون ...

ــــــــــــ

(1) راجع المعجم الموضوعي لنهج البلاغة : 42 ـ 53 و 101 وتصنيف غرر الحكم : 109 ـ 117 .

لقد شحن الإمام خطبه العلوية بآيات القدرة الإلهية السماوية والأرضية ، وأطنب فيها إطناب الخبير البصير ، ففصّل آيات القدرة والعظمة تفصيلاً يعطي للمطالع إيماناً وخشوعاً لله وخضوعاً لعظمته ، بحيث يلمس السامع لخطبه عليه‌السلام أنّه كما قال : والله لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً .

وقدّم الإمام تصويراً دقيقاً لصفاته تعالى بحيث صار معياراً للبحوث الفلسفية الدقيقة ومفتاحاً للدخول إلى مثل هذه البحوث التي تضلّ فيها الأفكار لو لا الهداية الربّانية الموجّهة .

قال عليه‌السلام : وكمال توحيده الإخلاص له . وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه ، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة ، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثنّاه ، ومن ثنّاه فقد جزّأه ، ومن جزّأه فقد جهله ، ومن جهله فقد أشار إليه ، ومَن أشار إليه فقد حدّه ، ومن حدّه فقد عدّه ... كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كلّ شيء لا بمقارنة وغير كلّ شيء لا بمزايلة .

وقال عليه‌السلام : مستدلاً على وحدانيته : واعلم يا بني ، إنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ، واعلم يا بُني أنّ أحداً لم ينبئ عن الله سبحانه كما أنبأ عنه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فارض به رائداً .

وقال عن عدله تعالى : وارتفع عن ظلم عباده وقام بالقسط في خلقه وعدل عليهم في حكمه وعدل في كلّ ما قضى . وقال : فإنّه لم يأمرك إلاّ بحسن ولم ينهك إلاّ عن قبيح وإنّ حكمه في أهل السماء والأرض لواحد . وما كان الله ليدخل الجنّة بشراً بأمرٍ أخرج به منها ملكاً .

في رحاب القيادة الإلهية (النبوّة والإمامة) :

الهداية الإلهية عبر القادة المهديّين الذين اختارهم الله لهداية عباده هي سنّة الله الدائمة لخلقه الذين زوّدهم بالعقل والعلم وسلّحهم بسلاح الإرادة والاختيار .

وتبدأ هذه السُنّة لهذه البشرية باختيار آدم خيرة من خلقه .. : فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله وليقيم الحجّة به على عباده ، ولم يخلهم بعد أن قبضهم ممّا يؤكد عليهم حجّة ربوبيّته ويصل بينهم وبين معرفته ، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه ومتحمّلي ودائع رسالاته قرناً فقرناً ... فاستودعهم في أفضل مستودع ، وأقرّهم في خير مستقر ، تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهّرات الأرحام .. حتى أخرج آخرهم نبيّنا محمداً صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من أفضل المعادن منبتاً وأعزّ الأُرومات مغرساً ، من الشجرة التي صدع منها أنبياءه وانتجب منها أمناءه .

ووصف الإمام عليه‌السلام زهد الأنبياء وشجاعتهم وتواضعهم ورعاية الله لهم وتربيته لهم بالاختبار والابتلاء وتعريضهم للأذى في سبيل الله ، وبيّن وظائفهم المتمثّلة في التبليغ والدعوة إلى الله سبحانه والتبشير والإنذار وإقامة حكم الله في الأرض وهداية الناس بإخراجهم من الجهل والضلالة ومجاهدة أعداء الله .

وتستمرّ مسيرة الهداة الربّانيين على مدى العصور إلى يوم القيامة ، فلا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة ، إمّا ظاهراً مشهوراً وإمّا خائفاً مستوراً لئلاّ تبطل حجج الله وبيّناته ... وحيث خُتمت النبوة بمحمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم انتهى أمر الهداية إلى عترته التي هي خير العتر ، إن نطقوا صدقوا وإن صمتوا لم يسبقوا ، وهم شجرة النبوّة ومحطّ الرسالة ومختلف الملائكة ومعادن العلم وينابيع الحكم ، والأعظمون عند الله قدراً .. يحفظ الله بهم حججه وبيّناته .. بهم عُلِم الكتاب وبه عُلموا ، فيهم كرائم القرآن وكنوز الرحمن ، فهم الراسخون في العلم ... يخبركم حلمهم عن علمهم وظاهرهم عن باطنهم وصمتهم عن حكم منطقهم ، لا يخالفون الحقّ ولا يختلفون فيه ، وهم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام ، بهم عاد الحقّ إلى نصابه وانزاح الباطل عن مقامه ، فهم أساس الدين وعماد اليقين ، إليهم يفيء الغالي وبهم يلحق التالي ، لهم خصائص حقّ الولاية وفيهم الوصية والوراثة .

لقد أكّد الإمام على موقف أهل البيت القيادي الفكري والسياسي وأدان زحزحة القيادة عن موقعها الذي عيّنه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم واعترض على خطّ الخلفاء جملةً وتفصيلاً ، بالرغم من اضطراره للتنازل عن حقّه وجهد في تقديم الأطروحة النبويّة للقيادة بعد الرسول بشكل ناصع ، وجاهد من أجل إحقاق الحقّ بشكل حكيم وأسلوب كان ينسجم مع حساسية الظرف التي كانت تمرّ بها الدولة والاُمّة الإسلامية حينذاك ، واستطاع أن يقدّم النظرية كاملة ويعدّ العدّة لتطبيقها حينما تسمح له الظروف (1) .

في رحاب الإمام المهدي عليه‌السلام :

استأثر التبشير بقضيّة الإمام المهدي (عج) اهتمام القرآن الكريم والنبيّ العظيم والإمام المرتضى على الرغم من التشتّت الذي كان يعيشه ذلك المجتمع المضطرب بعد الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، قال عليه‌السلام : ألا وفي غدٍ ـ وسيأتي غدٌ بما لا تعرفون ـ يأخذ الوالي من غيرها عمّالَها على مساوئ أعمالها ، وتُخرج له الأرض أفاليذ كبدها ، وتلقي إليه سِلْماً مقاليدَها ، فيريكم كيف عدلُ السيرة ، ويُحيي ميِّت الكتاب والسُنّة (2) .

إنّها رؤية دقيقة محدّدة مضيئة واضحة المعالم ، تتمثّل في قيام ثورة عالمية تصحّح وضع العالم الإسلامي بل الإنساني أجمع ، قال عليه‌السلام عن قائدها : يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى ، ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا

ــــــــــــ

(1) راجع المعجم الموضوعي لنهج البلاغة : 87 ـ 116 و 374 ـ 445 .

(2) من الخطبة 138 من نهج البلاغة .

القرآن على الرأي (1) .

وقد تصدّت مؤسّسة نهج البلاغة لجمع الأحاديث التي وردت عن الإمام عليّ عليه‌السلام حول الإمام المهدي (عج) وقد اجتمعت في جزء واحد وبلغ مجموعه (291) حديثاً ، أربعة عشر منها عن اسم المهدي وصفاته ودعائه وسبعة وسبعون منها عن نسب الإمام وأنّه من قريش وبني هاشم ومن أهل البيت ومن ولد عليّ ، وأنّه من ولد فاطمة ، بل من ولد الحسين وأحد الأئمّة الإثني عشر ن وخمسة وأربعون منها ترتبط بالمهدي في القرآن ونهج البلاغة وشعر أمير المؤمنين عليه‌السلام ، وثلاثة وعشرون منها حول أنصار المهدي والرايات السود ، واثنا عشر منها حول السفياني والدجّال ، وستة وعشرون منها عن غيبة المهدي ومحن الشيعة عند الغيبة وفضيلة انتظار الفرج ، وخسمة وسبعون منها حول الفتن قبل المهدي وعلائم الظهور وما بعد الظهور ودابّة الأرض ويأجوج ومأجوج ، وتسعة عشر منها ترتبط بفضل مسجد الكوفة وخروج رجل من أهل بيته عليهم‌السلام بأهل المشرق يحمل السيف على عاتقه ثمانية أشهر حتى يقولوا : والله ما هذا من ولد فاطمة .. ثم يبيّن حكم الأرض عند ظهور القائم عليه‌السلام وحكومته وكيفية ختم الدين به .

قال عليه‌السلام : يا كميل ، ما من علم إلاّ وأنا أفتحه ، وما من سرٍّ إلاّ والقائم عليه‌السلام يختمه .. يا كميل ، لا بدّ لِماضيكم من أوبة ، ولابدّ لنا فيكم من غلبة ... (2) .

بنا يختم الدين كما بنا فُتح ، وبنا يستنقذون من ضلالة الفتنة كما استنقذوا من ضلالة الشرك ، وبنا يؤلّف الله قلوبهم في الدين بعد عداوة الفتنة كما ألّف بين قلوبهم ودينهم بعد عداوة الشِرك (3) . ولو قد قام قائمنا ؛ لأنزلت السماء قطرها وأخرجت الأرض نباتها ،

ــــــــــــ

(1) المصدر السابق .

(2) عن بشارة المصطفى ك 24 ـ 31 .

(3) عن ملاحم ابن طاووس : 84 ـ 85 .

وليذهب الشحناء من قلوب العباد ، وأصلحت السباع والبهائم حتى تمشي المرأة من العراق إلى الشام لا تضع قدمها إلاّ على النبات وعلى رأسها زينتها لا يهيجها سبع ولا تخافه (1) .

في رحاب الحكم الإسلامي : فلسفته وأصوله

لقد قدَّم الإمام عليه‌السلام نموذجاً عمليّاً فريداً في الحكم الإسلامي بعد عصر الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وقد قرن ذلك بنظرية كاملة منسجمة الأبعاد والجوانب تمثّلت في كتابه وعهده المعروف لمالك الأشتر حين ولاّه مصر ، وقد اهتمّ الاجتماعيون بهذا العهد شرحاً وتعليقاً وتبييناً ومقارنةً بأنظمة الحكم الأخرى ، ويعتبر هذا النص دليلاً من أدلّة إمامته عليه‌السلام وبه تتميّز مدرسة أهل البيت عن سائر الاتّجاهات التي حملت اسم الإسلام والخلافة الإسلامية ، وبالإضافة إلى هذا النصّ المعجز نجد في نهج البلاغة وغيره من النصوص التي وصلتنا عنه عليه‌السلام ما يعيننا على كشف نظرية الإمام ونظرية الإسلام الفريدة عن فلسفة الحكم ونظامه أصولاً وفروعاً ، ونشير إلى الخطوط العريضة بإيجاز .

لقد أكّد الإمام عليه‌السلام على أنّ الحكم ضرورة اجتماعية بقوله : لابدّ للناس من أمير برّ أو فاجر ، والإمامة نظام الأمة . وبيّن أنّ الحكم مختبر الحياة قائلاً : القدرة تُظهر محمود الخصال ومذمومها .

وأوضح أنّ الحكم عرض زائل فلا ينبغي الاغترار به بقوله : الدولة كما تُقبل تُدبر . ثمّ أفاد أنّ الحكم النموذجي هو الذي يكون ذا قيمة ويستحقّ التمهيد والتخطيط له .

وأمّا الخطوط العريضة لنظام الحكم الإسلامي ومهام الدولة النموذجية فتتمثّل في : 1 ـ تثقيف الأمة . 2 ـ إقامة العدل . 3 ـ حماية الدين . 4 ـ إقامة الحدود . 5 ـ تربية المجتمع .

6 ـ الاجتهاد في النصيحة والإبلاغ في الموعظة. 7 ـ توفير الفيء وتحسين الوضع المعيشي للناس . 8 ـ الدفاع عن استقلال وكرامة الأمة . 9 ـ توفير الأمن الداخلي .

10 ـ نصرة المستضعفين . 11 ـ إغاثة الملهوفين . 12 ـ الاهتمام بالعمران .

ــــــــــــ

(1) عن خصال الصدوق : 2 / 418 . وراجع موسوعة أحاديث أمير المؤمنين ، الجزء الأول ما روى عنه حول الإمام المهدي عليه‌السلام. مؤسّسة نهج البلاغة .

وأمّا الحاكم النموذجي فينبغي له أن يتمتّع بجملة من الصفات والتي تكون من أهمّ عوامل ثبات حكمه ، وهي ملخّصاً كما يلي : 1 ـ الانقياد للحقّ . 2 ـ تفهّم الأمور . 3 ـ سطوع البيان . 4 ـ الشجاعة في إقامة الحقّ . 5 ـ حسن النيّة . 6 ـ الإحسان إلى الرعية . 7 ـ عفّة النفس . 8 ـ عموم العدل . 9 ـ التدبير والاقتصاد . 10 ـ الإنصاف . 11 ـ الرفق . 12 ـ الحلم . 13 ـ الدفاع عن الدين . 14 ـ كثرة الورع . 15 ـ الشعور بالأمانة والمسؤولية . 16 ـ اليقظة . 17 ـ التكليف بما يُطيقه الشعب . 18 ـ عدم الاغترار بالقدرة . 19 ـ التوزيع الصحيح للأعمال وتعيين مسؤولية كلّ فرد بما يناسبه . 20 ـ البذل والجود من غير إسراف من كلّ ما يملك .

وقد طفحت كلمات الإمام عليه‌السلام بعوامل سقوط الدول وآفات الحكم محذّراً الحكّام والعمّال والولاة منها ، ويمكن إيجازها كما يلي :

1 ـ الجهل . 2 ـ الاستبداد بالرأي وترك المشورة . 3 ـ إتّباع الهوى . 4 ـ تعدّد مراكز القرار . 5 ـ إتّباع الباطل والاستخفاف بالدين . 6 ـ البغي والظلم . 7 ـ التكبّر والفخر . 8 ـ منع الإحسان. 9 ـ الإسراف والتبذير . 10 ـ الغفلة . 11 ـ الانتقام . 12 ـ سوء التدبير . 13 ـ قلّة الاعتبار وعدم الانتفاع بالتجارب . 14 ـ كثرة الاعتذار وتراكم الأخطاء . 15 ـ تضييع الأصول . 16 ـ تقديم الأراذل وغير الجديرين للمناصب الإدارية على الأفراد الأكفاء ، قال عليه‌السلام : تولّي الأراذل والأحداث الدُوَل دليل انحلالها وإدبارها .

17 ـ الخيانة ، قال عليه‌السلام: إذا ظهرت الخيانات ارتفعت البركات ، ومن خانه وزيره فسد تدبيره . 18 ـ ضعف السياسة ، قال عليه‌السلام: آفة الزعماء ضعف السياسة ، وآفة القوي استضعاف الخصم ، ومن تأخّر تدبيره تقدّم تدميره ، 19 ـ سوء السيرة ، قال عليه‌السلام: آفة الملوك سوء السيرة . 20 ـ عجز العمّال والولاة . 21 ـ ضعف الحماية الشعبية للحاكم ، قال عليه‌السلام: آفة المُلك ضعف الحماية . 22 ـ سوء الظنّ بالنصيح من علامات الإدبار . 23 ـ طمع القادة وحرصهم وجشعهم على ملذّات الحياة الدنيا، قال عليه‌السلام: السيّد من لا يصانع ولا يخادع ولا تغرّه المطامع ، وقال عليه‌السلام: الطمع يذلّ الأمير . 24 ـ وفقدان الأمن .

في رحاب العبادات والفرائض :

قال عليه‌السلام : إنّ الله سبحانه فرض عليكم فرائض فلا تضيّعوها ، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها ، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء ولم يدعها نسياناً فلا تتكلّفوها ، ولم يأمركم إلاّ بحسن ، ولم ينهكم إلاّ عن قبيح .

وقال عليه‌السلام : عليك بحفظ كلّ أمر لا تعذر بإضاعته . وقال : أوّل ما يجب عليكم لله سبحانه شُكر أياديه وابتغاء مراضيه ، وطوبى لمن حافظ على طاعة ربّه ، وسارعوا إلى فعل الطاعات وسابقوا إلى فعل الصالحات ، فإن قصّرتم فإيّاكم أن تقصّروا عن أداء الفرائض ، ولا قربة بالنوافل إذا أضرّت بالفرائض ، ولا عبادة كأداء الفرائض . واهتمّ الإمام عليه‌السلام ببيان فلسفة جملة من التشريعات قائلاً : فرض الله سبحانه الإيمان تطهيراً من الشرك ، والصلاة تنزيهاً عن الكبر ، والزكاة تسبيباً للرزق ، والصيام ابتلاءً لإخلاص الخلق ، والحجّ تقوية للدين ، والجهاد عزّاً للإسلام ، والأمر بالمعروف مصلحة للعوام، والنهي عن المنكر ردعاً للسفهاء ، وصلة الأرحام منماةً للعدد ، والقصاص حقناً للدماء ، وإقامة الحدود إعظاماً للمحارم ، وترك شرب الخمر تحصيناً للعقل ، ومجانبة السرقة إيجاباً للعفّة ، وترك الزنا تحصيناً للأنساب ، وترك اللواط تكثيراً للنسل ، والشهادة استظهاراً على المجاحدات ، وترك الكذب تشريفاً للصدق ، والإسلام أماناً من المخاوف، والإمامة نظاماً للأمة ، والطاعة تعظيماً للإمامة .

وقال عليه‌السلام أيضاً : زكاة البدن الجهاد والصيام ، وزيارة بيت الله أمن من عذاب جهنّم .

وقال عليه‌السلام : وَامر بالمعروف تكن من أهله ، وأنكر المنكر بيدك ولسانك وباين من فعله بجُهدِك ، وغاية الدين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود ، والجهاد عماد الدين ومنهاج السعداء، ومن جاهد على إقامة الحقّ وفِّق ، والمجاهدون تفتّح لهم أبواب السماء ، وثواب الجهاد أعظم الثواب (1) .

في رحاب الأخلاق والتربية :

اعتنى الإمام المرتضى بتربية المجتمع وحاول أن يعالج الانحراف الأخلاقي في الإنسان من جذوره العميقة ، فوصف الداء الأساسي بقوله عليه‌السلام : ألا وإنّ حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة . ثمّ بيّن السبب الأعمق في هذا الحبّ حينما أوضح الأسباب العميقة التي كانت تكمن وراء التآمر على الأطروحة النبويّة للخلافة والسرّ في استلاب الحكم منه بالرغم من تواتر النصوص النبويّة الكثيرة وإتمام الحجّة على المسلمين قائلاً : بلى لقد سمعوها ووعَوْها ولكن حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها .

ويترتّب على هذا الحبّ الشديد أنّ الإنسان سوف يستخدم مختلف الوسائل للوصول إلى ما يصبوا إليه فإنّ حبّ الشيء يُعمي ويصمّ ولهذا برّر الخلفاء تقمّصهم الخلافة بمختلف التبريرات التي دحضتها حجج الإمام عليه‌السلام الدامغة ، ولكن استمرّ التصلّب على الموقف الذي أدانه الإمام عليه‌السلام . وإذا سألنا الإمام عليه‌السلام عن الدواء الناجع لعلاج هذا السبب الأعمق في الانحراف ؛ وجدناه العلاج في وصفه الدقيق للمتّقين في الخطبة المعروفة بخطبة همّام حيث وضّح السرّ الذي أوصلهم إلى هذه المرتبة من الكمال المتمثّلة بالتقوى بقوله : لقد عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم . وهكذا تكون المعرفة الحقيقية بالله العظيم سبباً في حقارة الدنيا في أعين عباده المتّقين ، وإذا صغرت الدنيا في أعينهم ؛ لم تكن الدنيا غاية همّتهم ولم يجدّوا في اقتنائها ، بل يحرصوا عليها وعلى ملكها كما لم يحرص عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام عليها فقد تنازل عن الخلافة حينما استبدّت بها قريش قائلاً : فإنّها كانت إثرة شحّت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين والحَكَم الله والموعد القيامة.

ــــــــــــ

(1) تصنيف غرر الحكم : 175 ـ 190 و 331 ـ 335 ، والمعجم الموضوعي لنهج البلاغة : 140 ـ 150 و 216 ـ 239 .

ومن هنا نشأت في المجتمع الإسلامي أخلاقيتان متميّزتان : أخلاقية عليّ النموذجية التي تدين السياسة الميكافيلية ، وأخلاقية الخلفاء التي كانت ترى مشروعية الوصول إلى الحكم بأيّة وسيلة ممكنة ، ومن هنا كان زهد عليّ في الحكم وحرص غيره عليه (1) .

في رحاب الدعاء والمناجاة :

اهتمّ الإمام عليّ عليه‌السلام كما اهتم سائر الأئمة من أهل البيت عليهم‌السلام بحقل الدعاء والمناجاة بعد أن فتح القرآن الكريم هذا الباب قائلاً للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : (قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ) وبيّن أهميّة الدعاء بنصوصه وسيرته فقال عليه‌السلام : (الدعاء سلاح الأولياء ) .

وتضمّن نهج البلاغة مجموعة من الأدعية العلويّة لشتى الأغراض والمجالات ، وجمعت أدعيته عليه‌السلام فيما يُسمّى بالصحيفة العلوية. ومن غرر أدعيته الدعاء المعروف بدعاء كميل ودعاء الصباح والمناجاة الشعبانية ، ونشير إلى مقطع من مناجاته المنظومة التي أثرت عنه ، قال عليه‌السلام :

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لك الحمد يا ذا الجود والمجد والعلى  |  | تباركت تعطي من تشاء وتمنعُ  |
| إلهي وخلاّقي وحرزي وموئلي  |  | إليك لدى الإعسار واليُسر أفزعُ  |

ــــــــــــ

(1) المعجم الموضوعي لنهج البلاغة : 282 ـ 356 و 194 ـ 214 و 152 ـ 169 و 374 ـ 379 ، وتصنيف غرر الحكم : القسم الأخلاقي : 205 ـ 323 و 127 ـ 147 .

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إلهي لئن جلّت وجمّت خطيئتي  |  | فعفوك عن ذنبي أجلّ وأوسعُ  |
| إلهي ترى حالي وفقري وفاقتي  |  | وأنت مناجاتي الخفيةَ تسمعُ  |
| إلهي فلا تقطع رجائي ولا تُزغ  |  | فؤادي فلي في سيب جودك مطمعُ  |
| إلهي لئن خيّبتني أو طردتني  |  | فمن ذا الذي أرجو من ذا اُشفِّعُ؟  |
| إلهي أجرني من عذابك إنّني  |  | أسير ذليل خائف لك أخضعُ  |
| إلهي لئن عذّبتني ألف حجّة  |  | فحبل رجائي منك لا يتقطّعُ  |
| إلهي إذا لم تعفُ عن غير محسن  |  | فمن لمسيء بالهوى يتمتّعُ؟  |
| إلهي حليف الحبّ في الليل ساهر  |  | يناجي ويدعو والمغفّل يهجعُ(1)  |

في رحاب أدب الإمام عليه‌السلام :

لقد تعرّفنا على مجموعة من النصوص المنثورة والمنظومة التي أثرت عن الإمام عليه‌السلام في نهج البلاغة أو غيره من الكتب التي اهتمّت بتراث الإمام عليه‌السلام ، ولاحظنا القمّة الشاهقة التألّق التي بلغها الإمام سواء في ميدان الخطابة أو الكتب والرسائل أو الكلمات الحكمية والمواعظ أو ميدان الشعر ، ولا نبالغ إذا قلنا ـ كما قال متخصّصو الأدب ـ إنّ أجود نتاج أدبي عرفه التأريخ فنّاً وعمقاً وفكراً هو نتاج الإمام عليّ عليه‌السلام (2) .

ونختار نماذج منظومة من أدبه عليه‌السلام في مختلف المجالات ، علماً بأنّ هناك ديوان شعر منسوباً إليه ، وقد اعتمده بعض المؤرّخين واستشهدوا بنماذج أدبيّة من نصوصه (3) .

قال عليه‌السلام في رثاء أبيه أبي طالب رضوان الله تعالى عليه .

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أبا طالبٍ عصمة المستجير  |  | وغيث المحول ونور الظُلَم  |

ــــــــــــ

(1) الصحيفة العلوية ومفاتيح الجنان .

(2) تأريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي للدكتور محمود البستاني : أدب الإمام علي عليه‌السلام .

(3) راجع : في رحاب أئمّة أهل البيت عليهم‌السلام للسيد محسن الأمين : 2 / 301 ـ 313 .

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لقد هدّ فقدُكَ أهل الحفاظ  |  | فصلّى عليك وليّ النِعَم  |
| ولقّاك ربّك رضوانه  |  | فقد كنت للمصطفى خير عمّ(1)  |

وجاء عن الجاحظ والبلاذري : أن عليّاً أشعر الصحابة وأفصحهم وأخطبهم وأكتبهم ، وممّا قاله يوم بدر :

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| نصرنا رسول الله لمّا تدابروا  |  | وثاب إليه المسلمون ذوو الحجى  |
| ضربنا غواة الناس عنه تكرّماً  |  | ولمّا يروا قصد السبيل ولا الهدى  |
| ولما أتانا بالهدى كان كلّنا  |  | على طاعة الرحمن والحقّ والتقى  |

وممّا أورده سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص قوله عليه‌السلام :

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| للناس حرص على الدنيا بتدبير  |  | وصفوها لك ممزوج بتكدير  |
| لم يرزقوها بعقل حينما رزقوا  |  | لكنّما رزقوها بالمقادير  |
| لو كان عن قوّة أو عن مغالبةٍ  |  | طار البزاة بأرزاق العصافير  |

وعنه عليه‌السلام :

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| داؤك فيك وما تشعر  |  | وداؤك منك وما تبصر  |
| وتحسب أنّك جرم صغير  |  | وفيك انطوى العالم الأكبر  |

فسلام عليك يا أبا الحسن والحسين يا سيّد البلغاء والشعراء يوم ولدت ويوم آمنت وجاهدت ويوم صبرت وآثرت ويوم أقمت حدود الله واستشهدت صابراً محتسباً ويوم تبعث حياً ، تقود أحبّاءك على الحوض إلى جنّات النعيم .

والحمد لله ربّ العالمين

ــــــــــــ

(1) راجع : الغدير : 3 / 106 و 7 / 378 , 379 .

الفهرست

[المقدمة 4](#_Toc381792324)

[الباب الأول: فيه فصول: 10](#_Toc381792325)

[الفصل الأوّل: الإمام المرتضى عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام في سطور 10](#_Toc381792326)

[الفصل الثاني: انطباعات عن شخصيّة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام 15](#_Toc381792327)

[الفصل الثالث: مظاهر من شخصية الإمام عليّ عليه‌السلام 20](#_Toc381792328)

[عبادته وتقواه عليه‌السلام: 21](#_Toc381792329)

[زُهده عليه‌السلام: 22](#_Toc381792330)

[إباؤه وشهامته عليه‌السلام: 23](#_Toc381792331)

[مروءته عليه‌السلام : 24](#_Toc381792332)

[صدقه وإخلاصه عليه‌السلام: 24](#_Toc381792333)

[شجاعته عليه‌السلام: 25](#_Toc381792334)

[عدله عليه‌السلام: 26](#_Toc381792335)

[تواضعه عليه‌السلام: 27](#_Toc381792336)

[نقاؤه عليه‌السلام: 27](#_Toc381792337)

[كرمه عليه‌السلام: 27](#_Toc381792338)

[علمه ومعارفه عليه‌السلام : 28](#_Toc381792339)

[الباب الثاني: فيه فصول: 31](#_Toc381792340)

[الفصل الأول: نشأة الإمام علي عليه‌السلام 31](#_Toc381792341)

[نسبه الوضّاء : 31](#_Toc381792342)

[جدّه الكريم : 31](#_Toc381792343)

[والده : 32](#_Toc381792344)

[أُمّه : 33](#_Toc381792345)

[الفصل الثاني: مراحل حياة الإمام عليّ عليه‌السلام 34](#_Toc381792346)

[الفصل الثالث: المرحلة الأولى : من الولادة إلى البعثة النبوية المباركة 35](#_Toc381792347)

[ولادته : 35](#_Toc381792348)

[كناه وألقابه : 36](#_Toc381792349)

[الإعداد النبويّ للإمام عليّ عليه‌السلام : 37](#_Toc381792350)

[المرحلة الثانية : من البعثة إلى الهجرة 39](#_Toc381792351)

[عليّ عليه‌السلام أول المؤمنين برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : 39](#_Toc381792352)

[علّي عليه‌السلام أوّل من صلّى : 41](#_Toc381792353)

[أوّل صلاة جماعة في الإسلام : 42](#_Toc381792354)

[عليٌّ عليه‌السلام حين إعلان الرسالة : 44](#_Toc381792355)

[حديث يوم الإنذار : 44](#_Toc381792356)

[عليٌ عليه‌السلام من إعلان الرسالة إلى الهجرة النبويّة المباركة : 45](#_Toc381792357)

[عليّ عليه‌السلام في شِعب أبي طالب : 46](#_Toc381792358)

[علي عليه‌السلام والهجرة إلى الطائف : 48](#_Toc381792359)

[علي عليه‌السلام في بيعة العقبة الثانية : 49](#_Toc381792360)

[عليّ عليه‌السلام ليلة هجرة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إلى المدينة 49](#_Toc381792361)

[مباهاة الله ملائكته بموقف عليّ عليه‌السلام: 52](#_Toc381792362)

[مهامّ ما بعد ليلة المبيت : 53](#_Toc381792363)

[هجرة الإمام عليّ عليه‌السلام : 54](#_Toc381792364)

[من معاني مبيت الإمام عليه‌السلام في فراش النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : 57](#_Toc381792365)

[المرحلة الثالثة : عليّ عليه‌السلام من الهجرة إلى وفاة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم 58](#_Toc381792366)

[1 ـ عليّ عليه‌السلام والمؤاخاة : 58](#_Toc381792367)

[2 ـ اقتران عليّ عليه‌السلام بالزهراء عليها‌السلام : 59](#_Toc381792368)

[3 ـ عليّ عليه‌السلام مع الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في معاركه : 61](#_Toc381792369)

[أ ـ عليّ عليه‌السلام في معركة بدر : 61](#_Toc381792370)

[ب ـ عليّ عليه‌السلام في معركة اُحد : 63](#_Toc381792371)

[مواقف بعد معركة (أُحد( : 67](#_Toc381792372)

[ج ـ عليّ عليه‌السلام في معركة الخندق : 69](#_Toc381792373)

[د ـ عليّ عليه‌السلام في صلح الحديبية (\*) : 72](#_Toc381792374)

[هـ ـ عليّ عليه‌السلام في غزوة خيبر (\*) : 75](#_Toc381792375)

[و ـ عليّ عليه‌السلام في فتح مكّة (\*) : 78](#_Toc381792376)

[صعود عليّ عليه‌السلام على منكب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لتحطيم الأصنام : 80](#_Toc381792377)

[ز ـ عليّ عليه‌السلام في غزوة حنين (\*) : 80](#_Toc381792378)

[ح ـ عليّ عليه‌السلام في غزوة تبوك (\*) : 81](#_Toc381792379)

[تبليغ سورة براءة : 82](#_Toc381792380)

[عليّ عليه‌السلام في اليمن : 84](#_Toc381792381)

[طبيعة عمل النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : 86](#_Toc381792382)

[عليّ عليه‌السلام في حجّة الوداع : 88](#_Toc381792383)

[عليّ عليه‌السلام في غدير خم أميراً للمؤمنين : 89](#_Toc381792384)

[واقعة الحارث بن النعمان ونزول آية (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ) : 91](#_Toc381792385)

[محاولات الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لتثبيت بيعة عليّ عليه‌السلام : 91](#_Toc381792386)

[مرض النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وسريّة أسامة : 93](#_Toc381792387)

[رأي : 95](#_Toc381792388)

[عليّ عليه‌السلام مع النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في اللحظات الأخيرة: 96](#_Toc381792389)

[الباب الثالث : فيه فصول : 97](#_Toc381792390)

[الفصل الأوّل: عصر الإمام عليّ عليه‌السلام 97](#_Toc381792391)

[حديث الوفاة : 97](#_Toc381792392)

[الحزب القرشي والأنصار في السقيفة : 98](#_Toc381792393)

[تحليل اجتماع السقيفة : 101](#_Toc381792394)

[نظرة قريش للخلافة : 103](#_Toc381792395)

[ملامح التخطيط لإقصاء الإمام عليّ عليه‌السلام عن الخلافة : 105](#_Toc381792396)

[سلبيّات حادثة السقيفة : 108](#_Toc381792397)

[موقف الإمام عليه‌السلام من اجتماع السقيفة : 110](#_Toc381792398)

[موقف أبي سفيان : 111](#_Toc381792399)

[أقطاب المعارضة للسقيفة : 112](#_Toc381792400)

[نتائج السقيفة : 114](#_Toc381792401)

[الفصل الثاني: الإمام عليّ عليه‌السلام في عهد أبي بكر 116](#_Toc381792402)

[خطوات السلطة لمواجهة المعارضة : 116](#_Toc381792403)

[الاحتجاجات على خلافة السقيفة : 118](#_Toc381792404)

[محاولة إرغام الإمام عليه‌السلام على البيعة : 120](#_Toc381792405)

[الإمام عليّ عليه‌السلام ومضاعفات السقيفة : 123](#_Toc381792406)

[وصيّة أبي بكر إلى عمر : 130](#_Toc381792407)

[مآخذ على وصية أبي بكر : 132](#_Toc381792408)

[الفصل الثالث: الإمام علي عليه‌السلام في عهد عمر (\*) 134](#_Toc381792409)

[ملامح من سيرة عمر (3) : 135](#_Toc381792410)

[محنة الشورى : 136](#_Toc381792411)

[مؤاخذات على الشورى : 138](#_Toc381792412)

[حوار ابن عباس مع عمر حول الخلافة : 140](#_Toc381792413)

[موقف الإمام عليه‌السلام من الشورى : 142](#_Toc381792414)

[الفصل الرابع: الإمام علي عليه‌السلام في عهد عثمان (\*) 145](#_Toc381792415)

[قال أمير المؤمنين عليّ عليه‌السلام واصفاً عهد عثمان : 145](#_Toc381792416)

[أبو سفيان بعد بيعة عثمان : 146](#_Toc381792417)

[ملامح سلبيّة في حكم عثمان : 147](#_Toc381792418)

[موقف للإمام علي عليه‌السلام مع عثمان : 149](#_Toc381792419)

[الآثار السلبية لحكومة عثمان في الأُمة : 150](#_Toc381792420)

[الباب الرّابع فيه فصول : 153](#_Toc381792421)

[الفصل الأول: الإمام عليّ عليه‌السلام بعد مقتل عثمان 153](#_Toc381792422)

[بيعة المسلمين للإمام عليّ عليه‌السلام (\*) : 153](#_Toc381792423)

[المتخلّفون عن بيعة الإمام عليه‌السلام : 155](#_Toc381792424)

[عقبات في طريق حكومة الإمام عليه‌السلام : 156](#_Toc381792425)

[1 ـ هدم الكيان الطبقي الذي أنشأه الخلفاء وذلك عبر : 157](#_Toc381792426)

[2 ـ التنظيم الإداري وإعادة السيطرة المركزية للدولة : 159](#_Toc381792427)

[محاور عمل الإمام عليه‌السلام في الأمة : 160](#_Toc381792428)

[المحور الأول : السعي لاستلام مقاليد الحكم وزمام التجربة ، والنهوض بالأمة 160](#_Toc381792429)

[الثقافة الإسلامية في حكم الخلفاء (\*) : 163](#_Toc381792430)

[جهود الإمام عليه‌السلام في إحياء الشريعة الإسلامية : 166](#_Toc381792431)

[الفصل الثاني: الإمام علي عليه‌السلام مع الناكثين (\*) 168](#_Toc381792432)

[مثيروا الفتن : 168](#_Toc381792433)

[عائشة تعلن التمرّد : 169](#_Toc381792434)

[مكر معاوية ونكث الزبير وطلحة للبيعة : 171](#_Toc381792435)

[حركة عائشة ومسيرها نحو البصرة : 172](#_Toc381792436)

[مناوشات على مشارف البصرة : 174](#_Toc381792437)

[الاقتتال ـ الهدنة ـ الغدر : 175](#_Toc381792438)

[حركة الإمام عليه‌السلام للقضاء على التمرّد (1) : 176](#_Toc381792439)

[آخر النصائح : 177](#_Toc381792440)

[نشوب المعركة : 178](#_Toc381792441)

[مواقف الإمام بعد المعركة : 179](#_Toc381792442)

[نتائج حرب الجمل : 180](#_Toc381792443)

[الكوفة عاصمة الخلافة : 181](#_Toc381792444)

[الفصل الثالث: الإمام علي عليه‌السلام مع القاسطين (\*) 182](#_Toc381792445)

[استعدادات معاوية لمحاربة الإمام عليه‌السلام : 182](#_Toc381792446)

[السيطرة على الفرات : 183](#_Toc381792447)

[محاولة سلمية : 184](#_Toc381792448)

[الحرب بعد الهدنة : 184](#_Toc381792449)

[مقتل عمار بن ياسر : 185](#_Toc381792450)

[أو يرجع الحقّ إلى سبيله 185](#_Toc381792451)

[خدعة رفع المصاحف : 186](#_Toc381792452)

[التحكيم وصحيفة الموادعة : 188](#_Toc381792453)

[موقف واع وتقييم : 189](#_Toc381792454)

[رجوع الإمام عليه‌السلام واعتزال الخوارج : 189](#_Toc381792455)

[اجتماع الحكمين : 190](#_Toc381792456)

[قرار التحكيم : 191](#_Toc381792457)

[الفصل الرابع: الإمام علي عليه‌السلام مع المارقين 192](#_Toc381792458)

[ردّ الإمام عليه‌السلام على قرار الحكمين : 193](#_Toc381792459)

[المواجهة مع الخوارج : 194](#_Toc381792460)

[احتلال مصر : 196](#_Toc381792461)

[انهيار الأمة وتفكّكها : 197](#_Toc381792462)

[آخر محاولات الإمام عليه‌السلام : 199](#_Toc381792463)

[الفصل الخامس: الإمام علي عليه‌السلام شهيد المحراب (1) 200](#_Toc381792464)

[وصيّة الإمام عليه‌السلام : 201](#_Toc381792465)

[دفن وتأبين الإمام عليه‌السلام : 202](#_Toc381792466)

[الفصل السادس: تراث الإمام المرتضى علي بن أبي طالب عليه‌السلام 204](#_Toc381792467)

[في رحاب نهج البلاغة : 205](#_Toc381792468)

[في رحاب العقل والعلم والمعرفة : 206](#_Toc381792469)

[في رحاب القرآن الكريم والسنّة النبويّة المباركة : 207](#_Toc381792470)

[في رحاب التوحيد والعدل والمعاد : 208](#_Toc381792471)

[في رحاب القيادة الإلهية (النبوّة والإمامة) : 209](#_Toc381792472)

[في رحاب الإمام المهدي عليه‌السلام : 211](#_Toc381792473)

[في رحاب الحكم الإسلامي : فلسفته وأصوله 213](#_Toc381792474)

[في رحاب العبادات والفرائض : 215](#_Toc381792475)

[في رحاب الأخلاق والتربية : 216](#_Toc381792476)

[في رحاب الدعاء والمناجاة : 217](#_Toc381792477)

[في رحاب أدب الإمام عليه‌السلام : 218](#_Toc381792478)